دراسات

في التفسير الموضوعي

للقرآن الكريم

تأليف

الدكتور زاهر بن عواض الألمعي

الطبعَة الأولى
١٤٠٥ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله العلى القدير والصلاة والسلام على سيدنا محمد الهادي البشير وعلى آله وأصحابه الغرّ الميامين، ورضى الله عنهم وعن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين .. أمابعد :

فإن القرآن الكريم مصدر الهدى والشفاء للناس عامة، وللمؤمنين خاصة ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] وهو الكتاب الجامع لأصول الدين وفروعه، نصاً أو استنباطاً عقيدة وشريعة ونظام حياة... أودع الله فيه من كنوز المعرفة وأصول العدل ومناهج الخير مايُسعد الإنسانية ويفتح أمامها آفاقاً رحبة في عمارة الكون والتعارف والتعامل في ظل دستور قرآنى خالد يرعى الحقوق ويصون المواثيق والعهود ويبشر الإنسانية المؤمنة بحسن مصيرها في الدار الآخرة إذا هي آمنت بالله واهتدت بهداه.. مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا[2] وقد اهتم علماء المسلمين بتفسير كتاب الله، واستنباط أحكامه وهداياته، ففتح الله لهم من أسرار هذا الكتاب الكريم علوماً جمة وآفاقا رحبة في جميع جوانب الكون ووجوه النشاط في الحياة، فهو كتاب علم وهداية، ومنهاج تربية وحضارة.

---

(١) سورو يونس الآية (٥٧).

(٢) سورة النساء الآية (١٤٧).

وعندما طُلب إلىَّ أن أقوم بتدريس مادة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، لطلاب الدراسات العُليا بكلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وجدتها فرصة طيبة أن أعيش مع كتاب الله تعالى، وأن أقوم قدر طاقتى المحدودة بجمع المادة العلمية حسب المنهاج المقرر.

وحينما بدأت في البحث واستجلاء جوانب الموضوعات تبيّن لى أن المكتبة الإسلامية تفتقر إلى شيىء اسمه التفسير الموضوعى، إذ لايوجد في القديم أو الحديث ــ فيما أعلم ــ هذا اللون من التفسير اللهم إلا شذرات متفرقة هنا وهناك، لأن المفسرين للقرآن الكريم كان تفسيرهم ــ غالباً ــ مُنصّباً على جميع آيات القرآن وسوره حسب ترتيب المصحف وماكتبه العلماء القدامى والمحدثون مثل الإعجاز والناسخ والمنسوخ والجدل وأسباب النزول، فهي من مباحث علوم القرآن وليست تفسيراً موضوعيا وإن كان لها صلة بالتفسير الموضوعى من بعض الوجوه.

لهذا رأيت أن أقوم بدراسة متواضعة لهذا اللون من التفسير، أتناول فيها نشأته وتطوره، وأبحث القضايا الكلية كأصول الإيمان، والشرائع، والأخلاق في القرآن الكريم، والتنزيل المكىّ والمدنى وأثر كل منهما في سير الدعوة وبناء المجتمع، وترابط الآيات والسور في وحدتها الموضوعية، واختيار بعض السور القرآنية كنماذج لهذه الدراسة الموضوعية، مع تفسير بعض الموضوعات الواردة في القرآن الكريم تفسيراً موضوعيّاً، والله أسأل أن يجعل العمل خالصاً لوجهه الكريم وهو حسبنا ونعم الوكيل.

د. زاهر بن عوّاض الألمعى
الرياض في : ١٤٠٤/١/١هـ

(ا) مدخل إلى :

التفسير الموضوعى

معنى (تفسير موضوعى) :

التفسير : عبارة عن الكشف والبيان، يقال: أسفر الصبح لذى عينين أي بان ووضح. وفي الشرع: عبارة عن الكشف عن معاني آيات القرآن الكريم والغوص في أعماقها للوصول إلى مراد الله تعالى منها بقدر الطاقة البشرية.

وموضوعي : نسبة إلى موضوع، فيقال مثلا: البر في القرآن الكريم، القيامة والجزاء في القرآن الكريم، الإحسان إلى الوالدين في القرآن الكريم، وهكذا.

وإضافة (تفسير) إلى (موضوعي) : صارت علماً على هذا الفن بعد أن ركّبت معها وصارت كلمة واحدة كتركيب (معديكرب) فتنوسيت تلك الإضافة.

فالتفسير الموضوعى : عبارة عن جمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع واحد، مشتركة في الهدف، وترتيبها على حسب النزول ـــ كلما أمكن ذلك ـــ ثم تناولها بالشرح والتفصيل وبيان حكمة الشارع في شرعه وقوانينه، مع الإحاطة التامة بكل جوانب الموضوع كما ورد في القرآن الكريم، والكشف عما يمكن أن يكون قد أثير حوله من شبه الضالين والملحدين من أعداء الدين.

وقد اشتمل القرآن الكريم على كثير من المباحث والموضوعات المتنوعة التي تخدم الفرد والمجتمع المسلم القوى، وتدفع بالجميع إلى حياة أفضل، هدفها نشر الدين وإعلاء كلمة الله ثم الجزاء بالحسنى والزيادة عند لقيا الله عزوجل في الآخرة.

والتفسير الموضوعى تقسيم لآيات القرآن الكريم إلى مجموعات كل مجموعة منها تندرج تحت عنوان يشملها جميعاً، هذه الآيات المتفرقة تكون بحثاً مستقلاً متميزاً عن غيره، ذات موضوع واحد وهدف واحد.(١)

والتفسير الموضوعى : يطلق ويراد به أمران بينهما ارتباط من بعض الوجوه :

الأول :

جمع الأشباه والنظائر في القرآن الكريم حسب مادة الكلمة اللغوّية، ثم ترتيبها ترتيباً معجمياً، وذلك كما صنع الفقيه الدامغاني في كتابه [إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم] وكان يسميه أحياناً [قاموس القرآن].

وقريب منه كتاب [بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز] للفيروز أبادى.

ــ ومنهم من لايتقيد بالترتيب الهجائى للمفردات، كما صنع مقاتل بن سليمان البلخى، المتوفى (١٥٠هـ) في كتابه [الأشباه والنظائر في القرآن الكريم] مثل كلمة «الاستغفار» فقد وردت في القرآن على ثلاثة أوجه ثم أتى بعدها بكلمة (الدين)، وردت على خمسة أوجه ثم ذكر (الحس) ووردت على أربعة أوجه(٢) وهكذا دون ترتيب أبجدي.

ــ وقريب منه أيضاً ــ ابن الجوزي ــ المتوفى (٥٩٧هـ) في كتابه القيّم [نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر].

---

(١) انظر التفسير الموضوعى للدكتور/ محمد القاسم ص ٧ ــ ٨.

(٢) انظر الأشباه والنظائر لمقاتل ص ١٣٢ ــ ١٣٥.

ــ كذا ــ ابن العماد المتوفى (٨٨٧هـ) في كتابه [كشف السرائر في معنى الوجوه والأشباه والنظائر] وغيرهم ممن تحدث عن الأشباه والنظائر في القرآن الكريم.

الثاني :

ــ ذكر الموضوع، ثم جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن ممالها علاقة به، سواء اشتركت معه في اللفظ أو المعنى أو ارتبطت بالموضوع ارتباطاً قوياً ولو من بعض الوجوه.، وذلك مثل موضوع: «المرأة في القرآن الكريم» فتجمع الآيات التي تحدثت عن المرأة في الزواج، والطلاق، والحضانة، والميراث والعلاقة الزوجية، وغير ذلك مما يتعلق بشئون المرأة ــ مما تناولته الآيات القرآنية.

ــ كذلك (الجهاد في القرآن) ومثله (الصبر في القرآن) إلى غير ذلك من الموضوعات الكثيرة.

ــ من خلال ماسبق يتبين لنا أن أقرب تعريف للتفسير الموضوعى.. أن يقال: هو [جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن الكريم المتعلقة بالموضوع الواحد لفظاً أو حكماً، وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية].

(ب) نشأته وتطوره :ــ

ــ لانستطيع أن نحدد بداية لظهور التفسير الموضوعى للقرآن الكريم بالمعنى الاصطلاحى الذي ظهر في عصرنا الحاضر، إذ أنه حتى لو وجد هذا اللون من التفسير لدى بعض المتقدمين فإنه لم يكن معروفاً وشائعاً بينهم بهذا الاسم فيما

أعلم، ولكننى بعد التأمل في كتاب الله ودراسة بعض الموضوعات ظهر لى أن أصل هذا الاتجاه في التفسير الموضوعى كامنٌ في كتاب الله تعالى وفي آياته البيّنات التى وردت في موضوع واحد لمعالجته في صوره المتنوعة، وظفرت بأمثلة، منها (عدة المطلّقة). فإن الآية الكريمة التي تقول: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ (١) قد عمّت جميع المطلقات في الحكم، وبالنظر في آيات القرآن المتعلقة بهذا الموضوع مجتمعة، تبيّن لى أن كل آية منها تعنى حالة من حالات المطلقة، فليس كل مطلقة عدّتها ثلاثة قروء، سواء أكانت القروء بمعنى الأطهار أم الحيض؛ بل هناك مطلقة ليس لها عدّة أصلاً، وهي المطلقة قبل أن يمسها زوجها، قال تعالى: [يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا](٢) ــ واليائسة من الحيض لكبر سنها مثلاً، عدتها ثلاثة أشهر، وكذلك الصغيرة التي لم تحض فإن عدتها ثلاثة أشهر.. قال تعالى: ﴿ وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ ﴾(٣).

ــ وهناك نوع آخر من المطلقات، وهي المرأة المطلّقة وهي حامل فعدتها بوضع حملها، كما قال تعالى: ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾(٤).

ــ وهذا النوع يذكره الأصوليون في مباحث الخاص والعام، ولكن لا أرى مانعاً من أن تجرى عليه دراسة التفسير الموضوعى لأنه تفسير للقرآن بالقرآن، ومن المعلوم

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٢٨).
(٢) سورة الأحزاب الآية (٤٩).
(٣) سورة الطلاق الآية (٤).
(٤) سورة الطلاق الآية (٤).

أن أعظم مصادر التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن، وهو منهج أصيل استعمله النبي ﷺ، ووجه إليه، كما ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه أحمد والشيخان عن ابن مسعود قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾[١] شقَّ ذلك على الناس فقالوا:ـ يارسول الله، وأينا لم يظلم نفسه؟ ـ قال: إنّه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ماقال العبد الصالح [إن الشرك لظلم عظيم] إنما هو الشرك[٢].

ـ وكما في صحيح البخارى أن رسول الله ﷺ قال: مفاتيح الغيب خمسة، ثم قرأ ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾[٣].

فإذا نظرنا إلى المفسرين القدامى، نجد من انتهج هذا المنهج ولو من بعض الوجوه ـ فمثلاً: مقاتل بن سليمان البلخى المتوفى سنة ١٥٠هـ له كتاب [الأشباه والنظائر] كما سبقت الإشارة إليه، وهو أقدم وثيقة بين أيدينا في كتب الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، ـ وهو سائر على بيان أوجه الكلمة التي وردت في القرآن ـ فمثلاً يقول عن كلمة (الطعام) مانصّه:ـ

ـ تفسير الطعام على أربعة وجوه:ـ

* **فوجه منها** : الذي يأكله الناس، كما في قوله تعالى ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾[٤].

---

(١) سورة الأنعام الآية (٨٢).

(٢) انظر صحيح البخارى جـ٣ ص ١٢٨.

(٣) صحيح البخارى ـ كتاب التفسير جـ٣ ص ١٧٤ ـ والخمس هي المذكورة في آخر سورة لقمان ـ وهي قوله تعالى: ﴿إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير﴾.

(٤) سورة قريش الآية (٤).

* **والوجه الثاني** : الطعام يعنى الذبائح فذلك قوله تعالى في المائدة ﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ﴾(١) يعنى وذبائحكم حل لهم.

* **والوجه الثالث** : الطعام ـــ يعنى مليح السمك، فذلك قوله تعالى في المائدة ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُ ﴾(٢) يعنى مليح السمك.

* **الوجه الرابع** : طعموا: يعنى شربوا، فذلك قوله تعالى في سورة المائدة ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ ﴾(٣) يعنى شربوا من الخمر قبل التحريم كقوله تعالى في سورة البقرة ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ ﴾(٤) يعنى ومن لم يشربه [فإنه منى](٥).

ـــ وإذا تتبعنا التفاسير نجد في بعضها هذا الاتجاه إلى التفسير الموضوعى، ولو من بعض الوجوه، أقرأ مثلاً تفسير ابن كثير (رحمه الله) فأجده يجمع كثيراً من الآيات التي ضرب فيها المثل، وذلك عند تفسيره لقول الله تعالى في سورة البقرة:ـــ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾(٦) قال رحمه الله.. ما نصّه «فأخبر أنه لايستصغر شيئاً يضرب به مثلاً، ولو كان في الحقارة والصغر كالبعوضة كما لايستنكف عن خلقها كذلك لايستنكف من ضرب المثل بها كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت في قوله تعالى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ

---

(١) سورة المائدة الآية (٥).

(٢) سورة المائدة الآية (٩٦).

(٣) سورة المائدة الآية (٩٣).

(٤) سورة البقرة الآية (٢٤٩).

(٥) الأشباه والنظائر لمقاتل ص ١٨٨.

(٦) سورة البقرة الآية (٢٦).

لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ (١) وقال: مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۖ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ (٢) وقال تعالى: أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٖ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٖ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلۡقَوۡلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفۡعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ (٣) وقال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ (٤) ثم قال: وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ ﴾ (٥) الآية، كما قال: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ (٦) الآية، وقال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ ﴾ (٧) الآية، قال: وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ (٨) وفي القرآن أمثال كثيرة (٩). ا.هـ

ـــ ومن تلك النماذج القديمة للتفسير الموضوعى كتاب [التبيان في أقسام

---

(١) سورة الحج الآية (٧٣).

(٢) سورة العنكبوت الآية (٤١).

(٣) سورة إبراهيم الآيات (٢٤، ٢٥، ٢٦).

(٤) سورة النحل الآية (٧٥).

(٥) سورة النحل الآية (٧٦).

(٦) سورة الروم الآية (٢٨).

(٧) سورة الزمر الآية (٢٩).

(٨) سورة العنكبوت الآية (٤٣).

(٩) تفسير ابن كثير جـ١ ص ٦٤ ـــ ٦٥.

القرآن] للإمام ابن القيم المتوفى (٧٥١هـ)، و[مجاز القرآن] لأبى عبيدة معمر بن المثنى المتوفى (٢١٠هـ)، و[مفردات القرآن] للراغب الأصفهانى المتوفى (٥٠٣هـ) و[الناسخ والمنسوخ] لأبى جعفر النحاس، وغيرهم، في موضوعات متعددة، نحو [أسباب النزول] للواحدى.. الخ.

ــ وإذا أخذنا حركة الاهتمام بكتاب الله تعالى في أوسع ميادينها وآفاقها، نجد مئات التفاسير للقرآن الكريم في القديم والحديث، مختلفة المشارب، متنوعة المذاهب تتفاوت في الطول والقصر بين الإطناب والإيجاز، ومنها ما هو بين هذا وذاك.

ــ ومنها ما اعتمد على النقل والرواية، ومنها ما اعتمد على الرأى والدراية، ومنها ما جمع بينهما.

ــ منها ما تحرر من المذهبية، ومنها ماظهر عليه طابع خاص كلامى أو فقهى أو صوفى، بل منها ماخرج عن حدود اللغة وأصول الشرع كتفاسير الباطنية.

ــ وظهرت بجوار التفاسير الكاملة للقرآن أنواع أخرى من المؤلفات والدراسات لخدمة القرآن وبيانه للناس .. وذلك مثل المؤلفات في [أحكام القرآن] أو في [علوم القرآن] بصفة عامة، أو في فرع أو نوع منها، مثل [إعجاز القرآن] أو [مجاز القرآن] أو القراءات وما يتعلق بها، أو أصول التفسير .. إلى غير ذلك من شتّى أنواع العلوم التي تنتسب إلى القرآن وتقصد إلى خدمته.

ــ وفي عصرنا برز لون جديد من ألوان الدراسات القرآنية وإن شئت قلت: لون جديد من التفسير للقرآن الكريم وهو: [التفسير الموضوعى] الذي نحن بصدد الحديث عنه، وذلك حسب الموضوعات التى اشتمل عليها القرآن، وليس تفسيراً

بالمعنى الاصطلاحى المألوف، لأنه لايتناول جميع آيات القرآن، بل هو جمع للآيات الواردة في الموضوع الواحد في مختلف سور القرآن الكريم، ثم تصنيفها والاستنباط منها أو التعقيب عليها..

ـــ وقد ظهر حديثاً كتاب [الوحى المحمدى] للسيد ، محمد رشيد رضا، حيث تحدث فيه عن مقاصد القرآن، وفصّلها في ثمانية مقاصد استشهد لكل مقصد منها بالآيات المتعلقة به، ورأينا هذا الاتجاه في رسالتين للشيخ / محمود شلتوت، شيخ الأزهر الأسبق، وهما:ـــ [القرآن والقتال] و [القرآن والمرأة].

ـــ ورأينا هذا الاتجاه أكثر في كتب [العقّاد] مثل: [المرأة في القرآن الكريم] و[والإنسان في القرآن الكريم] وكذلك كتاب [الفلسفة القرآنية].

ـــ وللمغفور له الشيخ / عبد الله دراز، كتابه القيّم [دستور الأخلاق في القرآن] الذى ألّفه بالفرنسية وحصل به على درجة الدكتوراة من السربون، وترجمه أخيراً إلى العربية الدكتور / عبد الصبور شاهين.

ـــ ومن هذا اللون بعض كتب الأستاذ / محمد عزت دروزة مثل [الدستور القرآنى في شئون الحياة] و [سيرة الرسول: صور مقتبسة من القرآن] و [القرآن والضمان الاجتماعى].

ـــ ومن ذلك كتاب الأستاذ / محمد شديد [التربية في القرآن الكريم] ـــ كذلك سلسلة تفسير د/ محمد البهى لمجموعة من سور القرآن حاول أن يفسرها تفسيراً موضوعياً: والدكتور / محمد أحمد القاسم ألف كتاباً مختصراً عن التفسير الموضوعى، وكتب ورسائل أخرى تتناول موضوعاً أو أكثر من موضوعات القرآن الكريم.

(ج) **أهمية التفسير الموضوعى :ـــ**

ـــ إن هذا اللون من الدراسات القرآنية جد نافع وخاصة في عصرنا الذي أفلست فيه الحضارات المادية والمذاهب الإلحادية في حل مشكلات البشر، وسدّ الفراغ الذي تعيشه معظم المجتمعات البشرية لأنها ابتعدت عن هدى القرآن وعدالة الإسلام.

ـــ ونعنى بإفلاس المذاهب الماديّة والإلحاديّة في عصرنا أنها تكشّفت على حقيقتها عند كثير من المغترين بها وإلاّ فهى مفلسة في كل زمان ومكان.

فالدراسات الموضوعيّة للقرآن الكريم تعطى مداً جديداً لانتشار تعاليم هذا القرآن، وتناولها بالدراسات في وحدة موضوعية، ذلك لأن التوفر على موضوع واحد معين وتتبع موارده ومآخذه في القرآن كله ـــ مكيّه ومدنيّه ـــ لتجلية جوانبه كلها، يهيىء له من العناية والبيان والدراسة مالا يتهيأله لو درس في أثناء التفسير العام..

ـــ كما أن هذا النوع من التفسير يفسح المجال للدارسين في شتى التخصصات ليحاول كل منهم تجليّة مايتعلق باختصاصه من القرآن بصورة أعمق مما لو تناوله غيره.

ـــ فرجل الفقه يُعنى بآيات التشريع والأحكام والحدود..الخ، ورجل الاقتصاد يعنى بآيات المال والانتاج والتوزيع والانفاق، ـــ ورجل الفلك أو الفيزياء يهتم بالآيات الكونية، ورجل التربية يعنى بآيات التوجيه والإرشاد والقصص وغيرها.. وهلّم جرا.

ـــ وهكذا يعنى كل متخصص بموضوع تخصصه، ومجال اهتمامه، ويركز عليه،

ويجدد فيه بكل ما أوتي من علم وفق قواعد التفسير المعتبرة، وفي هذا فائدة أكبر ـــ وأمر ثالث : وهو أنّ تتابع هذا اللون من التفسير أو الدراسة خليق بأن يبين للناس لوناً جديداً من الإعجاز، يتمثل في معنى القرآن، وحضريته وسعة ما احتوى عليه من موضوعات قيّمة يعد بالمئات بل الآلاف مع أنه كتاب محدود الصفحات ويوضع في [الجيب]، وأن الذي أتى به رجل أميّ في أمة أمية[1].

(د) الفرق بين التفسير الموضوعى وأنواع التفاسير الأخرى:

١ ـــ الفرق بين التفسير الموضوعى والتفسير الإجمالى:

علمنا أن التفسير الموضوعى عبارة عن: جمع الآيات القرآنية التي تتحدث عن موضوع واحد، والإحاطة التامة بكل جوانب الموضوع كما ورد في القرآن الكريم، بهدف الوصول إلى حقيقة واحدة تفيد الإنسان والمجتمع، مع ترتيب تلك الآيات على حسب النزول ما أمكن ذلك.

أما التفسير الإجمالى : فهو تفسير القرآن الكريم على حسب ترتيب تلاوته، والتعرض لآياته آية آية في شرح مبسط يمكن أن يفهمه المتخصص وغيره، وتكون الغاية إيصال المعنى إلى الأفهام من أقصر طريق، وإبراز ما تهدف إليه الآيات من مقاصد وحكم سامية، وتكون صياغته في ألفاظ في متناول الجمهور ولاتعلو على أفهامهم، ولا مانع لتقريب المعنى إلى أفهام المخاطبين بالاستعانة بحديث نبوي شريف أو أثر عن السلف الصالح أو حادثة تأريخية أو قصة قرآنية أو ذكر سبب النزول.

---

(١) انظر الصبر في القرآن للدكتور/ يوسف القرضاوى ص ٤.

ومن الأمثلة لهذا النوع :

١ ــ تفسير الأستاذ محمد فريد وجدى

٢ ــ تفسير الجلالين: جلال الدين السيوطى وجلال الدين المحلى

٢ ــ الفرق بين التفسير الموضوعى والتفسير التحليلى:

أما التفسير الموضوعى فكما علمنا سابقاً.

وأما التفسير التحليلى : فهو أن يقصد المفسر إلى الآيات القرآنية ــ حسب ترتيبها في التلاوة وكما هي مدونة في المصحف الشريف ــ ثم يفسرها بتحليل وتفصيل، كاشفاً عن كل مايريد منها من معان وأوجه، فيحلل اللفظ من جهة اللغة العربية وأوجه استعمالاته وما يراد منها مما يناسب المقام، ويبين ما في الآية من الفصاحة والبيان وأوجه الإعجاز، ومناسبة الآية للآية والسورة للسورة وبيان سبب النزول إن وجد، ثم بيان المعنى ومقاصد الشريعة من وراء هذا النص القرآنى، وما يستخلص من النص من فوائد وعبر وأحكام، مستعيناً على ذلك بما ورد من نص قرآنى أو سنة نبوية أو قول مأثور عن الصحابة أو التابعين، واضعاً ذلك في أسلوب يناسب المخاطبين من متخصصين أو غيرهم ويدخل تحت التفسير التحليلى ما هو معروف بالتفسير بالمأثور أو بالرأى.

ومن أنواع التفاسير التي عنيت بما أثر في القرآن نفسه أو بما جاء في السنة النبوية أو أقوال الصحابة والتابعين لهم بإحسان:

١ ــ تفسير ابن جرير الطبرى (م سنة ٣١٠) (جامع البيان في تفسير القرآن الكريم).

٢ ــ تفسير ابن كثير (م سنة ٧٧٤هـ) : (تفسير القرآن العظيم).

والتفسير بالرأى منه المحمود ومنه المذموم: فما روعى فيه الضوابط التي وضعها

العلماء، والتي لايحق لأحد أن يمس قدسية تفسير كتاب الله تعالى إلا وهو ملم بها: فهذا هو التفسير المحمود، وما لم يراع فيه تلك الضوابط: فهو المذموم.

والتفاسير تحت هذا النوع متعددة الجوانب والأهداف، إذ أن كل مفسر برز في جانب معين تغلب عليه هذه الناحية في تفسيره، وإن كان الناظر في كتابه لايعدم فوائد جليلة في الفنون المختلفة.

١ ــ فهناك تفسير الفخر الرازى (م سنة ٦٠٦هـ) : (مفاتيح الغيب) الذي حوى من كل الفنون، ولكنه تغلب عليه الناحية العقلية الفلسفية، والكلام على العقيدة الإسلامية كما يراها أهل السنة والجماعة.

٢ ــ وهناك تفسير القرطبى (م سنة ٦٧١هـ) : (الجامع لأحكام القرآن) حوى فنوناً كثيرة ولكنه تغلب عليه ناحية مذهبية فقهية هي الانتصار للمذهب المالكى.

٣ ــ وتفسير الجصاص (م سنة ٣٧٠هـ) انتصر فيه للمذهب الحنفى.

٤ ــ وبعضها قد خلص لسرد المكتشفات العلمية الحديثة، وأنبرى صاحبها لتحميل النص القرآنى مالا يحتمله بحال من الأحوال.

كتفسير الشيخ طنطاوى جوهرى (الجواهر في تفسير القرآن الكريم) وتفسير الأستاذ حنفى أحمد لبعض الآيات الكونية وتنزيلها على آيات القرآن الكريم، في كتابه [التفسير العلمى للآيات الكونية في القرآن الكريم].

٥ ــ وهناك التفسير المذهبى الذي جهد صاحبه فيه لبث عقيدته في أثناء

التفسير، بل نزل النص القرآنى على مستوى عقيدته وما تشربته نفسه في هذا المجال، وفسره على هذا ـــ كتفسير السلمى (م سنة ٤١٢هـ) : (حقائق التفسير).

وتفسير الزمخشرى (م سنة ٥٣٨هـ) : (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل).

٦ ـــ ومن أنواع التفاسير أنواع حاولت أن تبرز من القرآن الناحية الأدبية الاجتماعية، حيث نظرت إلى المشاكل الاجتماعية التى أصابت الأمة الإسلامية ووضعت لها الحلول السليمة كما جاء في كتاب رب العالمين.

ومن هذه التفاسير : تفسير الأستاذ سيد قطب (في ظلال القرآن) وتفسير الشيخ رشيد رضا (تفسير المنار)، وتفسير الشيخ .. المراغى (تفسير المراغى).

٣ ـــ الفرق بين التفسير الموضوعى والتفسير المقارن :
أما التفسير الموضوعى فكما سبق شرحه.

وأما التفسير المقارن : فهو أن يعمد الباحث إلى بعض الآيات القرآنية أو إلى سورة معينة، ويستكشف آراء المفسرين فيها، ويوازن بين ما جاء في كل كتاب ومسلك كل في تفسيره الآيات أو السورة موضوع البحث. ثم يقارن بين ما ورد فيها، وأن كلاً قد تأثر بالفن الذي غلب عليه. فهذا قد أكثر من تحليل الألفاظ، وهذا في الإعراب، وهذا في البلاغة وهذا في الفقه، وهذا في سرد الحوادث والقصص، وهذا في المعقول، وهذا في المنقول وهذا في الكونيات، وهذا في مذهبه الصوفى ... إلخ.

وبالجملة. فهو عبارة عن مقارنة نصوص كتب التفسير في موضوع واحد، بعضها ببعض، بهدف معرفة منهج كل مفسر في كتابه والوجهة التي يتجهها في فهمه للقرآن الكريم.

طريقة البحث في التفسير الموضوعى:

للباحث في هذا النوع من التفسير طريقتان :

أولاهما : أن يجعل السورة القرآنية وحدة متكاملة هدفها واحد، وإن تعددت موضوعاتها، فهى تدور حول مركز ركيز يسمى بالغرض سواء أكان عاماً أم خاصاً:

فنقول مثلا : سورة البقرة : الهدف منها تحديد الطريق القويم لمن أراد أن يسلك نفسه مسلك المتقين، ثم تفسر الموضوعات التي وردت في السورة على هذا الهدف.

وتقول مثلا : سورة آل عمران : هدفها تحديد معالم الألوهية الحقة، وإثبات أن الله واحد لاشريك له. وهكذا في كل سور القرآن.

ومما يعيننا على هذا النوع من نوعى التفسير الموضوعى :

١ ــ كتاب (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور) للبقاعى (م سنة ٨٨٥هـ) وهو كتاب فريد، حيث أدمج كل موضوعات السورة تحت غرض واحد تدور عليه آيات السورة الواحدة.

٢ ــ كتاب (النبأ العظيم) للدكتور محمد عبد الله دراز، وهو كتاب لايستغنى

إجمالاً عنه باحث، وقد تكلم فيه عن سورة البقرة ونظمها في عقد فريد يظهر النظم الإلهى، ذى الترتيب المحدد بمقدار معين.

ثانيتهما : أن نجمع الآيات ذات الهدف المشترك، ونرتبها على حسب النزول ــ ما أمكن ذلك ــ مع الوقوف على أسباب النزول ــ إن وجد ــ ونتناولها بالشرح والبيان والتعليق والاستنباط، ونزنها بميزان العلم الصحيح، مع الإحاطة التامة بكل جوانب الموضوع كما ورد في القرآن الكريم، بقصد الوصول إلى الغاية المرجوة من وراء هذا البحث القرآنى، وإفادة المجتمع الإسلامى منه.

والطريقة الثانية هي المعمول بها في مجال البحوث العلمية الموضوعية، وإذا ما أطلقت كلمة: «تفسير موضوعى» فلا يفهم منه إلا بحث موضوع من موضوعات القرآن الكريم على مستوى القرآن جميعه، وأول ما يجب على الباحث.

١ ــ أن يجمع الآيات القرآنية التي تخدم موضوعه، مستعيناً على ذلك بحفظه وبالمصحف الشريف، وببعض الكتب التي عنيت بجمع الآيات تحت عنوان واحد، أو التي تجمع الآيات المتماثلة في حروف المعجم ــ مثل كتاب (المفردات) للراغب الأصفهانى (م سنة ٥٠٢هـ). و(معجم ألفاظ القرآن الكريم) لمجمع اللغة العربية. و(تفصيل آيات القرآن الكريم) لجول لابوم ويليه (المستدرك) لإدوارمونتيه: تعريب الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى. و(المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) للأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى.

٢ ــ ثم يرتب هذه الآيات حسب النزول ــ ما أمكن ــ ما نزل في مكة أولاً ثم ما نزل في المدينة ثانياً ــ وما نزل أول العهدين قبل ما أنزل آخرهما.

٣ ــ إزاحة ما قد يكون بين الآيات من موهم الاختلاف والتناقض، موقناً أن

القرآن لايوجد فيه اختلاف تناقض، وما وراء ذلك يمكن التوفيق بين الآيات بعضها وبعض، لاختلاف الجهة من الزمان أو المكان أو الحقيقة والمجاز أو اختلاف جهتى الفعل أو وقوع المخبر به على أحوال مختلفة ونحو ذلك.

٤ ـــ تفسير الآيات أثناء عرضها تفسيراً يفهم منه الحكمة في إيراد الآيات والغرض من هذا التشريع الإلهى، والغاية من وراء تنفيذ الأمر واجتناب النهى، مع تدعيم التفسير بالسنة النبوية وأقوال السلف الصالح، وإيراد أسباب النزول إن وجدت، وشرح قصة من قصص الأنبياء والأمم السالفة إن وردت في الآيات محل الشرح، مع مراعاة شروط المفسر أثناء عرض الموضوع.

٥ ـــ إخراج الموضوع في صورة متكاملة تامة للبناء والإحكام، بمراعاة شروط البحث العلمى، واضعاً نصب عينيه أنه يبرز للناس طريقاً من طرق إرشاد القرآن التى هي أقوم، طارحاً وراءه كلّ عقيدة فاسدة أو مؤثرات خارجية قد تغطى على الحقيقة المنشودة من وراء بحثه للآيات القرآنية، ويكون هدفه الأسمى إبراز محاسن القرآن لخدمة الأفراد والمجتمع الإسلامى(١).

---

(١) انظر التفسير الموضوعى للدكتور/ محمد القاسم من ص ١٢ ـــ ١٩.

الفصل الأول

لمحة في أصول الإيمان والشرائع والأخلاق في القرآن الكريم

ويشتمل هذا الفصل على المباحث التالية :

ـ **المبحث الأول** : أصول الإيمان.
ـ **المبحث الثاني** : أصول الشرائع.
ـ **المبحث الثالث** : أصول الأخلاق والفضائل.

المبحث الأول:

أصـول الإيمان

ـ اتفقت جميع الرسالات السماوية على أصول الإيمان على امتداد دعوات الرسل «عليهم الصلاة والسلام» ولم تختلف هذه الرسالات في تقرير أصول الإيمان قبل أن ينال منها التحريف والتبديل، لأنها تتحدث كلها عن مقررات ثابتة لايقوم الإيمان إلا بها، فهي حقائق ثابتة لا تتطور ولا تتغير ولا يدخلها النسخ كما يدخل فروع الشرائع، وقد جاءت النصوص القرآنية تؤكد هذه الحقيقة، فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾(1) وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴾(2).

وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾(3).

ـ وقد وجه الله النداء العام لبنى آدم محذراً إياهم الشيطان ومهالك الغواية ومذكراً إيَّاهم بأصل النشأة والمعاد .. فقال تعالى: يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ ـ إلى قوله: ﴿ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾(4).

---

(1) سورة النحل الآية (٣٦).
(2) سورة الزمر الآيات (٦٥، ٦٦).
(3) سورة الأنبياء الآية (٢٥).
(4) سورة الأعراف الآية (٢٧ ـ ٢٩).

ــ وعقيدة الإيمان تشمل عناصر أساسيّة تطهّر القلب من بذور الشرك والوثنية وتربطه بروحانية صافية وهي:

١ ــ ما يجب الإيمان به في جانب الله تعالى: إقراراً بوجوده وخلقه وتدبيره وقضائه وقدره، وإفراداً له بالوحدانية والعبادة ووصفاً له بصفات الكمال والجلال.

٢ ــ ما يجب الإيمان به في جانب الوحيّ والرسالات:ــ من الملائكة والكتب والنبيّن.

٣ ــ ما يجب الإيمان به من حالات اليوم الآخر من البعث والجزاء.

ــ وقد تحدثت آية البر، في سورة البقرة عن هذه العقيدة الواضحة الشاملة بقوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾[1].

ــ وهذه الآية من أجمع الآيات في تحديد معنى البر، فهي ترشد إلى أن البر لايرتبط بشيىء من الصور والمظاهر والأشكال، وإنما يرتبط بالحقائق ولب الأمور وروح التكاليف، وترشد إلى أن البر ثلاثة أنواع جامعة لكل خير..، بر في العقيدة..، وبر في العمل..، وبر في الخلق:ــ

= **فالبر في العقيدة** بينه في قوله تعالى:ــ

﴿ولكنّ البرَّ من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيّن﴾..، الإيمان

---

(١) سورة البقرة الآية (١٧٧).

بالله: في ربوبيته ووحدانيته، وكمال صفاته. ـــ والإيمان باليوم الآخر، يوم الحشر والنشر والجزاء والحساب.

ـــ والإيمان بالله واليومِ الآخر: هما الإيمان بالمبدأ والمعاد، ولايمكن للعقل البشرى أن يعرف ذلك مستقلاً دون الوحى والرسالة.

إذن. لابد من واسطة بين المصدر الأول وهو الله تعالى وبين بقيّة خلقه، وهذه الواسطة هي طريق المعرفة لمستلزمات الإيمان بالله واليوم الآخر، تتكون الواسطة من ثلاثة عناصر:ـــ

* عنصر في الطرف الأعلى .. وله بحسب تكوينه وخلقه استعداد يمكنه من التلقى عن الله مباشرة، وهم الملائكة، والإيمان بهم أصل الإيمان بالوحى، فيلزم من إنكارهم إنكار الوحى، وهو يستلزم إنكار النبوة وإنكار الدار الآخرة.

* وعنصر في الطرف القريب من الناس .. هو منهم بمقتضى بشريته، وله صلة بالملأ الأعلى بمقتضى روحانيته وهم الأنبياء، يتصلون بالملائكة الذين هم سفراء الله أو سفرته كما عبّر القرآن، فيتلقون عنهم ما أمر الله به من أحكام وتشريعات.

* والعنصر الثالث .. هو الرسالة نفسها والوحى، وقد عُبِّر عنهما في الآية [بالكتاب]، والتعبير بالكتاب دون الكتب إشارة إلى وحدة الدين عند الله، وأن الإيمان بكتاب مّا من الكتب السماوية إيمان بالكل.

= **أما البر في العمل** : فله شُعبٌ كثيرة ترجع كلها مهما تنوعت إلى بذل النفس والمال ابتغاء مرضاة الله وهناءة خلق الله، والعمل هو مدد العقيدة،وفي الوقت نفسه هو ثمرتها، يحفظها، وينمّيها، ويدل عليها.

= **أما البر في الخلق** : فقد ذكرته الآية في مبدأين:ـــ
ـــ مبدأ القيام بالواجب، وعبّرت عنه الآية بقوله تعالى:ـــ
﴿والموفون بعهدهم إذا عاهدوا﴾

ـــ ومبدأ مقاومة الطوارىء والتغلب على عقبات الحياة وقد عبّرت عنه الآية بقولها: ﴿والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس﴾.

والعهد لفظ شامل يجمع ألواناً من الارتباطات والالتزامات لاغنى للناس عنها، ولا استقامة للحياة بدونها، وهى على كثرتها ترجع إلى:ـــ عهد بين العبد وربه، كما في قوله تعالى: أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ [1].. أو عهد بين الإنسان والإنسان أو عهد بين الدولة والدولة.

ـــ وهكذا يضع القرآن الكريم أصول العهود والمواثيق العادلة، ويجعل الوفاء بها من البر الذي يسمو بالإنسان في دنياه ويسعده في أخراه.

ـــ ومن هنا نعلم أن عقيدة الإيمان قد بعث الله بها رسله كافة، وأن هذه العقيدة هي التي تحل لغز الوجود وتفسر للإنسان سرَّ الحياة والموت، وتجيب على الأسئلة المتوالية: من أين؟ وإلى أين؟ ولِمَ؟ فهذه العقيدة نزلت بها كتبُ السماء كافة، علَّمها آدم بنيه، وأعلنها نوح في قومه، ودعا إليها هود وصالح عاداً وثموداً، ونادى بها إبراهيم وإسماعيل وإسحاق وغيرهم من رسل الله، وأكدها موسى في توارته، وداود في زبوره وعيسى في إنجيله.

---

(١) سورة يس الآية (٦٠).

وجاءت عقيدة الإسلام خاتمة للرسالات إلى قيام الساعة فنقّت التوحيد وكمال الألوهية مما شابها على مرّ العصور، ونقت النبوة والرسالات مما عراها من سوء التصور، ونقّت عقيدة الجزاء الأخروى مما دخل عليها من أوهام الجاهلين وتحريف المغالين وانتحال المبطلين.

المبحث الثاني:

أصول الشرائع

ـــ وحدة الدين عند الله حقيقة دلت عليها النصوص كما قال تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾[1].

وقد اتفقت الشرائع في أصول التشريع غالباً، لأن مصدر التشريع واحد، فقد شرع الله لعباده ما يصلح شأنهم على امتداد رحلة البشرية، وأرسل الله في كل أمة رسولاً بشيراً ونذيراً، ليجدد ما اندَرسَ من معالم أصول الدين، ويضيف بأمر الله ما يناسب كل قوم من شرائع في فروع الدين ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[2]. فالاختلاف إذن في فروع الشرائع، وفي ميادين التطبيق العمليّة في كثير من الأصول، ولكن يبقى الجوهر واحداً في رسالات الأنبياء فكل شريعة تصدق ماقبلها من الشرائع وتمهد لما بعدها، وجاء القرآن الكريم مصدّقاً لما بين يديه من الكتب السابقة، ومهيمناً عليها بما يشتمل عليه من استيعاب لجوانب الكون والحياة كلها، وما يصلح البشرية إلى قيام الساعة.. ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾[3].

ـــ لنأخذ أمثلة من اتفاق أصول الشرائع:ـــ

---

(١) سورة الشورى الآية (١٣).

(٢) سورة المائدة الآية (٤٨).

(٣) سورة المائدة الآية (٤٨).

١ ــ الصـلاة :ــ

قال تعالى على لسان أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام:ــ
﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِيۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلۡ دُعَآءِ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾[٣].

وقال تعالى عن هذه الأمة المحمدية ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾[٥].

ــ فالاتفاق حاصل في أصل مشروعية الصلاة، ولكن الكيفيات والمواقيت ربما كانت مختلفة في الصور وميادين التطبيق.

---

(١) سورة إبراهيم الآية (٤٠).
(٢) سورة المائدة الآية (١٢).
(٣) سورة الأنبياء الآية (٧٣).
(٤) سورة البقرة الآية (٢٣٨).
(٥) سورة النساء الآية (١٠٣).

٢ ــ الزكاة :ــ

قال تعالى: ﴿ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝٤ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾(١).

قال تعالى عن إسماعيل عليه السلام ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾(٢).

وقال تعالى عن عيسى بن مريم عليه السلام: ﴿ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾(٣).

وقال تعالى في حق هذه الأمة المحمدية: ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾(٤) إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي جاءت مؤكدة لغرض الزكاة.

ــ ويلاحظ مدى ارتباط الزكاة بالصلاة في عشرات المواضع من كتاب الله العزيز.

فالصلاة عبادة روحيّة بدنية ، والزكاة عبادة مالية ، وهما لازمتان لصلة العبد بربه وتزكية النفس والمال وتكافل المجتمع.

---

(١) سورة البيّنة الآية (٤،٥).
(٢) سورة مريم الآية (٥٥).
(٣) سورة مريم الآية (٣١).
(٤) سورة التوبة الآية (١٠٣).

٣ ـ الصيام :ـ

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾(١).

ـ فالصيام فريضة قديمة على المؤمنين في كل دين، كما تنص عليه الآية، فأما تعيينه برمضان أو أيام من كل شهر أو غير ذلك، فلم يتعرض القرآن بالتفصيل ولم يصح من السنّة في ذلك ما يتعين الأخذ به فيما أعلم، فالعلم عند الله تعالى.

٤ ـ القصاص :ـ

قال تعالى: ﴿ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞ ﴾(٢).

ـ وجاء الإسلام، فقال الله عزّ وجل ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡقِصَاصُ فِي ٱلۡقَتۡلَىۖ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾(٣).

ـ فالقصاص عقوبة مقررة في جميع الشرائع الإلهية المتقدمة لضرورة حماية الأنفس وصيانة المجتمعات من الفوضى وانتهاك الحرمات.

---

(١) سورة البقرة الآية (١٨٣).
(٢) سورة المائدة الآية (٤٥).
(٣) سورة البقرة الآية (١٧٨ ـ ١٧٩).

٥ ـــ الجهـــاد :ـــ

قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ (١) كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾(٢).

ـــ والمقاتلة دفاعاً عن النفس أو الدين أمر مشروع في جميع الشرائع حسب مقتضيات الأحوال والظروف.

ـــ وجاء الإسلام فشرع الجهاد لإعلاء كلمة الله في الأرض، وحكمها بشريعة الله، فليس عدواناً ولا إبادة للحرث والنسل كما يصوّره أعداء الإسلام، ولكنه دفاع عن النفس في المقام الأول.

قال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ ﴾(٣).

ـــ وهو نصرة للمظلومين والمضطهدين، وتمكين لحرية الإرادة الإنسانية في اختيار الدين الذي ينسجم مع الفطرة التى فطر الله الناس عليها المتمثلة في رسالة الإسلام العالمية الخالدة. فلا إكراه في الدين بعد تحطيم مراكز القوى المعادية التي تصد عن سبيل الله وتحجب نور الله، فأما الدول المسالمة التى لاتمنع دعوة الإسلام

---

(١) ربيّون : الألوف : قاله بن مسعود وبن عباس في رواية، وقيل الجماعات الكثيرة ـــ قاله: مجاهد وعكرمة، وقيل الفقهاء والعلماء: قاله سعيد بن حبير وجماعه .. انظر زاد المسير لابن الجوزى جـ١ ص ٤٧٢.

(٢) سورة آل عمران الآية (١٤٦).

(٣) سورة الحج الآية (٣٩، ٤٠).

من وصول مجتمعاتها، ولا تبيت عدوانا على المسلمين، فلم يشرع قتالها، وإنما وجبت دعوتها إلى الإسلام بالحكمة والموعظة الحسنة.

ــ وأعطى الإسلام أهل الكتاب فرصة للتأمل في جوانب رسالته وأنها مصدّقة للرسالات السابقه وأن الإسلام هو الدين الخاتم لرسالات الأنبياء، لايقبل عند الله بعد مجيىء الإسلام دين غيره، ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[1].

فإن لم يدخل أهل الكتاب ومن في حكمهم كالمجوس في الإسلام لم يكرهوا عليه وفرضت على القادر منهم الجزية ــ مقابل حمايته وبقائه على معتقده، وعدم العدوان عليه، فلو عجز المسلمون عن حمايتهم من أي عدوان داخلى أو خارجى، رُفِعت عنهم الجزية، والشواهد على ذلك كثيرة في سير الخلفاء الراشدين وقادتهم وكثير ممن أتى بعدهم من المسلمين، فلم ينعم الذّميّون والمعاهدون بمثل ما نعموا به في ظل الإسلام في أي نظام عبر التاريخ، وآيات الجهاد وأحكامه كثيرة في كتاب الله تعالى.

٦ ــ الــزواج :ــ

وهو سنة لبقاء النسل، وقضاء الوطر، في لقاء طاهر شريف بين الذكر والأنثى من بنى البشر في جميع الشرائع، بدأت العلاقة الزوجية بين أبي البشر آدم وبين حواء عليهما السلام، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾[2].

---

(١) سورة آل عمران الآية (٨٥).

(٢) سورة النساء الاية (١).

وقال تعالى: ﴿ وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا ﴾(١).

ــ وهذه العلاقة الزوجيّة من آيات الله التي أودعها في رابطة الزواج على امتداد الوجود البشرى، قال تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٢).

والزواج في سنن الأنبياء والرسل جميعاً، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ﴾(٣).

وقال في حق نبينا محمد ﷺ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ ﴾(٤). إلى غير ذلك من أصول الشرائع في العبادات والمعاملات التى جاءت بها رسالات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) سورة البقرة الآية (٣٥).
(٢) سورة الروم الآية (٢١).
(٣) سورة الرعد الآية (٣٨).
(٤) سورة الأحزاب الآية (٥٠).

المبحث الثالث:

أصول الأخلاق والفضائل

اتصف الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بأفضل الصفات وأنبل الأخلاق والفضائل وفي مقدمتها: الصدق والأمانة والفطانة والبيان.

ـــ وقد وصف الله أنبياءَهُ بصفات كريمة، فقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ ﴾(١)، وقال تعالى عن نبينا محمد (ﷺ) ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(٢)، وما من نبى من الأنبياء إلا وقد اتصف بأكرم الصفات وأنبل الفضائل.

ـــ وقد جاءت الرسالات السماوية بأصول الأخلاق والفضائل وبقيت في الشرائع على مرّ العصور موازين ثابتة لبنى البشر لايدخلها نسخ ولايطرأ عليها تبديل، لا في الشريعة الواحدة، ولا بين شريعة وأخرى، وحظ كل أمة منها بمقدار استمساكها بأسس هذه الأخلاق والفضائل التي جاءت بها الأنبياء.

ـــ وعندما نأخذ أمثلة من أمهات الفضائل والأخلاق نجد هذه الحقيقة واضحة في كتاب الله تعالى، فاستمع إلى قول الله عزّ وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ

---

(١) سورة هود الآية (٧٥).

(٢) سورة ن الآية (٤).

لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾(١).

ــ فقد اشتملت هاتان الآيتان على أبرز أصول الأخلاق والفضائل وإنك لتعجب كيف جمعتا هذه الأصول الأخلاقية الجامعة في عبارات موجزة: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾(٢) إنه كله مبادئ وأخلاق وقيم..

فالعـــدل :

أساس التعامل الأمثل بين العبد وخالقه، وبين البشر وأنفسهم، حكاماً ومحكومين، أفراداً وجماعات، والعدل مطلب أخلاق كريم في جميع الشرائع لأنه قاعدة ثابتة للتعامل، لاتميل مع الهوى، ولا تتأثر بالود والبغض.

ــ وقد أكد القرآن الكريم هذا المبدأ بقوله تعالى:ــ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾(٣).

والإحسان :

أعلى درجات المراقبة وهو أصل من أصول الشرائع فسره رسول الله ﷺ، كما في حديث جبريل المشهور «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(٤).

---

(١) سورة النحل الآية (٩٠ ــ ٩١).

(٢) سورة الإسراء الآية (٩).

(٣) سورة المائدة الآية (٨).

(٤) صحيح مسلم. كتاب الإيمان. جـ١، ص ٣٧.

فالإحسان يشمل كل عمل، وكل تعامل، فيشمل محيط الحياة كلها، في علاقة العبد بربه، وعلاقاته بجميع المخلوقين، ولهذا قال: ﷺ «إن الله كتب الإحسان على كل شيىء... إلخ»[1]، وهكذا ﴿إيتاء ذى القربى﴾ لتأكيد مبدأ التكافل الاجتماعى، والتدرج من المحيط المحلى إلى المحيط العام، وفق نظرة الإسلام التنظيمية لهذا التكافل[2].

﴿وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى﴾.ـــ

فالفحشاء :
كل أمر فاحش يتجاوز حدود الله، ومنه العدوان على الأعراض وانتهاك المحرمات.

والمنكـــر :
كل ما أنكره الشرع وتنافي مع الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها.

والوفاء بالعهود والمواثيق :
هو الضمان لبقاء عنصر الثقة في التعامل بين الناس على مستوى الأفراد والجماعات والدول.

ـــ وهكذا نجد في كل مبدأ من هذه المبادىء الأخلاقية قاعدة ثابتة للتعامل العادل على امتداد رحلة البشر إلى قيام الساعة.

---

(١) صحيح مسلم. جـ٣، ص ١٥٤٨.
(٢) انظر (في ظلال القرآن) جـ٤، ص ٢١٩٠.

أمامنا أسس للأخلاق والفضائل، لا يعتريها النسخ ولا التبدل في جميع الرسالات.

فبـر الوالدين :

مقرر في الشرائع جميعاً والإحسان إليهما في غير معصية الله حتى ولو كانا كافرين، من مكارم الأخلاق ومحاسن الشيّم. قال تعالى: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ۝ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ ﴾[1].

وصلة الأرحام :

علاقة عظّم الإسلام من شأنها ـــ فقال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ ﴾[2] وقرن قطيعة الرحم بالفساد في الأرض، فقال تعالى: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴾[3] ومدح الله الواصلين لرحمهم بقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴾[4] فعموم النصوص القرآنية تدل على مشروعية الترابط الاسرى بالمعروف عبر مسيرة الإنسانية المؤمنة، وقد أكد القرآن الكريم هذه الرابطه بقوله: ﴿ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۚ ﴾[5].

---

(١) سورة لقمان الآية (١٤، ١٥).

(٢) سورة النساء الآية (١).

(٣) سورة محمد الآية (٢٢).

(٤) سورة الرعد الآية (٢١).

(٥) سورة الأنفال الآية (٧٥).

والأمـــانة :

مسئولية أخلاقية عظمى، لم تستطع السماوات والأرض والجبال حمل تبعاتها وتكاليفها عندما عرض الله ذلك عليها، بل أشفقن من حملها، وقد حمل الإنسان أعباء هذه الأمانة ووعد بالوفاء بها، فمن قام بها وفق منهج الله فاز وظفر بخيري الدنيا والآخرة، ومن خان أمانته وضيّع ما استأمنه الله عليه خسر دنياه وآخرته، وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه المسئولية الأخلاقية العظيمة فقال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾(1).

ـــ وقد مدح الله المؤمنين وجعل من صفاتهم رعاية الأمانات والعهود، فقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾(2).

ـــ وقد اتصف أنبياء الله ورسله بالأمانة، فهذا نوح أبو البشر الثاني يقول فيما قصَّه القرآن الكريم ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(3)، وقال (هود) عليه السلام لقومه: ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(4)، وقال صالح عليه السلام لقومه: ﴿ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾(5). وكذلك قال لوط وشعيب وموسى عليهم السلام لأقوامهم.

ـــ وقد جمع الله محاسن الأمانات لسيّد ولد آدم نبينا وحبيبنا محمد ﷺ

---

(١) سورة الأحزاب الآية (٧٢).

(٢) سورة المؤمنون الآية (١ ـــ ٨).

(٣) سورة الشعراء الآية (١٠٦ ـــ ١٠٧).

(٤) سورة الشعراء الآية (١٢٤ ـــ ١٢٥).

(٥) سورة الشعراء الآية (١٤٢، ١٤٣).

فأكمل الله به الدين وأتم به النعمة على المؤمنين من البشرية إلى يوم القيامة، وجعل كتابه مهيمناً على الكتب ومصدقاً لها، ورسالته خاتمة للرسالات وجامعة لمحاسنها، وجعل أمته خير الأمم، فقد استأمنه الله على خير كتاب أنزل على خير نبي، وأعطاه الشفاعة العظمى، وهي المقام المحمود الذي وعده الله به.

ــ فالأمانة من أبرز أمهات الأخلاق والفضائل، وللأنبياء عليهم الصلاة والسلام الحظ الأوفر من القيام بهذه الأمانة، فهم أمناء الله على وحيه ورسالاته ثم يأتي بعدهم الأمثل فالأمثل من سائر الأمم.

والصبــر :

من أخلاق الأنبياء وأولي العزم من الرجال وقد أمر النبي ﷺ أن يصبر على دعوته ويتحمل المشاق كما تحملها غيره من أولى العزم من الرسل فقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾[1].

ــ وبيّن الله تعالى أن الصبر من شيم أولى العزمات، فقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[2].

ــ ووعد الله الصابرين بمضاعفة أجورهم بغير حساب فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[3].

ــ والصبر أنواعه كثيرة وميادينه واسعة، وقد تحدّث عنها القرآن الكريم في أكثر

---

(١) سورة الأحقاف الآية (٣٥).
(٢) سورة الشورى الآية (٤٣).
(٣) سورة الزمر الآية (١٠).

من تسعين موضعاً، كما روى ذلك عن الإمام أحمد (رحمه الله)[1]، ولكنها في جملتها ترجع إلى الصبر على طاعة الله، والصبر عن محارم الله، والصبر على أقدار الله المؤلمة.

والصـدق :

من أخلاق الأنبياء، وشمائل الأتقياء، رفع الله به مقام الصادقين والصديقين، ووصف القرآن أنبياء الله بهذه الصفات الكريمة، فقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴾[2]، وقال تعالى عن إسماعيل ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيًّا ﴾[3].

ـ ووصف القرآن إدريس ومريم عليهما السلام وغيرهما بهذه الصفات الأخلاقية النبيلة، وتحدث القرآن عن نبينا محمد ﷺ بأنه جاء بالصدق، وهو القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾[4].

ـ وقد جعل الله الصدق صفة من صفات أهل البر والتقوى فبعد أن ذكر آية البر في سورة البقرة ختمها بقوله تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ﴾[5].

---

(١) انظر مدارج السالكين لابن القيم جـ٢، ص ١٥٢.
(٢) سورة مريم الآية (٤١).
(٣) سورة مريم الآية (٥٤).
(٤) سورة الزمر الآية (٣٣).
(٥) سورة البقرة الآية (١٧٧).

ـــ وأخبر سبحانه وتعالى عن تكريم الصادقين يوم الوقوف بين يديه، فقال تعالى: ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾[1].

ـــ إلى غير ذلك من أمهات الأخلاق والفضائل التي جاء بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وجاءت متكاملة في رسالة نبينا محمد ﷺ، بما تمم من مكارم الأخلاق ومحاسن الفعال، كالتواضع، والحلم، والعفو والتسامح، والجود والكرم، والشجاعة، والإيثار، والحياء، وحسن الخلق في أوسع ميادينه.

= هذه لمحات موجزة عن أصول الإيمان والشرائع والأخلاق في القرآن الكريم، وكل موضوع من الموضوعات السابقة يمكن أن يدرس دراسة موضوعية مطوّلة وفق منهج (التفسير الموضوعي للقرآن الكريم).

---

(١) سورة الأحزاب الآية (٢٤).

الفصل الثاني

التنزيل المكي والمدني
وأثرهما في سير الدعوة وبناء المجتمع

يشتمل هذا الفصل على المباحث التالية :

* **المبحث الأول** : مقاصد القرآن الرئيسية.
* **المبحث الثاني** : التنزيل المكيّ وأثره في سير الدعوة
* **المبحث الثالث** : التنزيل المدنّي وأثره في سير الدعوة وبناء المجتمع.

المبحث الأول :

مقاصد القرآن الرئيسيّة

ـــ للقرآن الكريم ثلاثة مقاصد[1] رئيسية وهي كما يلي :

١ ـــ المقصد الأول :

أن يكون هداية للثقلين الجن والإنس، في تنظيم علاقتهم بخالقهم إيماناً وتوحيداً وتسليماً بداية ومعاداً من جانب، وتنظيم علاقتهم فيما بينهم من تعامل وتصور للكون والحياة من جانب آخر.

ـــ **وتمتاز هداية القرآن الكريم** : بالعمومية، والتمام، والوضوح.
فهي عامة : للثقلين الإنس والجن، في كل عصر ومصر وفي كل زمان ومكان.. قال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3]. وأما عموم رسالة النبي ﷺ إلى الجن فهى معلومة معروفة بل نصَّ شيخ الإسلام (ابن تيمية) ـــ رحمه الله ـــ، على أن هذا الأصل متفق عليه بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين وسائر طوائف المسلمين من أهل السنة والجماعة

---

(١) انظر مناهل العرفان للزرقاني جـ٢، ص ٢٠.
(٢) سورة الأنعام الآية (١٩).
(٣) سورة سبأ الآية (٢٨).

وغيرهم، ولم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن، ولا في أن الله أرسل محمداً ﷺ إليهم[1].

ـ ومن النصوص القرآنية قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[2]، والجن داخلون في التكليف العام بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ﴾[4].

ـ **وهداية القرآن تامة وشاملة**: لأنها احتوت أرقى وأوفى ما عرفت البشرية، وعرف التاريخ من هدايات الله وشملت ما يحتاج إليه الخلق في العقائد والأخلاق والعبادات والمعاملات على اختلاف أنواعها، وجمعت بين مصالح البشرية في العاجلة والآجلة، ونظمت علاقة الإنسان بربه وبالكون الذي يعيش فيه ووفقت بطريقة حكيمة بين مطالب الروح والجسد، وهذا واضح من نصوص القرآن والسنّة.

---

(١) انظر إيضاح الدلالة في عموم الرسالة ـ لابن تيمية ـ ص ٤ ومجموعة فتاوى بن تيمية ـ جـ١٩، ص ٩.

(٢) سورة الأحقاف الآية (٢٩ ـ ٣٢).

(٣) سورة الذاريات الآية (٥٦).

(٤) سورة الأنعام الآية (١٣٠).

ــ **وهداية القرآن واضحة جليّة** : حيث عرضت عرضاً رائعاً مؤثراً، توافرت فيه وسائل الإيضاح وعوامل الإقناع، في أسلوب فذّ معجز في بلاغته وبيانه، واستدلال واضح عميق يجمع بين صدق المقدّمات وصحة النتائج، وبأمثال تخرج أدق المعقولات في صورة أجلى الملموسات، حكم بالغات، وقصص وأخبار، تصوير لمستقبل الأبرار والفجّار كأنما تراه الأبصار في رابعة النهار، والأمثلة على ذلك كثيرة في كتاب الله تعالى.

٢ المقصــد الثاني :

ــ أن يقوم هذا القرآن آية لتأييد النبي ﷺ حيث جاء آية شاهدة برسالة محمد ﷺ، وبقي على جبهة الدهر معجزة خالدة تنطق بالهدى، ودين الحق ظاهراً على الدين كله، فهو المعجزة الكبرى لخاتم النبيّن والمرسلين إلى قيام الساعة .. ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾(١).

ــ ومن آيات صدق هذا القرآن وإعجازه، عدم التناقض والاختلاف على مرّ العصور والأجيال، ومع تنوع العلوم والمعارف وظهور الكشوف العلمية في الفضاء وفي الأنفس والآفاق، فإنك لاتجد آية تصادم حقيقة علمية ظهرت في هذا الوجود إذا لم تقل: إنه ما من حقيقة علمية أو قضية كلية أو جزئية في هذا الكون الواسع إلا وقد دخلت تحت كلية من كليات هذا القرآن العظيم توجيهاً وهداية وحكماً.. ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾(٢)
﴿فتبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً﴾.

---

(١) سورة الإسراء الآية (٨٨).

(٢) سورة النساء الآية (٨٢).

٣ ــ المقصد الثالث :ــ

ــ أن يتعبد الله خلقه بتلاوة هذا الطراز الأعلى من كلامه المقدّس، ويقربهم إليه ويأجرهم على مجرد ترديد لفظه ولو من غير فهمه، فإذا ضموا إلى التلاوة فهماً زادوا أجراً على أجر، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾[١].

ــ وقال رسول الله ﷺ: (من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول [ألم] حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف) رواه الترمذى وقال : حسن صحيح[٢].

---

(١) سورة فاطر الآيات (٢٩، ٣٠).

(٢) سنن الترمذى، كتاب ثواب القرآن، جـ٨، ص ١١٥ ــ ط حمص الفجر الحديثة.

المبحث الثاني :

التنزيل المكي وأثره في سير الدعوة

لا نقصد بهذه الدراسة بحث المكّى والمدنى وتحديد ضوابط كل منهما ومناقشة الآراء في ذلك، فإن هذا يخرجنا عن الموضوع الذي نحن بصدده، وإنما نريد التأمل في المعالم البارزة لهذا التنزيل المحكم، وكيف اقتضت حكمة الله تعالى أن يسلك بقرآنه سبيل التدرج والارتقاء في تربية الأفراد والجماعات.

وهذا المعنى في التدرج والترتيب في نزول الآيات قد فهمه الصحابة وأرشدوا إليه، ففي صحيح البخاري من حديث عائشة رضى الله عنها أنها قالت: «إنَّما نزل أول ما نزل منه سورة من المفصَّل فيها ذكر الجنّة والنار، ولو نزل أول شيىء: لاتشربوا الخمر. لقالوا: لاندع الخمر أبداً، ولو نزل لا تزنوا. لقالوا: لاندع الزنا أبداً»(١).

ـــ وقد يدلنا على مدى فهم أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعلمها بكتاب الله تعالى وأسرار نزوله .. فالآيات المكيّة في جملتها تعالج جانبين في آنٍ واحد:ـــ

= **الجانب الأول** : توطيد أصول الإيمان والعقيدة، وبناء القوة الذاتية للمسلم، في الصبر على المكاره وتحمّل الصعاب.

= **الجانب الثاني** : هدم الشرك والوثنيّة وزلزلة معتقدات الجاهلية الضالّة..

---

(١) صحيح البخارى جـ٣، ص ٢٢٧ باب تأليف القرآن.

ــ وبالرجوع إلى مصادر علوم القرآن التي تحدثت عن التنزيل المكى والمدنى نجد أنها قد عالجت هذه الموضوعات بطرقٍ متفاوتة، كالإمام الزركشى والسيوطى والزرقاني في كتبهم المشهورة[1] وربما كان من أجمعها وأدقها «مناهل العرفان» للزرقاني، حيث ناقش بعض الشبهات الواردة في هذا الموضوع ورد عليها رداً قوياً.

ــ ويمكن الاستفادة مما دوَّنه هناك باستخلاص الأسس والمنطلقات التي اشتمل عليها التنزيل المكيّ ــ ونجمل أبرزها فيما يلى:

١ ــ أن القرآن الكريم في العهد المكيّ فتح عيون أهل مكة على ما في أنفسهم من شواهد الحق، وعلى ما في الكون من أعلام الرشد، ونوّع لهم في الأدلة وتفنن في الأساليب وقاضاهم إلى الأوليّات والمشاهدات ثم قادهم من وراء ذلك قيادة راشدة حكيمة إلى الاعتراف بوحدانية الله في ألوهيته وربوبيته، والإيمان بالبعث ومسئوليّته، والجزاء العادل ودقته، ثم إلى التسليم بالوحى وبكل ما جاء به من هدى الله، كما هو واضح في سورة الأنعام وسورة يونس وسورة الفرقان، وسورة العنكبوت وغيرها من السور.

٢ ــ أنّه حمل حملة قويّة على الشرك والوثنيّة وعلى الشبهات التي تذرّع بها أهل مكة للإصرار على الشرك والوثنيّة ودخل عليهم من كل باب، وآتاهم بكل دليل، وحاكمهم إلى الحس، وضرب لهم أبلغ الأمثال، حتى انتهى بهم إلى أن تلك الآلهة المزيّفة لاتقدر أن تخلق مجتمعةً أقل نوع من الذباب، بل لا تستطيع أن تدفع عن

(١) انظر: ــ البرهان : للزركشى جـ١، ص ١٨٧ ــ ٢٠٥.
ــ الإتقان : للسيوطى جـ١، ص ٢٢ ــ ٦٧.
ــ مناهل العرفان : للزرقانى جـ١، ص ١٨٥ ــ ٢٣٢.

نفسها شر عادية الذباب .. فقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾(١).

ــ ولما عاندوا واحتجوا بما كان عليه آباؤهم، نعى عليهم أن يمتهنوا كرامة الإنسان إلى هذا الحضيض من عبادة الأحجار والأصنام وسفّه أحلامهم، وأحلام آباهم الذين أهملوا النظر في أنفسهم وفي آيات الله وفي الآفاق وقبحّ إليهم الجمود على هذا التقليد الأعمى للآباء والأجداد ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾(٢).

وناقشهم كذلك في عقائدهم الضالّة التي نجمت عن تلك الوثنيّة من جحود الإلهيّات والنبوات وإنكار البعث والمسئوليّة والجزاء.

٣ ــ أنّه تحدث عن عاداتهم القبيحة كالقتل وسفك الدماء ووأد البنات واستباحة الأعراض، وأكل مال الأيتام، فلفت نظرهم إلى ما في ذلك من أخطار، ومازال بهم حتى طهّرهم منها ونجح في إبعادهم عنها في النهاية.

٤ ــ أنه شرح لهم أصول الأخلاق وحقوق الاجتماع شرحاً عجيباً كرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان وفوضى الجهل وجفاء الطبع، وقذارة القلب وخشونة اللفظ، وحبَّب إليهم الإيمان والطاعة والنظام والعلم والمحبة والرحمة والإخلاص واحترام الغير وبر الوالدين وإكرام الجار وطهارة القلوب ونظافة الألسن إلى غير ذلك.

---

(١) سورة الحج الآية (٧٣).

(٢) سورة البقرة الآية (١٧٠).

٥ ــ أنّه قصَّ عليهم من أنباء الرسل وأممهم السابقة مافيه أبلغ المواعظ وأنفع العبر من تقرير سننه تعالى الكونيّة في إهلاك أهل الكفر والطغيان وانتصار أهل الإيمان والإحسان مهما طالت الأيام وامتد الزمان، ماداموا قائمين بنصرة الحق وتأييد الإيمان كما في سورة الأعراف وهود والشعراء والقصص.

٦ ــ أنَّه سلك مع أهل مكة سبيل الإيجاز في خطابه والإقلال دون الإسهاب والإطناب. كما أن قانون الحكمة العالية، قضى بأن يسلك سبيل التدرج والارتقاء في تربية الأفراد، وأن يقدم الأهم على المهم.

ــ ولا ريب في أن تأسيس العقائد والأخلاق ومعالجة العادات إيجاباً وسلباً تقدَّم على ضروب العبادات ودقائق المعاملات، لأن الأولى كالأصول بالنسبة للثانية والعناية بها جرياً على سنّة التدرج من ناحية ــ وتقديماً للأهم على المهم من ناحية أخرى[١].

= أثر التنزيل المكى في سير الدعوة :

نزلت آيات السور المكيّة تباَعاً ــ على مدى ثلاثة عشر عاماً ــ على رسول الله ﷺ، وكان يبلّغ النّاس ما أنزل إليه من ربه أولاً بأول، وكان المؤمنون يتلقون القرآن بقلوب مفعمة بالمحبّة والإيمان كما تستقبل الأرض المجدبة مطر السماء فيملأ القرآن نفوسهم بالخير والهدى، ويربيهم على موائد فضله ليحملوا دين الله الخالد وشرعه المبين إلى أمم الأرض، هداة مهتدين وقادة فاتحين.

---

(١) مناهل العرفان: جـ١، ص ١٩٥ ــ ١٩٦ بتصرف.

ـــ ولم يقتصر تأثير القرآن الكريم على المؤمنين به، بل تأثر به كذلك صناديد المشركين، فمما تشهد به الحقائق التأريخية والآثار الصحيحة، أنه كان يتأثر بالقرآن الكريم كل من سمعه وأصغى إليه من المشركين والمؤمنين.

ـــ وقد أثر القرآن في نفوس المشركين تأثيراً كبيراً بروعة بيانه ودقة نظمه وأسلوبه، وهذا هو الذى أنطق الوليد ابن المغيرة بكلمته المشهورة فيه لأبى جهل التي اعترف فيها بأن القرآن هو الحق الذي يعلو ولا يُعلى عليه والذي يحطم ماتحته، إنها كلمة فائضة من نور عقله وصميم وجدانه، وما استطاع أن يقول كلمة أخرى في الصد عنه بعد إلحاح أبي جهل عليه، إلا بتكليف لمكابرة عقله ووجدانه، بعد أنْ فكَّر وقدّر ونظر وعبس وبسر ثم أدبر واستكبر فقال: ﴿إن هذا إلا سحر يؤثر﴾ .

ـــ وقد أورد ابن كثير في كتاب السيّرة عن ابن عباس أن الوليد بن المغيرة جاء إلى رسول الله ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رقَّ له فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: ياعم .. إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً، قال: لمَ؟ قال: ليعطوك فإنك أتيت محمداً لتعرض ماقبله، قال: لقد علمت قريش أنى أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكرٌ له، قال: ماذا أقول؟ فوالله ما منكم رجلٌ أعرف بالأشعار منى ولا أعلم برجزه ولا بقصيده منى ولا بأشعار الجنّ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة وإنَّ عليه لطلاوة وإنّه لمثمر أعلاه مغدق أسفله وإنه ليعلو ولايُعلى عليه وإنَّه ليحطمنَّ ما تحته .. قال: لايرضى عنك قومك حتى تقول فيه، قال: قف عنّى حتى أفكر فيه، فلما فكر قال: إنْ هذا إلا سحر يؤثر، يأثره عن غيره، فنزلت ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا ﴾.(١)

(١) سورة المدثر الآية (١١ ـــ ١٣).

ـــ وقد اجتمعت قريش يوماً فقالوا: انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليأتِ هذا الرجل الذي فرّق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا فليكلمه ولينظر ماذا يرد عليه فقالوا: ما نعلم أحداً غير «عتبة بن ربيعة» فقالوا: أنت ياأبا الوليد .. وقد أتاه عتبة وذكر كلاماً كثيراً يعترض به على رسول الله ﷺ، فلما فرغ من كلامه قال رسول الله ﷺ: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم .. حم . تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصّلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون﴾ إلى أن بلغ ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ عندئذٍ أمسك عتبة على فيه وناشده الرحم أن يكف عنه، ولم يخرج إلى أهله واحتبس عنهم، فقال أبو جهل: «والله ياعتبة ما جئنا إلا لأنك صبأت إلى محمد وأعجبك أمره، فإن كان بك حاجة جمعنا لك من أموالنا ما يغنيك عن طعام محمد، فغضب وأقسم بالله لايكلم محمداً أبداً، وقال: لقد علمتم أنى من أكثر قريش مالاً ولكنى أتيته، .. وقصَّ عليهم القصة ـــ فأجابنى بشيىء والله ما هو بسحر ولا بشعر ولا كهانة .. قرأ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم .. حم . تنزيل من الرحمن الرحيم﴾ حتى بلغ ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عادٍ وثمود﴾ فأمسكت بفيه وناشدته الرحم أن يكف، وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل عليكم العذاب»(١).

ـــ هذا التأثير هو الذي كان يجذب رؤوس أولئك الجاحدين المعاندين ليلاً لاستماع تلاوة رسول الله ﷺ في بيته على ماكان من نهيهم ونأيهم عنه وتواصيهم وتقاسمهم أن لايسمعوا له، ثم كانوا يتسللون فرادى مستخفين ويتلاقون في الطريق متلاومين كما ذكره البيهقى في دلائل النبوة(٢).

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير ـــ جـ١، ص ٥٠٢ ـــ ٥٠٣.
(٢) انظر : الوحى المحمدى ـــ للسيد رشيد رضا ص ١٥٧.

ـــ وقد ورد في خبر جبير بن مطعم لما سمع النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية ﴿أم خلقوا من غير شيىء أم هم الخالقون، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون، أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون﴾ قال جبير: كاد قلبي يطير .. وهذا الحديث مخرج في الصحيح(١) من طريق عن الزهرى.

ـــ وجبير بن مطعم كان قد قدم على النبي ﷺ بعد وقعة بدر في فداء الأسارى، وكان إذ ذاك مشركاً، فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ما حمله على الدخول في الإسلام بعد ذلك(٢).

ـــ أما تأثير القرآن في نفوس المؤمنين الأولين فقد استولى على مشاعرهم وغيّر ما بأنفسهم من مفاسد الجاهليّة فزكى أنفسهم وسما بأفكارهم، وقد عكفوا عليه يرتلونه ويتفهمونه ويتعرفون أحكامه ومراميه.

ومما ورد في صفة الصحابة رضى الله عنهم أن الذي كان يمر ببيوتهم ليلاً يسمع منها مثل دويّ النحل من تلاوة القرآن الكريم، وقد بالغ بعضهم فكان يقوم الليل كله حتى شكا نساؤهم .. فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك.

ـــ وثبت في الصحيحين من حديث أبي موسى الأشعرى رضى الله عنه قول رسول الله ﷺ: «إنى لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالليل حين يدخلون، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل وإن كنت لم أرَ منازلهم بالنهار»(٣).

---

(١) صحيح البخارى ـــ كتاب التفسير جـ٣، ص ١٩٣.
(٢) انظر : تفسير بن كثير ـــ جـ٤، ص ٢٤٤.
(٣) صحيح البخارى ـــ كتاب المغازى ـــ باب غزوة خيبر ـــ جـ٣، ص ٥٤.

ـــ وكان رسول الله ﷺ يتأثر بسماع القرآن ويحب أن يسمعه من غيره، ففي حديث عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: قال لىّ رسول الله ﷺ «إقرأ علىّ ـــ فقلت: يارسول الله أأقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: إنى أحب أن أسمعه من غيرى، فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾ فقال: حسبك الآن فإذا عيناه تذرفان»[١].

ـــ وهكذا كان تأثير القرآن في نفوس المؤمنين به والمخالفين له، وإن تقليب القلوب والأفكار لأعسر من فلق الصخور وتحويل الجبال وقد ضرب الله المثل[٢] بقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٣].

= والناس أمام هذا القرآن فرق ثلاث :ـــ

* **الأولى** : فرقة ناجية، آمنت بهذا القرآن واستسلمت لعظمته وروعة هداياته وبيانه وعلمت أنه من لدن حكيم خبير قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[٥].

---

(١) صحيح البخارى ـــ فضائل القرآن ـــ جـ٣، ص ٢٣٥.
(٢) الوحى المحمدى ص ١٦٤.
(٣) سورة الحشر الآية (٢١).
(٤) سورة الزمر الآية (٢٣).
(٥) سورة البقرة الآية (١، ٢).

* **الثانية** : فرقة صدّقت بهذا القرآن في قرارات أنفسها وعلمت أنه يهدى للتى هي أقوم، ولكن سلطان الحميّة الجاهليّة وما ألفت النفوس من عقيدة الآباء حالت دون الانقياد المطلق والتسليم لله ولرسوله بالإيمان والاتباع.

وقد ظلم هؤلاء الناس أنفسهم كما ظلموا الحقيقة والواقع، فهم في صراع مع الحقيقة التي تقر بها أنفسهم، ومع الظلم والعدوان المتمثل في مكابرتهم لما جاءت به الرسل من الهدى والحق.. قال تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾(١) وتلك صفة الجاحدين ينكرون حتى ما تقوم البراهين والآيات الحسيّة على وجوده، إنهم يقرّون بها في قرارات أنفسهم ولكنهم يكابرون عقولهم وما استقر في أنفسهم من معجزات المرسلين وآيات رب العالمين، يفعلون ذلك ظلماً وعدواناً وحميّة لعقائد الآباء والأجداد وإن كانت ضالة .. قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ﴾(٢).

ـــ إن هذه الفئة مع كفرها يُرجى لها أن تسلم لله ربِّ العالمين ولو بعد حين، مادام عندها في قرارات أنفسها نوع من التأمل والتفكر والتصديق الباطنى، كما حدث لسحرة فرعون فإنهم كانوا من أشد أعداء موسى عليه السلام وما جاء به من الحق، ثم آمنوا وختم الله لهم بالإيمان، وكذلك كثير ممن آذوا رسول الله ﷺ في بداية الأمر ثم أسلموا وحسن إسلامهم، ومن هؤلاء «جبير بن مطعم» الذى سمع النبي ﷺ يتلو بعض آيات القرآن، فقال: كاد قلبي يطير، وذلك أول ما وقر الإسلام في قلبي، كما تقدم.

---

(١) سورة الأنعام الآية (٣٣).

(٢) سورة النمل الآية (١٤).

* **الثالثة** : فرقة حجبت عن أعينها، مصابيح الهدى وعن قلوبها روافد الإيمان فتجمدت وقست ﴿ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾(١)، انتكست قلوبها فصارت تنظر للأمور بمنظار عكسي، يقلب موازين الأشياء وحقائق الأمور ﴿ كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾(٢) وكثيرٌ من هؤلاء لايزيدهم القرآن إلا نفوراً وطغياناً وكفراً قال تعالى: ﴿ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا ۚ ﴾(٣)، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴾(٤) وقد أمر الله رسوله ﷺ بأن لايحزن على القوم الكافرين ولا يضيق صدره بما يمكرون .. فقال تعالى: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾(٥) فإن سنة الله تعالى في الأولين والآخرين أن الصراع بين الحق والباطل لاينتهي وأن الخصومة في الله بين المؤمنين والكافرين ممتدة عبر رحلة البشريّة، وستستمر حتى وقت الوقوف بين يديّ الله تعالى، فيقضي بين عباده بعدله وحكمته في موقف يذهب فيه الخداع والحيل، وتبرز فيه الحقائق وتتجلى فيه الأمور، وتُستنطق فيه الأعضاء والجلود فتكون شواهد كل إنسان على أعماله من نفسه .. قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) ﴾(٦).

---

(١) سورة البقرة الآية (٧٤).
(٢) سورة يونس الآية (٣٣).
(٣) سورة المائدة الآية (٦٤).
(٤) سورة الإسراء الآية (٤١).
(٥) سورة النحل الآية (١٢٧).
(٦) سورة فصلت الآية (١٩ — ٢١).

ـــ ويمكن أن نلخص أثر التنزيل المكيّ في سير الدعوة في النقاط التالية :ـــ

١ ـــ أنّه صنع جيلاً من السابقين الأولين رجالاً ونساءً، راسخ الإيمان ثابت العزمات، امتزج الإيمان بدمائه وسرى في عروقه، ـــ فمن كأبى بكر رضى الله عنه في شجاعته عندما كان يرد المشركين وينافحهم عن رسول الله ﷺ[١]؟ ومواقفه الشجاعة عند وفاة رسول الله ﷺ في حروب الردة واضحة مشهورة.

ـــ ومن كعمر بن الخطاب في قوة شخصيته واعتزاز المسلمين بإسلامه؟ ألم يقل للمشركين عندما أراد الهجرة إلى المدينة: «من أراد أن تثكله أمه وييتّم ولده وتُرمّل زوجته فليلقنى وراء هذا الوادى؟ فما تبعه منهم أحد»[٢].

ـــ وعثمان بن عفان في إيمانه وحيائه وتجهيزه لجيش العسرة.

ـــ وعلى بن أبي طالب في فدائه لرسول الله ليلة الهجرة، وشجاعته وعلمه، وطلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمٰن بن عوف، وجعفر بن أبي طالب، وأبي ذر الغفارى وغيرهم من السابقين إلى الإسلام.

ـــ ومن هذا الجيل، السيّدات المجاهدات الأوائل، وفي مقدمتهن
.. أم المؤمنين «خديجة بنت خويلد» زوج النبي ﷺ، حيث واسته وآزرته في أشدّ الظروف.

.. وأم المؤمنين، أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان وهجرتها إلى الحبشة والمدينة.

---

(١) انظر صحيح البخارى : مناقب أبي بكر جـ٢، ص ٢٩٣.
(٢) أخرجه بن عساكر عن عليّ : انظر تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١١٥.

.. ومن هنَّ «أسماء بنت أبي بكر الصديق»، ذات النطاقين، وحاملة الزاد والمتاع إلى النبي ﷺ وصاحبه أبي بكر ليلة الهجرة، وغيرهنّ من المسلمات الصابرات.

فهذا الجيل الذى صنعه القرآن، وتربى في مدرسة النبوة الأولى هو الذى عايش الدعوة سراً وجهراً، وقام بها دعوة وعلماً وتعليماً.

٢ ـ أثرت آيات التنزيل المكى في سير الدعوة بخطى ثابتة متوازية، ولئن كان سير الدعوة بطيئاً في تلك الآونة فذلك لحكمة أرادها الله تعالى لبناء الرعيل الأول بناءً راسخاً وصقل نفوسهم وإرساء القاعدة الإيمانية الصلبة في هذه النخبة من الرجال، ولم يُسلِم في هذه المرحلة إلا صادق الإيمان، ولم يظهر النفاق لكون السلطان المادى والكثرة الكاثرة في صفوف المشركين.

٣ ـ أعطت المؤمنين الصادقين شحنة هائلة من الصبر والثبات على البلاء وتحمل الهجر والهجرة، وتمثل هذا في الهجرة الأولى والثانية إلى الحبشة، وفي صبر «بلال» «وعمار» «وصهيب» وغيرهم على التعذيب في سبيل الله، ولم يسلم من أذى المشركين حتى رسول الله ﷺ وكان أشد ماصنعه المشركون به ﷺ ماصنعه عقبة بن أبي معيط حيث جاء رسول الله ﷺ يصلى فوضع رداءه في عنق النبي، فخنقه خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر حتى دفعه عنه ـ، فقال: «أتقتلون رجلاً أن يقول ربيّ الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم»[1]، وكذلك ماواجهه في سفره إلى الطائف.

بيد أن هذا الصبر قد أعطى الدعوة دفعة قوية وأرسى لها قدماً راسخة كما شاء لها الله.

---

(١) صحيح البخارى : جـ٢، ص ٢٩٣.

٤ ــ أنها حوّلت حياة الفئة المؤمنة ومنازلهم ومجالسهم إلى مدارس للإيمان والتربية، رغم الاضطهاد والتعذيب فكلهم عاكفون على تلاوة ما أنزل من القرآن الكريم، وتفهم معانيه أولاً بأول حتى أنّ المار ببيوتهم ليلاً ليسمع دوياً كدوي النحل من تلاوتهم لكتاب الله، وقد شاركهم في هذه الصفة بعد ذلك إخوانهم من الأنصار ــ الذين آووا رسول الله ﷺ ونصروه، واستقبلوا إخوانهم من المهاجرين وفتحوا لهم صدورهم وأشركوهم في أموالهم، وقد مدح الله الأنصار بقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾[١].

٥ ــ أن هذا الجيل الأوّل حصيلة ثلاثة عشر عاماً من نزول القرآن، حيث عالجت آيات السور المكيّة فكره وسلوكه وتصوره للكون والحياة، وأثّرت في وجدانه وعواطفه، فأصبحت منسجمة مستجيبة لله ولرسوله مهما كلّفها ذلك من ثمن، وقد ظهر ذلك الاتجاه حتى في صفوف النساء المؤمنات .. فهذه «فاطمة» أخت «عمر بن الخطاب» المسلمة عندما طلب منها عمر قبل إسلامه الصحيفة التي فيها سورة طه ــ قالت له: إنك نجسٌ على شركك وإنه لايمسه إلا المطهرون، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة فلما قرأ صدراً منها قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه[٢] فأسلم عمر رضى الله عنه.

وهذه أم المؤمنين أم حبيبة «رملة بنت أبي سفيان» لمّا أراد والدها «أبو سفيان»، عند قدومه وهو مشرك، أن يجلس على فراش رسول الله ﷺ ثنته عنه وقالت: هذا فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك..الخ[٣].

---

(١) سورة الحشر الآية (٩).

(٢) السيرة النبوية لابن كثير. جـ١، ص ٣٥.

(٣) السيرة النبويّة ــ لابن كثير جـ٣، ص ٢٧٦.

ـــ وهكذا نجد أثر التنزيل المكىّ في بناء الشخصيّة الإيمانية القوية عند المسلمين الأوائل.

ـــ وانتشار خبر الدعوة في كل اتجاه من أنحاء الجزيرة العربية وإن كانت الاستجابة بطيئة، ولكنها عن قناعة وإيمان صادق.

ـــ فهذا «ضماد الأزدى» يقدم مكة ـــ وعندما بلغه خبر رسول الله ﷺ، جاء إليه وأسلم بعد قصة مثيرة، فبايع رسول الله ﷺ على الإسلام، فقال ﷺ: وعلى قومك؟ فقال: وعلى قومى»[(١)].

ـــ وهذا أبو ذر الغفارى صاحب رسول الله ﷺ يقدم إلى مكة، فيسمع خبر الرسول ﷺ فيسلم[(٢)] ويأمره ﷺ أن يرجع إلى قومه معلماً وداعياً إلى الإسلام فاستجاب له كثير منهم وأسلم من بقى منهم بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة.

ـــ وغير ذلك مما تقدم بيعة العقبة الأولى والثانية، حيث كانتا ثمرة من ثمار انتشار أخبار الدعوة من مكة المكرّمة وتنّزل الآيات بالهدى ودين الحق.

---

(١) انظر : صحيح مسلم: جـ٢، ص ٥٩٣.

(٢) انظر : صحيح البخارى جـ٢، ص ٣٢٢ وقد ورد الخبر مطولاً.

المبحث الثالث:

التنزيل المدني وأثره في سير الدعوة وبناء المجتمع

سبق أن أشرنا في المبحث الثاني إلى أننا لانقصد من هذه المباحث تحديد معالم المكى والمدنى ودراستهما من حيث الضوابط والأنواع، وإنما نقصد أثر ذلك التنزيل على سير الدعوة وبناء المجتمع وكيف اقتضت حكمة الله أن يسلك بقرآنه سبيل التدرج والارتقاء في تربية الأفراد والجماعات.

ـــ وفي هذا المبحث نرى أن واقع المسلمين قد تغيّر في المدينة المنورة فأصبح المسلمون جماعة مستقلة، ولأول مرة يكون لهم كيان وشوكة، ذلك أن رسول الله ﷺ قد أستوثق لنفسه وأصحابه في بيعة العقبة مع الأنصار الذين آووه ونصروه واتبعوا النور الذي جاء به.

وكان من مقتضيات البيعة أن يمنع الأنصار رسول الله ﷺ مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم[(١)].

وقد فهم الأنصار ذلك حتى قال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصارى: يامعشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل؟؟ قالوا: نعم، قال: إنكم تبايعون على حرب الأحمر والأسود من الناس .. إلخ.

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن كثير: جـ٢، ص ١٩٨.

وإنما قال «العباس بن عبادة» ذلك ليشدّ العقد في أعناقهم ويستوثق للبيعة.

ــ عندما قدم النبي ﷺ المدينة بدأ بأمور ثلاثة رئيسية :ــ

١ ــ بنى مسجده ليؤدى فيه مع المؤمنين الصلوات، وليكون بمثابة ندوة جامعة لهم يتعلمون فيها ويتشاورون، وفيها يتحاكمون، فهو دار الشورى في السِّلم والحرب، إضافة إلى كونه بيتاً من بيوت الله تعالى أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه.

٢ ــ آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فصاروا بهذه الأخوة جبهة واحدة متماسكة تؤمن بالله وتدعو إلى الخير والفضيلة، وأصبحت رابطة العقيدة والأخوة في الله أقوى من رابطة الدم، والوطن ــ اعتزت النخوة والحميّة الإسلاميّة فيما بينهم ضد أعدائهم، ولكن في دائرة العدل والتعاليم القرآنية ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1].

٣ ــ عقد النبي ﷺ معاهدة جوار مع اليهود الذين كانوا في المدينة، وأقرهم على دينهم وأموالهم واشترط عليهم، وشرط لهم ..[2] إلخ.

ــ ولم يزل رسول الله ﷺ على عهده ثابتاً حتى نقض اليهود معاهدتهم بالتآمر على رسول الله ﷺ بالقتل وتحريض قريش وقبائل العرب على محاربة رسول الله ﷺ، وتقديم المساعدات لهم فيما يُعدُّ نقضاً صريحاً عملياً لتلك المعاهدة.

ــ ومن هنا نعلم أن مسار الدعوة في المدينة المنورة قد اتخذ أبعاداً جديدة

(١) سورة المائدة الآية (٨).
(٢) انظر : السيرة النبوية لابن كثير جـ٢، ص ٣٢٠.

وارتاد آفاقاً واسعة، وأصبح واقع المسلمين في المدينة يختلف عن واقعهم في مكة المكرمة، الأمر الذي يتطلب تشريعات واسعة في العبادات والمعاملات وتنظيم العلاقات فيما بين المسلين أنفسهم من جانب، وبينهم وبين أهل الكتاب من جانب آخر، وبين المسلمين والمشركين من جانب ثالث.

ـــ اقتضت إرادة الله أن يشرع لعباده ما يصلحهم ويقيم بينهم موازين العدل ويحدد العلاقات والمسئوليات،

ـــ وقد تميّز التنزيل المدنى باشتماله على دقائق التشريع وتفاصيل الأحكام.

ـــ والأحكام القرآنية : هي مابينه الله تعالى في كتابه العزيز، أو بيّن أصوله من النظم التى يجب اتباعها في تنظيم علاقة الإنسان بربه وبالمخلوقين.

ـــ وتشمل: أحكام الصلاة والزكاة والصوم والحج واليمين والنذر وما إلى ذلك مما يدخل في دائرة العبادات التي تغذّى الإيمان وتنمّي ثمراته الطيّبة.

ـــ وتشمل : أحكام الزواج والطلاق وما يتبعهما من مهر ونفقة، ورضاعة، ونسب، وعدة، ووصيّة، وإرث، وما إلى ذلك مما يدخل في دائرة الأحوال الشخصية وأحكام الأسرة..

ـــ وتشمل : أحكام البيع والإجارة والرهن والمداينة وما إلى ذلك مما يدخل في دائرة المعاملات الماليّة.

ـــ وتشمل : أحكام الجنايات والجرائم كالقتل والسرقة والإفساد في الأرض، والزنا، والقذف، وما إلى ذلك مما يدخل في دائرة العقوبات.

ــ وتشمل : أحكام الحرب والسلّم وما يتبعهما من غنائم وأسرى، ومعاهدات، وما إلى ذلك مما يدخل في دائرة الأحكام الدولية العامة.[1].

ــ وهكذا نجد أن جميع النظم المدنية، والجنائية، والحربية والاجتماعية، والدولية، والحقوق الشخصية، وسائر ضروب العبادات والمعاملات قد جاءت واضحة جليّة في التنزيل المدنى كما في سورة البقرة والنساء والمائدة والأنفال والقتال والفتح والحجرات وغيرها من سور القرآن الكريم.

ــ كما تناول التنزيل المدنى أهل الكتاب من يهود ونصارى، ودعاهم إلى الإسلام، وناقشهم في عقائدهم الباطلة مبيّناً جنايتهم على الحق، وتحريفهم لكتب الله، حاكمهم إلى العقل والتأريخ في بعض القضايا، كدعواهم بأن إبراهيم عليه السلام كان يهودياً أو نصرانياً، فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾[2].

ــ ويمكن أن نلخص أثر التنزيل المدنى في سير الدعوة وبناء المجتمع في النقاط التالية :

١ ــ أن واقع المسلمين في المدينة المنورة قد تغيّر عنه في مكة المكرمة، فالجوار غير الجوار، والحالة غير الحالة، وقد جاء التنزيل المدنى بالتطوير الجديد للمجتمع

(١) انظر : إلى القرآن الكريم. ص ٦ محمود شلتوت.

(٢) سورة آل عمران الآية (٦٥ ــ ٦٧).

المسلم وبشكل بنْيته الأساسية في ترابط المجتمع ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [1]، ونظّم العلاقات الأسرّية، وحث على التضامن والتراحم بين فئات المجتمع المسلم وعالج قضاياه متدرجاً في التشريع حسب الحكمة ومقتضيات الأحوال.

٢ ـــ أن المسلمين في المدينة المنورة قد أصبح لهم كيان وشوكة، فجاء التنزيل المدني لبناء ذلك المجتمع المسلم وتنظيم شئونه بأحكام وتشريعات تفصيلية، كما جاء بالأسس العامة والقواعد الكلية التي يندرج تحتها ماجدَّ ويستجدّ من قضايا البشر جماعات وأفراداً في كل عصر ومصر إلى قيام الساعة.

٣ ـــ جاء التنزيل المدني بالأسس والقواعد العامة لتعامل المسلمين مع غيرهم، وهو ما يعرف اليوم بالعلاقات الدولية، ويظهر ذلك فيما أبرمه الرسول ﷺ من معاهدات عند قدومه المدينة، وما صنعه في صلح الحديبية، وماكان يجرى من معاهدات والتزامات مع بعض قبائل العرب، قبل الفتح، ومع أهل الكتاب قبل الفتح وبعده كنصارى نجران.

٤ ـــ أخذت الدعوة في المدينة المنورة بعداً عالمياً، فاتسع نطاقها وارتادت آفاقاً واسعة، فقد بعث النبي ﷺ البعوث بعد رجوعه من عام الحديبية إلى ملوك الآفاق، وكتب إليهم يدعوهم إلى الإسلام ويبلغهم رسالة ربه، وكان في أواخر سنة ست من الهجرة كما ذكره الواقديّ، وذكر البيهقى ذلك بعد غزوة مؤتة قال الحافظ ابن كثير في كتاب السيرة النبويّة [ولا خلاف بينهم أن بدء ذلك كان قبل فتح مكة وبعد الحديبية][2] الخ، وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك أن رسول الله

(١) سورة الحجرات الآية (١٠).

(٢) السيرة النبوية: جـ٣، ص ٤٩٤.

ﷺ كتب إلى كسرى، وقيصر، وإلى النجاشي وإلى كل جبار ــ يدعوهم إلى الله عزّ وجل، وليس بالنجاشي الذي صلّى عليه النبي ﷺ[1].

ــ والنجاشي الذي صلّى عليه النبي ﷺ هو [أصحمة بن بحر] آمن بالنبي ﷺ، وربما كان يكتم إسلامه، ثبت في صحيح البخارى من حديث جابر رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ حين مات النجاشي: «مات اليوم رجل صالح، قوموا، فصلّوا على أخيكم أصحمة»[2].

ــ وقد بعث النبي ﷺ عمرو بن أميّة الضمّرى إلى النجاشي، والنجاشيّ «عَلَمٌ» لكل من ملك الحبشة، قال أبو محمد بن حزم إن هذا النجاشي، الذى بعث إليه رسول الله ﷺ «عمرو بن أميّة الضّمرى» لم يُسْلم وقد مال إلى ذلك ابن القيم في كتابه «زاد المعاد»[3].

ــ وبعث النبي ﷺ «دحيّة الكلبى» إلى قيصر ملك الروم، واسمه «هرقل»، وقد همّ بالإسلام ولم يسلم على الصحيح.

ــ كما بعث النبي ﷺ «حاطب بن أبي بلتعة» إلى المقوقس ملك الإسكندرية عظيم القبط، فقال خيراً ولم يسلم.

ــ وبعث «عبد الله بن حذافةالسَّهمى»إلى كسرى، واسمه «أبرويز بن هرمز بن

---

(١) صحيح مسلم : كتاب الجهاد. جـ٣، ص ١٣٩٧.
(٢) صحيح البخارى . جـ٢، ص ٣٢٥.
(٣) زاد المعاد جـ١، ص ١٢٠.

أنو شروان»، فمزق كتاب النبي ﷺ فدعا عليه الرسول ﷺ قائلاً: [اللهم مزّق ملكه]، فمزق الله ملكه وملك قومه[1].

ـــ وهكذا بعث النبي ﷺ كتباً إلى الملوك والأمراء والأساقفة، يدعوهم إلى الإسلام.

ـــ بعث إلى أسقف الروم بالقسطنطينية، وبعث إلى أساقفة نجران .. كما بعث إلى «المنذر بن ساوى العبدى» عامل كسرى على البحرين، وبعث إلى ملوك عُمان ومن كان منهم بالبحرين، كما بعث إلى أهل اليمن كتاباً عاماً ..، وكتب إلى يهود خيبر وغير ذلك من الكتب والرسائل التي كان يتعهد بها الأقطار في سبيل إبلاغهم دعوة الإسلام.

ـــ وبهذا تكون دعوة الإسلام قد تجاوزت الجزيرة العربية إلى العالم الخارجي في حياة رسول الله ﷺ ..، وأخذت بعداً عالمياً ينسجم مع عالميتها وكونها للناس أجمعين، بل للثقلين الجن والإنس ـــ كما دلت عليه نصوص القرآن والسنة كما تقدّم.

(١) زاد المعاد : جـ١، ص ١٢١.

الفصل الثالث

مناسبات السور والآيات ودلالتها على الأحكام

يشتمل هذا الفصل على المباحث التالية :

* **المبحث الأوَّل** : تناسب السور.
* **المبحث الثاني** : تناسب الآيات.
* **المبحث الثالث** : دلالات التناسب على الأحكام.

المبحث الأول :

تناسبُ السّور

ـ علم المناسبات بين السور والآيات من العلوم الدقيقة التي تحتاج إلى فهمٍ وتذوق لنظم البيان القرآنى، وله علاقة وثيقة بالتفسير، حتى قيل: إن نسبة هذا العلم من التفسير، نسبة علم البيان من النحو(١).

ـ وقد أفرده بالتصنيف العلّامة (أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الأندلسى) المتوفي سنة ٧٠٨هـ، وهو شيخ أبي حيان، واسم كتابه [البرهان في مناسبة ترتيب سور القرآن]، ثم صنفَ فيه العلّامة (برهان الدين البقاعى) المتوفى سنة ٨٨٥هـ كما في البدر الطالع(٢)، وسمَّى كتابه [نظم الدرر في تناسب الآى والسور، ثم السيوطى في كتابه [تناسق الدرر في تناسب السور](٣).

ـ والمناسبة في اللغة : المقاربة والمشاكلة.

ـ وفي الاصطلاح : هي الرابطة بين شيئين بأى وجه من الوجوه.

ـ وفي كتاب الله : تعني مناسبة السورة لما قبلها وما بعدها، وكذلك الآيات، تعنى وجه الارتباط في كل آية بما قبلها وما بعدها.

---

(١) انظر : نظم الدرر في تناسق الآيات والسور. للبقاعى. جـ١، ص ٦.

(٢) البدر الطالع. جـ١، ص ١٩.

(٣) انظر : الإتقان للسيوطى. جـ٣، ص ٣٢٢.

ـــ وقد عرّف الإمام (بدر الدين الزركشى) المناسبة فقال:ـــ

«المناسبة : أمر معقول، إذا عُرض على العقول تلقته بالقبول، وكذلك المناسبة في فواتح الآى وخواتيمها، ومرجعها ـــ والله أعلم ـــ إلى معنى مّا رابط بينهما : عام أو خاص، عقلىّ أو حسىّ أو خيالى، أو غير ذلك من أنواع العلاقات، أو التلازم الذهنى، كالسبب والمسبب والعلة والمعلول والنظيرين، والضّدين، ونحوه أو التلازم الخارجى كالمترتب على ترتيب الوجود الواقع في باب الخبر .. وفائدته : جعل أجزاء الكلام بعضها آخذاً بأعناق بعض، فيقوى بذلك الارتباط، ويصير التأليف حاله حال البناء المحكم المتلائم الأجزاء..»[1].

ـــ وأول من أظهر علم المناسبة: هو الإمام (أبو بكر عبد الله بن محمد النيسابورى) المتوفى سنة ٣٢٤هـ.

قال الشيخ أبو الحسن الشهرابانّى: «أوّل من أظهر ببغداد علم المناسبة ولم نكن سمعناه من غيره هو الشيخ الإمام .. أبو بكر النيسابورى، وكان غزير العلم في الشريعة والأدب، وكان يقول على الكرسى إذا قرئ عليه الآية: لِمَ جعلت هذه الآية إلى جنب هذه؟، وما الحكمة في جعل هذه السورة إلى جنب هذه السورة؟، وكان يزرى على علماء بغداد لعدم علمهم بالمناسبة ..ا هـ»[2].

ـــ وقال الإمام فخر الدين الرازى: «أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط»[2].

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشى جـ١، ص ٣٥ ـــ ٣٦.

(٢) البرهان للزركشى. جـ١، ص ٣٦.

(٣) انظر : مفتاح السعادة. جـ٢، ص ٥٢٣.

ــ والكلام عن مناسبات السور مبنى على أن ترتيب السور توقيفي، وليس من اجتهاد الصحابة، وهذا هو الذي يترجح من أقوال العلماء، وقد مال الإمام الزركشي في البرهان، إلى أن الخلاف بين العلماء في ذلك لفظيّ لأن القائل إنه من فعل الصحابة يقول: إن النبي ﷺ رمز إليهم بذلك لعلمهم بأسباب النزول ومواقع كلماته، ولهذا قال الإمام مالك: «إنما ألّفوا القرآن على ما كانوا يسمعونه من النبي ﷺ ــ مع قوله:ــ بأن ترتيب السور باجتهاد من الصحابة ــ فآل الخلاف إلى أنّه: هل هو بتوقيف قوليّ أو بمجرد استناد فعلّي»(١).

ــ ومن الأدلة على أنه توقيفيّ ــ ماورواه البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه، قال: في بنى إسرائيل، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، إنهنَّ من العتاق الأُول، وهنَّ من تلادى(٢) فذكرها نسقاً كما استقر ترتيبها.

وقال أبو جعفر النّحاس:ــ المختار أن تأليف السور على هذا الترتيب من رسول الله ﷺ.

ــ وقال السيوطى : ومما يدل على أنّه توقيفى، كون الحواميم رتبت وِلاءً، وكذا الطواسين، ولم ترتب المسبحات وِلاءً، بل فصل بين سورها، وفصل بين طسم الشعراء وطسم القصص ــ بطس مع أنها أقصر منها، ولو كان الترتيب اجتهادياً لذكرت المسبّحات وِلاءً، وأخرت طس عن القصص.

ــ ثم قال: والذي ينشرح له الصدر، ماذهب إليه البيهقى، وهو أن جميع السور ترتيبها توقيفى إلا براءة والأنفال»(٣).

---

(١) انظر : البرهان للزركشى. جـ١، ص ٢٥٧ والإتقان للسيوطى جـ١، ص ١٧٧.
(٢) صحيح البخارى ــ باب تأليف القرآن. جـ٣، ص ٢٢٧.
(٣) الإتقان. جـ١، ص ١٧٩.

ـــ وأما ماورد في صحيح مسلم عن حذيفة قال : [صليّت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح سورة البقرة، .. ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها[1] إلخ]، فقد أجيب عن ذلك بأنه ربما أريد به التوسعة على الأمة وبيان الجواز، لأن ترتيب السور في القراءة ليس بواجب[2].

ـــ وقال الإمام محمود بن حمزة الكرماني[3] في كتابه: [البرهان في توجيه متشابه القرآن] مانصّه: «أوّل القرآن سورة الفاتحة ثم البقرة، ثم آل عمران، على هذا الترتيب إلى سورة الناس. وهكذا هو عند الله في اللوح المحفوظ، وهو على هذا الترتيب كان يعرضه عليه الصلاة والسلام على جبريل عليه السلام، كل سنة، أي، ما كان يجتمع عنده منه، وعرضه عليه الصلاة والسلام في السنة التي توفى فيها مرتين[4]، وكان آخر الآيات نزولاً ﴿واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله﴾[5] فأمره جبريل أن يضعها بين آيتى الربا والدين ..»[6].

---

(١) صحيح مسلم. جـ١، ص ٥٣٦.

(٢) انظر: البرهان للزركشى. جـ١،ص ٢٥٧، والإتقان جـ١، ص ١٧٩.

(٣) الكرمانى هذا، ليس هو شارح صحيح البخارى ـــ وإنما هو تاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرمانى، ولم يترجم له سوى ياقوت الحموى في معجم الأدباء جـ١٩، ص ١٢٥. وقال عنه: أحد العلماء الفهماء النبلاء، صاحب التصانيف والفضل، كان عجيباً في دقة الفهم وحسن الاستنباط، ولم يفارق وطنه، ولم يرحل، وكان في حدود الخمسمائة وتوفى بعدها، ـــ وقد نقل هذه الترجمة بحروفها صاحب «بغية الوعاة وإنباه الرواة» وابن الجزرى، والذهبى في طبقات القرّاء، والداودى والسيوطى في طبقات المفسرين ولم يزيدوا عليها شيئاً.

(٤) انظر هذا الحديث في صحيح البخارى جـ٣، ص ٢٢٧، وفي مسند الإمام أحمد عن ابن عباس. جـ١، ص ٢٣١.

(٥) قاله ابن عباس، انظر. تفسير الطبرى. جـ٦، ص ٤، وتفسير القرطبى جـ١، ص ٦٠.

(٦) البرهان في توجيه متشابه القرآن ص ٢٢ ـــ ٢٣.

ـــ وقال أبو بكر بن الأنبارى: «أنزل الله القرآن كله إلى سماء الدنيا ثم فرّق في بضع وعشرين، فكانت السورة تنزل لأمر يحدث، والآية جواباً لمستخبر، ويقف جبريل النبي ﷺ على موضع السورة والآية، فاتساق السور كاتساق الآيات والحروف، كله عن النبي ﷺ، فمن قدّم سورة أو أخرها فقد أفسد نظم الآيات»(١).

ـــ وقد أجاب السيوطى في كتابه: «تناسق الدرر في تناسب السور» بأن القائلين بعدم التوقيف في ترتيب السور احتجو باختلاف مصحف أبّى وابن مسعود، ولو كان توقيفياً لما وقع فيهما اختلاف كما لم يقع في ترتيب الآيات.

قال السيوطى: «وقد منَّ الله عليَّ بجواب لذلك نفيس، وهو: أن القرآن وقع فيه النسخ للرسم كثيراً، حتى لسور كاملة، وآيات كثيرة، فلا بدع من أن يكون الترتيب العثمانى هو الذى استقر في العرضة الأخيرة، كالقراءات التى في مصحفه، ولم يبلغ ذلك أبياً وابن مسعود، كما لم يبلغهما نسخ ما وضعاه في مصاحفهما من القراءات التي تخالف المصحف العثمانى، ولذلك كتب أبىّ في مصحفه سورة الحفد، والخلع وهما منسوختان ..»(٢) ا هـ

ـــ وسواء أكان ترتيب السور توقيفياً أم اجتهادياً من الصحابة، فقد انعقد الإجماع على ترتيب السور في المصحف على ماهو عليه الآن من عهد الخليفة الراشد عثمان رضى الله عنه إلى اليوم، وليس لأحد من المسلمين مخالفة ذلك، لأن ترتيب السور إن كان بتوقيف من النبي ﷺ ـــ كما هو الظاهر ـــ فقد وضع من

---

(١) البرهان للزركشى جـ١، ص ٢٦٠.

(٢) تناسق الدرر ص ٧٢ ـــ ٧٣، وانظر : الإتقان جـ١، ص ١٨٤.

لدن حكيم خبير، وإن كان ترتيبها اجتهادياً من الصحابة، فهم أعلم الناس بترتيب السور ووضع كل سورة في مكانها المناسب من السور الأخرى، لأنهم أهل البلاغة والدراية بضروب البيان من جانب، وهم أعلم الناس بمقاصد القرآن وتناسب سوره وآياته من جانب آخر..

ــ ولم أرَ فيما اطلعت عليه، أنَّ الرهط الذين كلّفهم عثمان رضى الله عنه بجمع المصحف قد بحثوا في مناسبات السور والآيات مما يدل على أنَّ الوضع مستقر في أذهانهم بتوقيف مسبق، والعلم عند الله تعالى.

ــ يقول الدكتور (محمد عبد الله دراز) في كتابه: (النبأ العظيم) في أثناء حديثه عن تناسب الآيات والسور .. « إن كانتْ بعد تنزيلها قد جمعت عن تفريق، فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع، كمثل بنيان كان قائماً على قواعده، فلما أريد نقله بصورته إلى غير مكانه، قُدّرت أبعاده، ورُقِّمت لبناته، ثم فُرّق أنقاضاً، فلم تلبث كل لبنة منه أن عرفت مكانها المرقوم، وإذا البنيان قد عاد مرصوصاً يشدّ بعضه بعضاً كهيئته أوّل مرة».[1]

ــ واعلم أنَّ تناسب كل سورة مع ما قبلها أو ما بعدها يظهر للعلماء المهتمّين بتتبع ذلك وتأمله، وقد يخفى على كثير من طلاب العلم أحياناً، كما قال الإمام الزركشي: «وإذا اعتبرت افتتاح كل سورة وجدته في غاية المناسبة لما ختم به السورة قبلها، ثم هو يخفى تارة ويظهر أخرى»..[2].

= وفيما يلي نماذج من مناسبات السور :ــ

---

(١) النبأ العظيم. ص ١٤٩.

(٢) البرهان للزركشى. جـ١، ص ٣٨.

الأول : المناسبة بين سورة الفاتحة وسورة البقرة :ـــ

افتتح الله سبحانه وتعالى كتابه بسورة الفاتحة، لأنها جمعت مقاصد القرآن الكريم، ولذلك كان من أسمائها: أم القرآن، وأم الكتاب، والأساس، والسبع المثانى، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ﴾[1]، وعلى هذا أكثر المفسرين من الصحابة والتابعين.

ـــ وقد أخرج «البيهقى» في «شعب الإيمان» عن الحسن البصرى قوله: «إنّ الله أودع علوم الكتب السابقة في القرآن، ثم أودع علوم القرآن في المفصل، ثم أودع علوم المفصل في الفاتحة، فمن علم تفسيرها كان كمن علم تفسير جميع الكتب المنزلة»..[2]

ـــ واعلم أنّ المناسبة بين سورة البقرة وسورة الفاتحة واضحة جداً، ولهذا تحدّث المهتمون بعلم المناسبات عن هاتين السورتين كثيراً، وتظهر المناسبة جليّة فيما يلى:ـــ

(أ) أنَّ الله تعالى لما ذكر دعاء أهل الحمد والإيمان أن يهديهم صراطه المستقيم في قوله ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾ في سورة الفاتحة.

ـــ وصراط الله، هو كتابه المبين، كما قال ابن مسعود وغيره[3] قال الله: قد أعطيتكم ما طلبتم: ذلك الكتاب لاريب فيه، فاتبعوه فإنه الصراط المستقيم.

---

(١) سورة الحجر الآية (٨٧).

(٢) شعب الإيمان: ٢، ورقة ـــ ٨٧ ـــ ١ ـــ دار الكتب المصرية، وانظر: تناسق الدرر. للسيوطى. ص ٧٤.

(٣) انظر : تفسير بن جرير الطبرى. جـ١، ص ١٧٣.

(ب) أنَّ الله تعالى ذكر في سورة الفاتحة طوائف ثلاثاً وأشار إلى هذه الطوائف في أوّل سورة البقرة، فذكر الذين هم على هدى من ربِّهم، وهم المنعم عليهم، وذكر الذين اشتروا الضلالة بالهدى، وهم الضالّون، كما ذكر الذين باءوا بغضب من الله، وهم المغضوب عليهم.

ـــ وقد ذكر السيوطي في كتابه «تناسق الدرر» قريباً من هذا، كما أشار إلى بعض هذه المعاني كل من: بدر الدين الزركشي، والبقاعي في كتابيهما[1].

(ج) أنّ الله تعالى جمع في سورة الفاتحة مقاصد القرآن الرئيسية من أصول التوحيد، والإيمان بالمبدأ والمعاد، وأصول العبادات، والتعامل والأخلاق، وطلب الهداية إلى الله باتباع طريق الأنبياء والصالحين من عباده، والبعد عن طريق أهل الضلال والانحراف، فهذه سورة جامعة لأصول الإسلام، وقد اشتملت سورة البقرة على تفصيل ما أجمل في سورة الفاتحة، فكانت المناسبة بينهما: التفصيل بعد الإجمال، أي أنّ ما أجمل في سورة الفاتحة قد فُصِّل وبُيِّن في سورة البقرة.

ـــ وقد ذكر السيوطي في كتابه «تناسق الدرر» ستة أوجه ظهرت له في مناسبات سورة البقرة لما قبلها وما بعدها، وقال: إن القاعدة التي استقر بها القرآن: أنّ كل سورة تفصيل لإجمال ما قبلها، وشرح له، وإطناب لإيجازه..، وقال: وقد استقر معي ذلك في غالب سور القرآن، طويلها وقصيرها، وسورة البقرة قد اشتملت على تفصيل مجملات الفاتحة.

ـــ وأرى من المناسب أن أذكر وجهاً واحداً من الأوجه الستة، التي ذكرها

(١) انظر : البرهان للزركشي. جـ١، ص ٢٦٠ ـــ ٢٦١، ونظم الدرر البقاعي جـ١، ص ٧٧.

السيوطى، مثالاً لتناسب سورة البقرة مع الفاتحة ليتضح منهج السيوطى فيما قرره من تناسب في سور القرآن، .. قال رحمه الله: فقوله [الحمد لله]. تفصيله: ما وقع فيها من الأمر بالذكر في عدة آيات، ومن الدعاء في قوله: ﴿أجيب دعوة الداعِ إذا دعان﴾(١٨٦) الآية. وفي قوله: ﴿ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولاتحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به، واعف عنّا وأغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين﴾ (٢٨٦). وبالشكر في قوله: ﴿فاذكرونى أذكركم وأشكروا لى ولا تكفرون﴾(١٥٢) وقوله: [رب العالمين] تفصيله قوله: ﴿اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون، الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾ (٢١، ٢٢)، وقوله تعالى: ﴿هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم أستوى إلى السماء فسواهنَّ سبع سمواتٍ وهو بكل شيىءٍ عليم﴾(٢٩).

ولذلك افتتحها بقصة خلق آدم الذي هو مبدأ البشر(١) وهو أشرف الأنواع من العالمين، وذلك شرح لإجمال [رب العالمين] وقوله: ﴿الرحمٰن الرحيم﴾ قد أومأ إليه بقوله في قصة آدم: ﴿فتاب عليكم إنَّه هو التوّاب الرحيم﴾(٥٤)، وفي قصة إبراهيم لما سأل الرزق للمؤمنين خاصّة بقوله: ﴿وأرزق أهله من الثمرات من آمن﴾(١٢٦). فقال: ﴿ومن كفر فأمتعه قليلاً﴾(١٢٦) وذلك لكونه رحماناً. وما وقع في قصة بنى إسرائيل: ﴿ثم عفونا عنكم﴾(٥٢) إلى أن أعاد الآية بجملتها في قوله: ﴿لا إله إلا هو الرحمٰن الرحيم﴾(١٦٣)، ذكر آية الدين، إرشاداً للطالبين من العباد، ورحمة بهم، ووضع عنهم الخطأ والنسيان والإصر ومالا طاقة لهم به، وختم

---

(١) وذلك قوله تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل في الأرض خليفة﴾ إلى قوله ﴿فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه﴾ الآيات (٢٠ ــ ٢٧).

بقوله: ﴿واعف عنا وأغفر لنا وارحمنا﴾(٢٨٦) وذلك شرح قوله ﴿الرحمن الرحيم﴾ وقوله: ﴿مالك يوم الدين﴾ تفصيله: ما وقع من ذكر يوم القيامة في عدة مواضع، ومنها قوله: ﴿إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله﴾(٢٨٤) والدين في الفاتحة ـــ، الحساب ـــ في البقرة ـــ = يقصد بذلك أن كلمة [يوم الدين] في الفاتحة، تعنى يوم الحساب، الذى أشار إليه في سورة البقرة بقوله: ﴿يحاسبكم به الله﴾ = وقوله: ﴿إيَّاك نعبد﴾ مجمل شامل لجميع أنواع الشريعة الفروعية، وقد فصّلت في البقرة أبلغ تفصيل، فذكر فيها: الطهارة، والحيض والصلاة، والإستقبال، وطهارة المكان، والجماعة، وصلاة الخوف، وصلاة الجمع، والعيد، والزكاة بأنواعها كالنبات، والمعادن، والإعتكاف، والصوم، وأنواع الصدقات، والبر، والحج، والعمرة، والبيع، والإجارة، والميراث، والوصية، والوديعة، والنكاح، والصداق، والطلاق، والخلع، والرجعة، والإيلاء، والعدة، والرضاع، والنفقات، والقصاص، والديّات، وقتال البغاة، والردة، والأشربة، والجهاد، والأطعمة، والذبائح والإيمان، والنذور، والقضاء، والشهادات، والعتق.

فهذه أبواب الشريعة كلها مذكورة في هذه السورة وقوله: ﴿وإيّاك نستعين﴾: شامل لعلم الأخلاق، وقد ذكر منها في هذه السورة الجمّ الغفير، من التوبة، والصبر، والشكر، والرضى، والتفويض، والذكر، والمراقبة، والخوف وإلانة القول .. وقوله: ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾ ـــ إلى آخره، تفصيله: ما وقع في السورة من ذكر طريق الأنبياء، ومن حاد عنهم من النصارى، ولذا ذكر في الكعبة أنها قبلة إبراهيم، فهى من صراط الذين أنعم الله عليهم، وقد حاد عنها اليهود والنصارى معاً، ولذلك قال في شأنها: ﴿يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾(١٤٢) تنبيهاً على أنها الصراط الذى سألوا الهداية إليه.

ثم ذكر: ﴿ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك﴾(١٤٥)

وهم المغضوب عليهم والضالّون الذين حادوا عن طريقهم.، ثم أخبر بهداية الذين آمنوا إلى طريقهم، ثم قال: ﴿والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ (٢١٣)، فكانت هاتان الآيتان تفصيل إجمال ﴿إهدنا الصراط المستقيم﴾ إلى آخر السورة[١].

ـــ ونكتفى بهذا القدر في مناسبات سورة البقرة للفاتحة.

ثانياً : مناسبات سورة آل عمران لسورة البقرة:

ـــ هل القاعدة التى ذكرها السيوطى: في أن كل سورة من القرآن تفصيل لكثير مما أجمل في السور التي قبلها مطردة أم لا؟.

ـــ لقد قرر الزركشى في كتابه البرهان وجه المناسبة بين الفاتحة والبقرة وآل عمران، بقوله: «وسورة الفاتحة تضمنت الإقرار بالربوبية، والالتجاء إليه في دين الإسلام، والصيانة عن دين اليهود والنصرانية، وسورة البقرة تضمنت قواعد الدين، وآل عمران مكملة لمقصودها، فالبقرة بمنزلة إقامة الدليل على الحكم وآل عمران بمنزلة الجواب عن شبهات الخصوم»[٢].

ـــ وذهب السيوطى في تقرير قاعدته التي يرى فيها شرح كل سورة لإجمال ما في السورة قبلها، فأورد في كتابه «تناسق الدرر» أمثلة كثيرة للمناسبة بين سورة البقرة وآل عمران، وذلك في عدة مواضع.

منها : أنه ذكر في البقرة إنزال الكتاب مجملاً، وقسّمه في آل عمران إلى آيات

---

(١) تناسق الدرر ـــ ص ٧٨ ـــ ٨١.

(٢) البرهان للزركشى جـ١، ص ٢٦١.

محكمات، ومتشابهات لايعلم تأويلها إلا الله، وذلك قوله تعالى: ﴿هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هنَّ أم الكتاب وأُخر متشابهات﴾ الآية (٧) .

ومنها : أنّه قال في البقرة: ﴿وما أُنزل من قبلك﴾آية (٣)، وقال في آل عمران ﴿وأنزل التوارة والإنجيل من قبل هدى للناس﴾الآيات (٣،٤) مفصلاً، وصرّح بذكر الإنجيل في آل عمران، لأنّ السورة خطاب للنصارى، ولم يقع التصريح به في سورة البقرة بطولها، وإنما صرّح فيها بذكر التوراة خاصّة، لأنها خطاب لليهود.

ومنها : أن ذكر القتال وقع في سورة البقرة مجملاً بقوله: ﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾ الآيات (١٩٠)،(٢٢٤). وقوله: ﴿كتب عليكم القتال﴾ (٢١٦) وفصّلت في آل عمران قصة أُحدٍ بكمالها وذلك في قوله تعالى: ﴿لقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه﴾ إلى قوله: ﴿ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون﴾ الآيات (١٥٢، ١٥٨).

ومنها : أنّه أوجز في البقرة ذكر المقتوليّن في سبيل الله بقوله: ﴿أحياء ولكن لاتشعرون﴾ وزاد في آل عمران: ﴿عند ربهم يرزقون، فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم﴾(١٧٠) وذلك إطناب عظيم.

ـــ **ومنها** : أنّه قال في البقرة ﴿والله يؤتى ملكه من يشاء﴾(٢٤٧) وقال في آل عمران: ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعزّ من تشاء وتذلّ من تشاء بيدك الخير إنَّك على كل شييء قدير﴾(٢٦) فزاد في آل عمران إطناباً وتفصيلاً.

ـــ **ومنها**: أنَّه قال في البقرة ﴿وأتموا الحج﴾(١٩٦) وذلك إنما يدل على الوجوب إجمالاً، وفصّله في آل عمران بقواله: ﴿ولله على الناس حج البيت﴾ وزاد بيان

شرط الوجوب بقوله: ﴿من استطاع إليه سبيلا﴾ ثم زاد تكفير من جحد وجوبه بقوله: ﴿ومن كفر فإنَّ الله غنّى عن العالمين﴾(٩٧)[١].

ــ هذه عدة مواضع من مواضع كثيرة، وقعت في البقرة مجملة وفي آل عمران تفصيلها.

ــ ومن الربط الوثيق بين الفاتحة والبقرة وآل عمران: أن الصراط المستقيم ذكر مجملاً في الفاتحة، ثم عينه في أوّل البقرة بقوله:ــ ﴿ذلك الكتاب﴾ ثم عيّن طريق السير عليه في آل عمران بقوله: ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم﴾.آل عمران آية (١٠١).

ثالثا : المناسبة بين سورة آل عمران وسورة النساء:

ــ تظهر المناسبة بينهما من الوجوه التالية:ــ

١ ــ أنَّ آل عمران ختمت بالأمر بالتقوى، في قوله تعالى: وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ[٢]، وافتتحت سورة النساء بالأمر بالتقوى في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ﴾[٣].

ــ قال السيوطى: «وهذا من أكبر وجوه المناسبات في ترتيب السور، وهو نوع من البديع يسمى؛ تشابه الأطراف»[٤].

---

(١) تناسق الدرر : للسيوطى. ص ٨٣ ــ ٨٥. بتصرف.

(٢) سورة آل عمران الآية (٢٠٠).

(٣) سورة النساء الآية (١).

(٤) انظر : تناسق الدرر للسيوطى ص ٩٠

٢ ـــ أنَّ سورة آل عمران ذكر فيها قضية أحدٍ مستوفاة، وذكر في سورة النساء ذيلها، وهو قوله: ﴿ فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ ﴾[1] فإنها نزلت لما اختلف الصحابة فيمن رجع من المنافقين في غزوة أحد، فقال فريق بقتلهم، وقال فريق بعدم ذلك، فنزلت الآية كما في صحيح البخارى[2].

٣ ـــ في آل عمران ذكرت الغزوة التي بعد أحد بقوله: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ﴾[3].

وأشير في سورة النساء إليها بقوله: ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ﴾[4].

ـــ قال السيوطى: «وبهذين الوجهين عُرف أنَّ تأخير النساء عن آل عمران أنسب من تقديمها عليها في مصحف ابن مسعود، لأنَّ المذكور هنا ذيل ما في آل عمران، ولاحقه وتابعه فكانت بالتأخير أنسب»[5].

ـــ والذي يظهر أن السيوطى لايتقيد بالقاعدة التي يرى فيها: أن كل سورة شارحة ومفصلة لما أجمل في السورة التي قبلها ـــ فكأنه يرى أن المجمل في سورة ما قد يتأخر أحياناً تفصيله إلى سورتين أو أكثر، المهم أن التفصيل والإيضاح يكونان

(١) سورة النساء الاية (٨٨).
(٢) صحيح البخارى : كتاب التفسير ـــ جـ٣، ص ١٢٠.
(٣) سورة آل عمران الآية (١٧٢).
(٤) سورة النساء الآية (١٠٤).
(٥) تناسق الدرر. ص ٩١.

في السور التالية وليس في السور المتقدمة، ولهذا يقول عن سورة النساء إنها شارحة لبقية مجمالات سورة البقرة، ويضرب لذلك أمثلة كثيرة منها: أنَّه أجمل في سورة البقرة آية اليتامي، وآية الوصية، والميراث والوارث، في قوله: ﴿وعلى الوارث مثل ذلك﴾(٢٣٣) وفصّل ذلك في سورة النساء أبلغ تفصيل، انظر الآيات: (٧، ١١، ١٢، ٣٣، ١٧٦) من سورة النساء.

ـــ ويمكن أن نستمر في سرد مناسبات جميع سور القرآن الكريم بعضها لبعض مرتبة، لولا خشية الإطالة، ولهذا سأقتصر على بقية المناسبات التاليّة مثالاً على بقية سور القرآن الكريم:ـــ

رابعاً : المناسبة بين سورة [المؤمنون] وسورة [النور]:

ـــ وجه اتصال هاتين السورتين أن الله تعالى لما قال في سورة المؤمنون: ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾، ذكر في سورة النور أحكام من لم يحفظ فرجه، من الزانى والزانية، وما اتصل بذلك من شأن القذف، وقصة الإفك، والأمر بغضّ البصر، وأمر فيها بالنكاح حفظاً للفروج، وأمر من لم يقدر على النكاح بالاستعفاف وحفظ فرجه، ونهى عن إكراه الفتيات على الزنا.

ـــ قال السيوطى بعد الإشارة إلى ما تقدم من المناسبة بين السورتين «ولا ارتباط أحسن من هذا الارتباط، ولا تناسق أبدع من هذا النسق»(١).

خامساً : المناسبة بين سورتى الطلاق والتحريم:ـــ

ـــ هاتان السورتان متآخيتان لافتتاح كل منهما بخطاب النبي ﷺ، وسورة

---

(١) تناسق الدرر. ص ١١٩.

الطلاق مشتملة على طلاق النساء، وسورة التحريم اشتملت على تحريم الإيلاء، وبينهما من المناسبة مالا يخفى.

ــ ولمّا كانت سورة الطلاق في خصام نساء الأمَّة، ذكر في سورة التحريم خصومة نساء النبي ﷺ إعظاماً لمنصبهنَّ عن أن يذكرن مع سائر النسوة، فأفردن بسورة خاصة[1].

(١) انظر: التفسير الكبير للفخر الرازى. جـ٣، ص ٤١، وتناسق الدرر للسيوطى ص ١٤١.

المبحث الثاني:

تناسب الآيات

الكلام عن تناسب الآيات القرآنية في محيط كل سورة، وعلاقة كل آية بما قبلها أو ما بعدها بأى وجه من وجوه الارتباط، هذا الكلام مبنى على أن ترتيب الآيات القرآنية توقيفى، وقد دلّت النصوص المترادفة على ذلك، ونقل الإجماع غير واحد من أهل العلم، منهم الإمام بدر الدين الزركشى في البرهان، فقد قال: «فأما الآيات في كل سورة ووضع البسملة أوائلها فترتيبها توقيفى بلاشك، ولاخلاف فيه، ولهذا لايجوز تعكيسها»[(١)]، وقال أبو جعفر بن الزبير في مناسباته «ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف في هذا بين المسلمين»[(٢)]، وقال القاضى أبو بكر في الإنتصار: ترتيب الآيات أمر واجب، وحكم لازم، فقد كان جبريل يقول : «ضعوا آية كذا في موضع كذا»[(٣)].

فإذا تقرر أن ترتيب الآيات في سورها توقيفى عن النبي ﷺ بوحي يوحى إليه، فاعلم أن هذا الانتظام والتناسق بين آيات القرآن الكريم لم يكن مصادفةً، ولم يُوضع كيفما اتفق، بل عن علم وحكمة من لدن حكيم خبير، ولهذا كان من

---

(١) البرهان للزركشى. جـ١، ص ٢٥٦.

(٢) انظر الإتقان للسيوطى جـ١، ص ١٧٢.

(٣) الإتقان. جـ١، ص ١٧٥، ولعله يشير إلى ماوراه الإمام أحمد في مسنده عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت عند رسول الله (ص) جالساً، إذ شخّص ببصره ثم صوبه حتى كاد أن يلزقه بالأرض، قال ثم شَخص ببصره، فقال أتانى جبريل عليه السلام فأمرنى أن أضع هذه الآية بهذا الموضع من هذه السورة ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى، يعظكم لعلكم تذكرون﴾ مسند الامام أحمد جـ٤. ص٢١٨.

وجوه إعجاز القرآن نظمه الباهر في ارتباط آياته بعضها ببعض حتى أنها كالكلمة الواحدة متسقة المعانى، منتظمة المبانى، وهذا هو الذى أدهش أساطين البلاغة والبيان من قريش، ولم يقدروا على معارضته أو الطعن البلاغى في أسلوبه وبيانه.

ــ واعلم أن العلماء الذين تحدثوا عن تناسب سور القرآن وارتباط بعضها ببعض يقولون بتناسب الآيات القرآنية من باب أولى، قال الشيخ جمال الدين الزملكانى[1] بعد ذكره مناسبة بعض السور: «وإذا ثبت هذا بالنسبة إلى السور، فما ظنّك بالآيات وتعلق بعضها ببعض! بل عند التأمل يظهر أن القرآن كله كالكلمة الواحدة»[2]، وقد ذهب بعض العلماء ومنهم العزّ بن عبد السلام[3]. إلى أنَّ المناسبة علم حسن، ولكن يشترط في حسن ارتباط الكلام أن يقع في أمر متحدّ مرتبط أوله بآخره، فإن وقع على أسباب مختلفة لم يُشترط فيه ارتباط أحدهما بالآخر، ثم قال: ومن ربط ذلك فهو متكلّف بما لايقدر عليه إلا بربط ركيك يصان عنه حسن الحديث، فضلاً عن أحسنه، فإن القرآن نزل في نيف وعشرين سنة، في أحكام مختلفة ولأسباب مختلفة، وما كان كذلك لايتأتى ربط بعضه ببعض إذ لايحسن أن يرتبط تصرّف الإله في خلقه وأحكامه بعضها ببعض، مع اختلاف العلل والأسباب، كتصرّف الملوك والحكام والمفتين، وتصرف الإنسان نفسه بأمور متوافقة ومتخالفة ومتضادة وليس لأحد أن يطلب ربط بعض التصرفات مع بعض، مع اختلافها في نفسها واختلاف أوقاتها[4].

---

(١) هو كمال الدين محمد بن عبد الواحد الزملكانى الشافعى، صاحب كتاب. «البرهان في إعجاز القرآن» توفي سنة ٧٢٧هـ، انظر «شذرات الذهب» جـ٦، ص ٧٨.

(٢) انظر البرهان للزركشى جـ١، ص ٣٩.

(٣) هو الإمام المجاهد ــ عبد العزيز بن عبد السلام المشهور بالعزّ، والملقب بسلطان العلماء، عالم مفسّر، توفي بمصر سنة ٦٦٠هـ، انظر «طبقات المفسرين» للداودى جـ١، ص ٣٠٨ ــ ٣١٣.

(٤) البرهان للزركشى جـ١، ص ٣٧.

بينما يذهب كثير من العلماء إلى طلب المناسبة والتأمل في سياق الآيات، ولهذا قال الشيخ وليّ الدين الملوى: قد وهم من قال لا يطلب للآى الكريمة مناسبة لأنها على حسب الوقائع المفرقة، وفصل الخطاب، أنها على حسب الوقائع تنزيلاً، وعلى حسب الحكمة ترتيباً وتأصيلاً، فالمصحف على وفق ما فيه اللوح المحفوظ مرتبة سوره كلها وآياته بالتوقيف، وحافظ القرآن العظيم لو استفتى في أحكام متعددة، أو ناظر فيها، أو أملاها لذكر آيات كل حكم على ماسئُل، وإذا رجع إلى التلاوة لم يتلُ كما أفتى، ولا كما نزل مفرّقاً، بل كما أُنزل جملةً إلى بيت العزة، ومن المعجز البيِّن أسلوبه، ونظمه الباهر، فإنه ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[1].

قال: «والذى ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيىء عن كونها مكملة لما قبلها، أو مستقلة، ثم المستقلة، ما وجه مناسبتها لما قبلها؟ ففى ذلك علم جم، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له»[2].

أما المنهج العام لمعرفة مناسبات الآيات في القرآن الكريم فقد نقله السيوطى في الإتقان عن بعض المتأخرين فقال: الأمر الكلى المفيد لعرفان مناسبات الآيات في جميع القرآن، هو أنك تنظر إلى الغرض الذي سيقت له السورة، وتنظر ما يحتاج إليه ذلك الغرض من المقدّمات، وتنظر إلى مراتب تلك المقدمات في القرب والبعد من المطلوب، وتنظر عند انجرار الكلام في المقدمات إلى مايستتبعه من استشراف نفس السامع إلى الأحكام أو اللوازم التابعة له، التي تقتضى البلاغة شفاء الغليل بدفع عناء الاستشراف إلى الوقوف عليها، فهذا هو الأمر الكلى المهيمن على حكم

---

(١) سورة هود الآية (١).

(٢) انظر البرهان. للزركشى جـ١، ص ٣٧، والإتقان للسيوطى. جـ٣. ص ٣٢٣.

الربط بين جميع أجزاء القرآن، فإذا فعلته تبين لك وجه النظم مفصلاً بين كل آية وآية في كل سورة سورة[1].

أنواع التناسب بين آيات القرآن ــ ومنها ما يلي:

أولاً : مناسبة فواتح السور وخواتمها :ــ

ويظهر ذلك واضحاً في كثير من سور القرآن الكريم، فلو نظرت إلى سورة [البقرة] وجدت أولها يتحدث عن صفات المتقين المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝﴾[2] ثم ختمت السورة بالحديث عن الإيمان كما بُدئت به، فقال تعالى: ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ[3] وهكذا اختمت ببيان عقيدة المؤمنين على نحو ما بدأت في بيان أوصاف المتقين، وبذلك يؤكد آخرها أولها، ويؤسس أولها لآخرها، وتصير السورة كتلة واحدة.

قال الإمام فخر الدين الرازى في بيان هذا التناسب [بدأ في السورة بمدح المتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون]، وبيّن في آخر السورة أن الذين مدحهم في أوّل السورة هم أمة محمد ﷺ فقال: ﴿والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرّق بين أحد من رسله﴾ وهذا هو المراد

---

(١) الإتقان. جـ١، ص ٢٣٨.

(٢) سورة البقرة الآية (٣ ــ ٤).

(٣) سورة البقرة الآية (٢٨٥).

بقوله في أوّل السورة: ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ ثم قال ههنا ﴿وقالوا سمعنا وأطعنا﴾ وهو المراد بقوله في أول السورة: ﴿ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون﴾ ثم قال ههنا ﴿غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ وهو المراد بقوله في أول السورة ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾، ثم حكى عنهم ههنا كيفية تضرّعهم إلى ربهم في قولهم ﴿ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا﴾ إلى آخر السورة، وهو المراد بقوله في أوّل السورة ﴿أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون﴾ فانظر كيف حصلت الموافقة بين أول السورة وآخرها(١).

ـــ وانظر مثلاً إلى سورة المؤمنون، حيث قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(٢) وقال في نهاية السورة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾(٣) ويمكن أن يكون من قبيل المقابلة بين الفريقين أو المضادة بينهما، كذكر الرحمة بعد العذاب، والرغبة بعد الرهبة، وهذا نوع من العلاقة بين الآيات القرآنية، ولهذا قال الزمخشرى بعد ذكر المناسبة، «فشتان ما بين الفاتحة والخاتمة»(٤).

ـــ وانظر قوله تعالى في أول سورة (ص) ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾(٥) وقال في آخر السورة ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾(٦).

ـــ ومثله سورة (ن) بدأها بقوله ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾(٧) وختمها بقوله: ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾(٨).

(١) تفسير الفخر الرازى. جـ١، ص ١٣٧.
(٢) سورة المؤمنون الآية (١).
(٣) سورة المؤمنون الآية (١١٧).
(٤) الكشاف. للزمخشرى . جـ٣، ص ٤٥.
(٥) سورة (ص) الآية (١).
(٦) سورة ص الآية (٨٧).
(٧) سورة (ن) الآية (٢).
(٨) سورة (ن) الآية (٥١).

ثانياً : مناسبة فاتحة السورة لخاتمة ما قبلها:ـــ

وأمثلة ذلك كثيرة، فمنها :

أنه لما اختتم سور النساء بالأمر بتوحيد الله في قوله تعالى: ﴿ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد﴾إلخ والعدل بين الناس في المواريث، أكد ذلك بقوله في أول سورة المائدة ﴿ ياأيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود﴾إلخ.

ـــ ومنها افتتاح سورة الأنعام بالحمد فإنه مناسب لختام سورة المائدة، التي ذكر فيها فصل القضاء بقوله: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾[1]، كما قال تعالى: ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2].

ـــ ومنها افتتاح سورة الحديد بالتسبيح في قوله تعالى ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[3] فإنَّه مناسب لختام سورة الواقعة التى ورد الامر به في قوله تعالى: ﴿ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴾[4].

ـــ ومنها افتتاح سورة قريش لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ[5] فإنه مناسب لختام سورة الفيل: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾[6] قال الأخفش[7] إتصالها بها من باب: ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾[8].

---

(١) سورة المائدة الآية (١١٩).

(٢) سورة الزمر الآية (٧٥).

(٣) سورة الحديد الآية (١).

(٤) سورة الواقعة الآية (٩٦).

(٥) سورة قريش الآية (١).

(٦) سورة الفيل الآية (٥).

(٧) انظر البحر المحيط. جـ٨، ص ٥١٣.

(٨) سورة القصص الآية (٨).

ثالثا : اختصاص كل سورة من السور المفتتحة بالحروف المقطعة بما بدأت به، ذلك لأن كل سورة بدأت بحرف فإن هذا الحرف يغلب ويكثر في أثناء السورة ومثل ذلك سورة (ق) تكرر فيها حرف القاف أكثر من خمسين مرة، وسورة يونس تكررت الراء فيها قرابة مائتى مرة، وسورة (ن) تكررت النون أكثر من مائة وعشرين مرة ويغلب هذا في جميع السور التى بدأت بالحروف المقطّعة.

رابعاً : التناسب : بالتنظير والتضاد والاستطراد والتخلص إلى الغرض:

واعلم أنه عند النظر للربط بين الآية والآيات التي تليها لابد من التأمل ومعرفة جهة الربط ويظهر ذلك من سياق الكلام فإن ذكر الآية بعد الأخرى إما أن يكون ظاهر الارتباط وذلك لتعلّق بعضه ببعض وعدم تمامه بالآية الأولى، وكذلك إذا كانت الآية الثانية للأولى على وجه التاكيد أو التفسير أو الاعتراض أو البدل، وهذا القسم من الارتباط، واضح لا كلام فيه، كما ذكره الزركشى في البرهان.

وأما الاّ يظهر الارتباط : بل يظهر أن كل جملة مستقلة عن الأخرى، وأنها خلاف النوع المبدوء به، وفي هذه الحالة فإما أن تكون معطوفة على الأولى بحرف من حروف العطف المشتركة في الحكم أولاً.

فإن كانت معطوفة : فلابد أن يكون بينهما جهة جامعة على ما سبق تقديمه، كقوله تعالى ﴿ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ ﴾[1] وقوله تعالى: وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ [2] وفائدة العطف: جعلهما كالنظيرين والشريكين، وقد تكون العلاقة بينهما المضادة، فإن

---

(١) سورة الحديد الآية (٤).

(٢) سورة البقرة الآية (٢٤٥).

التضاد واضح بين القبض والبسط، والولوج والخروج، والنزول والعروج، وشبه التضاد بين السماء والأرض.

ـ ومما يظهر فيه التضاد في الكلام، ذكر الرحمة بعد ذكر العذاب والرغبة بعد الرهبة.

ـ وقد جرت عادة القرآن الكريم إذا ذكر أحكاماً ذكر بعدها وعداً ووعيداً، ليكون باعثا على العمل بما سبق، ثم يذكر آيات توحيد وتنزيه، ليعلم عظم الآمر والناهى، فتحتاج إلى تأمل وتثبت، فإنه قد يظهر وجه الارتباط تارة، ويخفى تارة أخرى، وقد ضرب الإمام الزركشي أمثلة على ما يشكل فيه وجه الارتباط، وأجاب على ذلك في البرهان[1].

وإن لم تكن معطوفة : فلابد من دعامة تؤذن باتصال الكلام وهي قرائن معنوية تؤذن بالربط، وله أسباب:

أحدها : التنظير، فإن إلحاق النظير بالنظير من شأن العقلاء، كقوله تعالى ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ عقب قوله ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ﴾[2]، فإنه تعالى أمر رسوله أن يمضى لأمره في الغنائم على كره من أصحابه، كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير أو للقتال وهم له كارهون، والقصد أن كراهتهم لما فعله من قسمة الغنائم ككراهتهم للخروج، وقد تبين في الخروج الخير والظفر والنصر والغنيمة، وعزّ الإسلام، فكذا يكون فيما فعله في القسمة، فليطيعوا ما أمروا به ويتركوا هوى أنفسهم.

---

(١) انظر البرهان. جـ١، ص ٤١ ـ ٤٦.

(٢) سورة الأنفال. الآية (٤ ـ ٥).

الثاني : المضادة، كقوله تعالى في سورة البقرة ﴿إنَّ الذين كفروا سواء عليهم﴾إلخ. الآية، فإن أول السورة كان حديثاً عن القرآن وأن من شأنه الهداية للقوم الموصوفين بالإيمان، فلما أكمل وصف المؤمنين عقّب بحديث الكافرين، فبينهما جامع وهميٌّ بالتضاد من هذا الوجه؛ وحكمته التشويق والثبوت على الأول، كما قيل: وبضدها تتميز الأشياء.

الثالث : الاستطراد : وهو أن تمر بذكر الأمر الذى استطردت إليه مروراً خاطفاً، ثم تتركه وتعود إلى ما كنت فيه، كأنك لم تقصده، وإنما عرض عَرضاً.

ـــ ومن أمثلة الاستطراد قوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾[1]

قال الزمخشري: هذه الآية واردة على سبيل الاستطراد، عقب ذكر بدوّ السوّءات وخصف الورق عليها، إظهاراً للمنة فيما خلق الله من اللباس، ولما في العُرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة، وإشعاراً بأن الستر باب عظيم من أبواب التقوى.[2].

رابعاً : حسن التخلص: وهو أن ينتقل مما ابتدئ به الكلام إلى المقصود على وجه سهل يختلسه اختلاساً دقيق المعنى، بحيث لايشعر السامع بالانتقال من المعنى الأول إلا وقد وقع عليه الثاني لشدة الالتئام بينهما .. واعلم أنّه حيث قصد التخلص فلابد من التوطئة له، ومن بديع ذلك قوله تعالى ﴿ نَحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ أَحۡسَنَ ٱلۡقَصَصِ ﴾[3] يشير إلى قصة يوسف عليه السلام، فوطّأ بهذه الجملة إلى

---

(١) سورة الأعراف الآية (٢٦).
(٢) تفسير الكشّاف. للزمخشري. جـ٢، ص ٧٤.
(٣) سورة يوسف الآية (٣).

ذكر القصة .. وكقوله سبحانه موطئاً إلى ذكر مبتدأ خلق المسيح عليه السلام: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا ﴾[1] الآية.

ومن أحسن أمثلة التخلص، قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾[2]، فإن في هذه الآية خمس تخلّصات كما ذكرها الزركشي في البرهان[3] وهي: أنّه جاء بصفة النور وتمثيله، ثم تخلّص منه إلى ذكر الزجاجة وصفاتها، ثم رجع إلى ذكر الزيّت يستمدّ منه، ثم تخلّص من ذلك إلى ذكر الشجرة ثم تخلّص من ذكرها إلى صفة الزيت ثم تخلّص من صفة الزيّت إلى صفة النور وتضاعفه ثم تخلّص منه إلى نعيم الله بالهدى على من يشاء.

ــ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ الآية فإنّه سبحانه ذكر أولاً عذاب الكفار وأن لا دافع له من الله ثم تخلّص إلى قوله: تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ ﴾[4] بوصف ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ .

ــ ومنه قوله تعالى: ﴿واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ماتعبدون﴾ إلى قوله ﴿ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[5] فهذا تخلّص من قصة إبراهيم عليه

---

(١) سورة آل عمران الآية (٣٣).

(٢) سورة النور الآية (٣٥).

(٣) البرهان. جـ١، ص ٤٣.

(٤) سورة المعارج الآية (١ ــ ٤).

(٥) سورة الشعراء الآية من (٦٩ ــ ١٠٢).

السلام وقومه إلى قوله هكذا، وتمنّى الكفار في الدار الآخرة الرجوع إلى الدنيا ليؤمنوا بالرسل، وهذا تخلّص عجيب، كما قاله الزركشي في البرهان.

ـ هذه لمحات عن تناسب الآيات، تم استخلاصها من مصادر متعددة[1]، ومنها البرهان للزركشي، والإتقان للسيوطي، وتناسق الدرر للسيوطي أيضاً، مع التمحيص والترتيب والإضافات في بعض المواضع.

(١) انظر: البرهان للزركشي. جـ١، ص ٣٥ ـ ٥٠، والإتقان للسيوطي. جـ٣، ص ٣٢٣ ـ ٣٣٤.

المبحث الثالث:

دلالات التناسب على الأحكام

لم أرَ من بحث في هذا الموضوع بحثا مفصلاً فيما اطلعت عليه حتى الآن وإنما تعرف هذه الدلالات من خلال التأمل في سور القرآن وآياته وما بينها من التناسب الدال على الأحكام.

فلو أخذنا مثلاً آيات الطلاق في سورة [البقرة] لوجدنا عجباً في تناسب الآيات وترتيب ما ينشأ عن الطلاق من أحوال وقضايا ومشكلات حيث عالجتها آيات السورة علاجاً حكيماً بما شرّع الله فيها من أحكام، وسنَّ من سنن التعامل بالمعروف وعدم نسيان الفضل بين الزوجين والأصهار، فإذا وقع الطلاق ترتبت عليه العدة في أحوال مختلفة وذلك لاستبراء الرحم، وأُعطى الزوج فرصةً فيما دون الطلقات الثلاث للمراجعة في مدة العدة من غير مضارة للزوجة، وبينتْ أحكام كثيرة تتعلق بالمهر، وافتداء الزوجة نفسها بشيىء من المال مقابل فسخ النكاح في حالة الاختلاف،.

ــ وتناولت الآيات طلاق الثلاث وما يترتب عليه من أحكام، وقيود، وأوصت الآيات بالإمساك بالمعروف أو التسريح بإحسان، ونهت عن ظلم النساء في صوره المختلفة، الذي ينتهجه كثير من الأزواج أو الأولياء، ثم بينتْ أحكام الرضاعة والحقوق المتعلّقة بذلك لكل من الزوجيّن وعلى كل منهما، وحقوق الطفل ووجوب الرعاية وعدم المضارة، وبينّت السورة أحكاماً عامة في العدل والتراحم والنفقة بالمعروف، وأحكاماً محددة في العدة والمهر، وأنواع الطلاق، وغير ذلك مما يتعلق بالعلاقات الزوجيّة بداية ومعاشرة ونهاية، وإن شئت فارجع إلى الآيات في سورة

البقرة ـ من الآية (٢٢٦) إلى الآية (٢٤٢) تجد التناسب المحكم في سياق الآيات، وتجد الاستيعاب لما يتعلق بالعلاقة الزوجية من أحكام في حالة الوفاق أو الفراق، وما يتفرع عن الطلاق من خصومات وحقوق وواجبات، سواءبين الزوجين أو أولادهما، أو الأولياء والأصهار، وقد ختم الله تعالى تلك الآيات بقوله ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1] إشارة إلى بيان جميع الأحكام التي يحتاجون إليها، واستخدام العقل والفكر فيما ينشأ من خلافات في العلاقات الزوجيّة وتقديم العقل على العواطف والانفعالات النفسية والنزغات الشيطانية، وعدم نسيان الفضل، والتراحم بين الزوجين والأصهار ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾[2].

ـ ولو أخذنا مثالاً آخر من سورة النساء، ولتكن آيات المواريث لوجدنا تناسقاً محكماً بين هذه الآيات، وقد ارتبطت بهذا التناسق أحكام المواريث بشروطها، ومقاديرها، فقد بدأت الآيات القرآنية بتقرير المبدأ العام، والتصدير بذكر أركان الإرث: وهي الوارث والمورِّث، والمال الموروث، ويظهر هذا من الآية الأولى وهي قوله تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾[3] فقد جاءت هذه الآية بصيغة العموم والشمول للرجال والنساء لتقرير حق المرأة في الميراث، وإبطال ما كان أهل الجاهلية يفعلونه من ظلم النساء في الميراث، واستئثار الرجال به في معظم الحالات.

ـ فالآية الكريمة ترسم الأسس العامة للمواريث في صورة مجملة ثم تأتي

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٤٢).

(٢) سورة البقرة الآية (٢٣٧).

(٣) سورة النساء الآية (٧).

الآيات الأخرى بعد ذلك بالتفصيل والتصنيف لأنواع الوارثين والمورثين من الرجال والنساء، آباءً كانوا، أم أبناءً أم إخوانا أم أعماماً، ومن جاء عن طريق هذه الجهات، أو نساءً، أمهات، أو زوجاتٍ، أو بناتٍ، أو أخواتٍ، ومن اتصل عن طريق هذه الجهات، حسب ما هو مقرر في أحكام المواريث.

ـــ وقد تحدثت آيات المواريث عن المورّثين والوارثين، ومقادير إرثهم وشروطها، في بيان واضح لا لبس فيه ولا غموض، وقد دلنا هذا التناسب المحكم بين آيات المواريث، على أحكام متعددة لموضوع واحد، جاء مجملاً في آية واحدة، شاملة لأركان ذلك الموضوع في بيان مدهش! كيف شملت الآية جميع الوارثين ذكوراً وإناثاً، وشملت كذلك جميع المورّثين ذكوراً وإناثاً، وشملت كذلك التركة، قليلة كانت أو كثيرة، وهي المال الموروث، وجعلت تلك الأنصباء فريضةً حتمية عند اكتمال شروطها وخلوّها من الموانع الشرعيّة!.

ـــ وهذا التعميم والإجمال في الآية الأولى من آيات المواريث، من بلاغة القرآن المعجز، فإن الإجمال والشمول مما يهيىء نفسيّة السامع، ويجعله يتطلع للتفاصيل والبيان، وبخاصة إذا كان الموضوع متعلقاً بما جبلت عليه النفوس من حب المال ومعرفة أحكامه وقضاياه ..، ولم يدم طويلاً تشوّف القارئ فقد أعقب الله تعالى هذا الإجمال في المواريث بالتفصيل الشافى الكافى مباشرة، وإن شئت فاقرأ الآيات في سورة النساء، من آية (٧) إلى آية (١٢).

ـــ إن المتأمل في سورة النساء يجد عجباً، حيث افتتح الله السورة بذكر هذه الرابطة الأسريّة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾[١].

(١) سورة النساء الآية (١).

فذكر في هذه الآية الرجال والنساء والأرحام، وهم الأقربون، وذكر في أول آيات المواريث من هذه السورة الرجال والنساء، والأصول المورِّثة، والأقربين، وهم الأولاد والحواشي وبقية الأرحام، ثم ختم السورة بذكر بعض الوارثين ومقادير إرثهم فقال تعالى: ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٧٦) ﴾[١].

ـــ فانظر هذه المناسبة العجيبة، كيف تحدّثت آيات المواريث عن الرجال والنساء، وقد مهّد أوّل السورة بذكر الرجال والنساء معاً، ثم ختمت السورة بذكر الرجال والنساء أيضاً.

ـــ ولو ذهبنا نتتبع آيات القرآن الكريم وما بينها من التناسب والدلالة على الأحكام، للزمنا الوقوف عند كل آية من كتاب الله تعالى، فإنها لم توضع في مكانها عبثاً ولا مصادفة، بل وضعت عن علم ودراية من لدن حكيم خبير.

ـــ ومن دلالة التناسب على الأحكام: التفصيل بعد الإجمال كما تقدّم، وكما في أول سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾[٢] فالمستثنى في قوله ﴿ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ مجمل لايعرف تفصيله، حتى جاء التفصيل والبيان في الآية التالية من هذه السورة بقوله تعالى: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ

(١) سورة النساء الآية (١٧٦).

(٢) سورة المائدة الآية (١).

﴿وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ﴾[1] الآية، وهذا من دلالة التناسب على الأحكام في السورة الواحدة.

ـ ومن أمثلة التقييد بعد الإطلاق. قوله تعالى في الآية السابقة ﴿حرّمت عليكم الميتة والدم﴾إلخ، فإن [الدم] في هذه الآية مطلق، وظاهر الآية يقتضى تحريم الدّم قليله وكثيره، وقد جاء تقيد هذا الإطلاق في السورة التي تليها وهي سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾[2] فاستقر الحكم الشرعي ببناء المطلق على المقيّد، فيكون المحرّم من الدم، هو الدم المسفوح الخارج من الأوردة ونحوها، فأما الدم الخفيف الذي يختلط باللحم بعد الذبح، والحمرة التي تعلو القدر، ونحو ذلك، فهو من المعفوّ عنه، كما روى أبو مجلز وعائشة وغيرهما.، ونقل القرطبى إجماع العلماء على ذلك[3].

ـ وهذا مثال على التناسب بين سورة وأخرى، مع دلالة هذا التناسب على الحكم، وذلك بتقييد المطلق كما أشرنا إليه آنفاً.

ـ وهناك أمثلة كثيرة لدلالة التناسب على الأحكام، كآيات الربا، وآيات المحرّمات، وغير ذلك مما لايتسع له هذا المقام.

---

(١) سورة المائدة الآية (٣).

(٢) سورة الأنعام الآية الآية (١٤٥).

(٣) تفسير القرطبى . جـ٧، ص ١٢٤ .

الفصل الرابع

الوحدة الموضوعية في سورة القرآن

الوحدة الموضوعية للسورة، لاتعنى أن السورة موضوع واحد مستقل فهي ليست فصلاً في باب، أو مبحثا في كتاب، فهناك فارق كبير بين طريقة القرآن الكريم، وطريقة التأليف عند الناس، القرآن الكريم كتاب هداية يسلك إلى النفوس طريقها ويتخولها بالموعظة الحسنة بين الحين والآخر، وإنما المراد بالوحدة الموضوعية: أنَّ لكل سورة موضوعاً أو موضوعات غالبةً عليها، وسمات بارزة فيها، فقد تتعدد موضوعاتها، ولكن هناك وشائج تربط بين هذه الموضوعات، وهناك روح يسرى فيما تثيره السورة من أحكام ومبادىء، وما تذكره من قصص ومشاهد، فالسورة كالسوار، تحيط بموضوعاتها إحاطة السوار بالمعصم أو إحاطة السور بالمدينة، فقد ظهرت الوحدة والترابط بين أجزاء السورة الواحدة من جانب، وبين أجزائها ووحدتها الموضوعية الشاملة مع السور الأخرى من جانب آخر، فحصلت بذلك الوحدة الموضوعية الكبرى للقرآن الكريم، بمعنى التناسق والترابط وتصديق بعضه بعضاً ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾[1].

ــ وبهذا يظهر في كل سورة من القرآن الكريم تناسق أوضاعها، وائتلاف عناصرها، وأخذ بعضها بحجز بعض، حتى أنها لتنتظم منها وحدة محكمة لاانفصام لها.

ــ ويذكر الدكتور : محمد عبد الله دراز، في كتاب (مدخل إلى القرآن الكريم)

---

(١) سوره الزمر الآية (٢٣).

أن السورة من القرآن تتكون من ديباجة وموضوع وخاتمة، فقد قام بدراسة بعض السور، وكان يبحث عمّا إذا كان هناك نوع من الترابط في الأفكار التي تتناولها السورة الواحدة، فقال: ﴿ولقد وضح لنا بما أثار دهشتنا أن هناك تخطيطاً حقيقياً واضحاً ومحدداً يتكون من ديباجة وموضوع وخاتمة، فتوضح الآيات الافتتاحية الأولى من السورة، الموضوع الذي ستعالجه في خطوطه الرئيسية، ثم يتبع ذلك بالتدرج في عرض الموضوع بنظام لايتداخل فيه جزء آخر، إنما يحتل كل جزء المكان المناسب له في جملة السورة، وأخيراً تأتى الخاتمة التي تقابل الديباجة)[1].. ويقول في كتابه (النبأ العظيم) عن وحدة النظم القرآني .. «فأقبل بنفسك على تدّبر هذا النظم الكريم لتعرف بأى يد وضع بنيانه؟ وعلى أي عين صنع نظامه؟ حتى كان كما وصفه الله ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ ﴾[2] إعمد إلى سورة من تلك السور التي تناولت أكثر من معنى واحد، وما أكثرها في القرآن — فهى جمهرته — وتنقّل بفكرتك معها مرحلة مرحلة، ثم ارجع البصر كرّتين، كيف بدأت؟ وكيف ختمت؟ وكيف تقابلت أوضاعها وتعادلت؟ وكيف تلاقت أركانها وتعانقت؟ وكيف ازدوجت مقدماتها بنتائجها، ووطأت أولاها لأخرها؟. وأنا لك زعيم بأنّك لن تجد البتة في نظام معانيها أو مبانيها، ما تعرف به أكانت هذه السورة قد نزلت في نجم واحد أم في نجوم شتّى، ولسوف تحسب أن السبع الطوال من سور القرآن قد نزلت كل واحدة منها دفعة، حتى يحدّثك التأريخ أنها كلها أوجلّها قد نزلت نجوماً[3].

— واعلم أن دراسة الوحدة الموضوعية للسورة محاولة قديمة عند بعض العلماء

---

(١) مدخل إلى القرآن الكريم ص ١١٩.

(٢) سورة الزمر الآية (٢٨.

(٣) النبأ العظيم .. ص ١٤٨ — ١٤٩.

القدامى، ولكن يبدو أن الإمام «ابن القيِّم» رائد في هذا المجال ويتضح ذلك من خلال تفسيره المعروف [بالتفسير القيَّم] الذى جمعه العلّامة [محمد أويس الندوى]، ومن خلال الدراسة التي قدّمها الأستاذ [محمد أحمد السنباطى] عن منهج (ابن القيِّم) في التفسير، وهي دراسة عميقة جيدة، ذكر فيها الأساس الأوّل لمنهج بن القيم في تفسيره، بأنه يتمثل في إبراز الوحدة الموضوعية المتكاملة للسورة القرآنية، تلك الوحدة التي تربط أركان السورة بعضها ببعض، لتخدم الأهداف التي أنزلت من أجلها، والتى يمكن أن تكون أساساً لفهم آياتها، ويقول السنباطى: (ويعتبر ابن القيّم في هذا المجال رائداً للمدرسة الحديثة التى تهتم بأن تقدم أمام تفسير السورة الإطار العام للأهداف السامية التي جاءت السورة لتعالجها، وتمثل الروح الذى يسرى في كيان السورة، فيربط بين أجزائها، ويجعل كل جزء منها خادماً للآخر ومخدوماً منه، في سبيل تحقيق الرسالة العظمى التي قُصد من السورة أن تؤديها) ثم قال: «وابن القيّم في ذلك مبتكر لا متّبع، ومجدد لامقلّد، ويميل السنباطى إلى أن ابن القيِّم في التفسير أكثر دقّة وتنظيماً من أستاذه «ابن تيمية» فهو يعرض أفكاره بصورة مبتكرة جذابة جعلته رائداً لمدرسةٍ مازالت تعيش بين ظهرانينا، تلامذتها من كبار الأئمة والعلماء[1].

كما يرى السنباطى أن حركة التفسير في العصر الحديث قد تأثرت بمدرسة ابن القيِّم، ويرى أن من رجال هذه المدرسة التفسيرية الأستاذ الإمام (محمد عبده)، وتلميذه الشيخ (محمد رشيد رضا) والشيخ (محمود شلتوت)، والشيخ (محمد محمد المدنى)، والدكتور (محمد عبد الله دراز)، وهذا من مصر وحدها، أما من تأثر به خارج مصر فمنهم (أبو الأعلى المودودى) في تفسيره لسورة النور، وغيرهم من العلماء.

---

(١) منهج ابن القيِّم في التفسير من ص ٨٤ ــ ١١٥.

= وقد تعنى الوحدة الموضوعية الأهداف والمقاصد للسورة، فقد اشتملت كل سورة من سور القرآن على غرض أو أغراض متنوعة وبينها من الترابط والتناسق ما يعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا .. وسنتحدث عن الوحدة الموضوعية للسورة من خلال السور التالية، كنماذج لهذه الدراسة.

١ ــ سورة البقرة :

ــ سمّيت السورة بذلك لاشتمالها على قصة البقرة، وذلك أنه قُتِلَ قتيل في بنى إسرائيل ولم يُعلم قاتله، فذهب القوم إلى موسى عليه السلام يطلبون منه بيان القاتل، فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة، وأن يضربوا القتيل بجزء منها فتُرّد إليه الحياة، ويقوم ويقول قتلنى فلان(١) ثم يعود ميتاً، قال الله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾(٢).

ــ وسورة البقرة مدنيّة : وهي أول سورة نزلت بعد هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، وهي من أجمع سور القرآن الكريم، فقد احتوت على أصل العقيدة وعلى كثير من أدلة التوحيد، كما ذكرت مبدأ خلق الإنسان، واشتملت على معظم أحكام التشريعات عبادات ومعاملات.

ــ وقد ذكر بعض العلماء غرضين أساسيين لسورة البقرة:

ــ **الغرض الأول** : استدعاه جِوارُ المسلمين لأهل الكتاب في المدينة، فقد صار للمسلمين جوار في المدينة غير جوارهم للمشركين في مكة.

---

(١) انظر القصة في تفسير بن جرير الطبرى. جـ٢ ص ١٢٨ ــ ١٣٢، وغيره من التفاسير.
(٢) سورة البقرة الآية (٧٣).

ــ **الغرض الثاني** : أن المسلمين تركزوا جماعة مستقلة لأول دخولهم المدينة فبنى النبي ﷺ مسجده للصلاة والتعليم والتشاور والتحاكم، وآخى بين المهاجرين والأنصار فصاروا جبهة واحدة، تحتاج إلى تشريع تنظم به شئونها.

ــ وبهذين الأمرين نجد أن السورة تهدف في جملتها إلى هذين الغرضين:

* **الغرض الأول** : توجيه الدعوة إلى بنى إسرائيل ومناقشتهم فيما كانوا يثيرونه حول الرسالة المحمدّية من تشكيك وشبه، وفي سبيل ذلك أخذت تذكّرهم بنعم الله على أسلافهم، وبما انتاب هؤلاء الأسلاف حينما التوت عقولهم عن تلقى دعوة الحق من أنبيائهم السابقين، وارتكبوا من صنوف العناد والتكذيب والمخالفة، واقرأ في ذلك من قوله تعالى في السورة ﴿يَـٰبَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّـٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾[1] إلى آخر آية البرِّ في منتصف السورة تقريباً ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ﴾[2] إلخ.

ــ هذا هو الغرض الأوّل الذي استدعاه جوار المسلمين لأهل الكتاب

* **أما الغرض الثاني** : فهو التشريع الذى اقتضاه تكوين المسلمين جماعة متميزة على غيرها في عبادتها ومعاملاتها وعاداتها.

ــ وقد ذكرت السورة من ذلك، القصاص في القتل العمد العدوان، وذكرت الصيام، والوصيّة، والاعتكاف، والتحذير من أكل أموال الناس بالباطل، وذكرت الأهلّة، وأنها جعلت ليعتمد الناس عليها في معرفة أوقات العبادة والزراعة وغيرها،

---

(١) سورة البقرة الآية (٤٠).

(٢) سورة البقرة الآية (١٧٧).

وذكرت الحج والعمرة، وذكرت القتال وسببه الذي يدعو إليه، وغايته التي ينتهي إليها، وذكرت الخمر والميسر واليتامى وحكم مصاهرة المشركين وذكرت حيض النساء والتطهّر منه، والطلاق والعدّة والخلع والرضاع، وذكرت الأيمان، وذكرت الإنفاق في سبيل الله، والربا والبيع، وذكرت طرق الاستيثاق في الديون بالكتابة، والاستشهاد والرهن.

ـــ وبدأ السياق من قوله تعالى بعد آية البر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾(١) إلى قبيل آخر السورة، وكان يتخلل كل ذلك ـــ على طريقة القرآن ـــ مايدعو المؤمنين إلى التزام هذه الأحكام، وعدم الاعتداء فيها، من قصص ووعد ووعيد، وإرشاد إلى سنن الله في الكون والجماعات ثم تختتم ببيان عقيدة المؤمن على نحو ما بدأت به في بيان أوصاف المتقين ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾(٢).

ـــ وبذلك يؤكد آخرها أولها، ويؤسس أولها لآخرها، وتصير السورة كتلة واحدة، لينتفع المسلمون الذين يهتدون بالكتاب بأحد غرضيها في معاملة من يخالطون من أهل الملل الأخرى، وينتفعون بالغرض الآخر في تنظيم أحوالهم من عبادة ومعاملة.

ـــ ويأتي الغرضان في آية البر مجملين «ليس» و «لكن» فتنفي «ليس» أن يكون البر شيئاً مما درج عليه الحرفيون أصحاب المظاهر الجوفاء، الذين يتمسكون بمثل تولية الوجوه قِبل المشرق والمغرب، وتثبت «لكن» أصول الإيمان الحق والعمل

---

(١) سورة البقرة الاية (١٧٨).

(٢) سورة البقرة الآية (٢٨٥).

الصالح على أنها هي البر الصحيح والواقع العملي للتقوى والمتقين ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾[1].

— ثم يكون الختام الأخير تعليم المؤمنين دعاءً من شأنه أن يغرس في نفوسهم سنة الله في التشريع لهم، وبناء أحكامه وتكاليفه على اليسر والوسع ودفع الحرج، ومن شأنه متى أخلصوا فيه أن يأخذ بأيديهم إلى حياة سعيدة سهلة ميّسرة وييسر لهم وسائل المغفرة والنصرة[2] ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[3].

— ومن لطائف ما رأيت في الوحدة الموضوعيّة لسورة البقرة، ما أورده الدكتور/ محمد عبد الله دراز، في كتابه (النبأ العظيم) فقد جاء فيه مايلي: إعلم أن هذه السورة على طولها تتألف وحدتها من : مقدمة، وأربعة مقاصد، وخاتمة، على هذا الترتيب:

= **المقدمة** : في التعريف بشأن هذا القرآن، وبيان أن ما فيه من الهداية قد بلغ

---

(١) سورة البقرة الآية (١٧٧).

(٢) انظر : بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروز آبادى جـ١، ص ١٣٤ — ١٣٥ (تناسق الدرر) للسيوطى ص ٨٠، وتفسير القرآن الكريم . لمحمود شلتوت ص ٥١ — ٥٣.

(٣) سورة البقرة الآية (٢٨٦).

حداً من الوضوح لايتردد فيه ذو قلب سليم، وإنما يعرض عنه من لا قلب له، أو كان في قلبه مرض.

= **المقصـد الأول** : دعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام.

= **المقصـد الثاني** : دعوة أهل الكتاب دعوة خاصة إلى ترك باطلهم، والدخول في هذا الدين الحق.

= **المقصـد الثالث** : في عرض شرائع هذا الدين تفصيلاً.

= **المقصـد الرابع** : ذكر الوازع والنازع الدينى الذي يبعث على ملازمة تلك الشرائع ويعصم عن مخالفتها.

الخـاتمة : في التعريف بالذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد، وبيان ما يرجى لهم في آجلهم وعاجلهم(١).

ـــ ثم بدأ الدكتور دراز في تفصيل ذلك في بيان واضح، وأسلوب أخّاذ.

٢ ـــ سورة آل عمـران :ـــ

= سبب تسميتها بذلك :

ـــ تسمى السورة من القرآن بأغرب مايذكر فيها، فسورة البقرة سميت بهذا الاسم لقصة عجيبة الشأن، ذكرت فيها البقرة التي أُمِر بنو إسرائيل أن يذبحوها كما

---

(١) النبأ العظيم ص ١٥٨ ـــ ١٥٩.

تقدّم، وسورة المائدة سميت بذلك لقصة المائدة التي طلب الحواريون إنزالها من السماء.

ـــ وقد جاء ذكر (عمران) في هذه السورة مرتين في آيتين متتاليتين : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[1].

فذهب فريق من المفسرين إلى أن (عمران) الذي سميّت السورة بآله والذى ذكر في الآية الأولى، هو [عمران] أبو موسى وهارون عليهما السلام، وليس أبا مريم، وكان بين العمرَانين فيما يقول الرواة أمد طويل، يزيد على ألف سنة.

ـــ وقد أشار إلى هذا القول (ابن الجوزى) في (زاد المسير)[2] ونسبه إلى مقاتل، ومال إلى هذا القول (الفيروز أبادى) في كتابه (بصائر ذوى التمييز)[3]، كما مال إليه ابن جرير الطبرى تلميحاً لا تصريحاً[4].

ـــ وذهب الفريق الآخر من المفسرين إلى أن [عمران] الذى سميّت السورة بآله، وذكر في الآية الأولى، هو [عمران] المذكور في الآية الثانية، وهو أبو مريم، وليس أبا موسى وهارون عليهما السلام.

---

(١) سورة آل عمران. الآية (٣٣ ـــ ٣٥).
(٢) زاد المسير. ص ٣٧٥ ـــ ٣٧٦.
(٣) بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز. جـ١، ص ١٥٨.
(٤) تفسير الطبرى. جـ٦، ص ٣٣٨.

ـــ وقد أشار إلى هذا القول (ابن الجوزى) ونسبه إلى الحسن وبه قال الحافظ بن كثير في تفسيره، حيث قال: «وآل عمران، والمراد بعمران هذا هو والد مريم بنت عمران أم عيسى بن مريم عليه السلام»(١).

ـــ والذى يقوى هذا القول: أن السورة من أولها إلى آخرها لانجد فيها شيئاً غريباً أو هاماً، يتعلق بخصوص موسى وهارون عليهما السلام، ولكن أبرز ما فيها وأغرب شئونها هو ما عنيت بتفصيله من شأن عيسى وأمه، فالسورة تذكر طبقات من اصطفاهم الله من آدم ونوح وآل إبراهيم وآل عمران، لتبيّن للقوم من أول الأمر أنَّ اصطفاء الله آل عمران من عيسى وأمه، ليس إلا كاصطفائه لغيرهما ممن اصطفى، وأنَّ ما ظهر على يد عيسى عليه السلام من خوارق العادات التي يتخذونها دليلاً على ألوهيته أو بنوته أو حلول الله فيه، لم يكن إلا أثراً من آثار التكريم الذى جرت به سنّة الله فيمن يصطفى من الأنبياء والمرسلين(٢).

ـــ وسورة (آل عمران) مدنيّة باتفاق جميع المفسرين(٣).

ـــ وقد اشتملت السورة على ركنين هاميّن من أركان الدين هما:
أولاً : ركن العقيدة الإسلامية، والدلائل والبراهين على وحدانية الله رب العالمين.

ثانياً : ركن التشريع الإسلامي وبخاصة فيما يتعلّق بالمغازى والجهاد في سبيل الله.

---

(١) تفسير ابن كثير. جـ١، ص ٣٥٨.
(٢) انظر : تفسير القرآن الكريم . للشيخ : محمود شلتوت ص ٩١.
(٣) بصائر ذوى التمييز. جـ١، ص ١٥٨.

ـ ومن المقاصد والأهداف العامة للسورة مايلي :

١ ـ تقرير الحق في قضية العالم الكبرى وهي مسألة الألوهية وإنزال الكتب وما يتعلق بها من أمر الوحي والرسالة وبيان وحدة الدين عند الله، وذلك في الآيات الأولى من السورة.

ـ وإذا كانت سورة البقرة قد تناولت الحديث عن الزمرة الأولى من أهل الكتاب وهم «اليهود» فإن سورة «آل عمران» قد تناولت الزمرة الثانية من أهل الكتاب وهم (النصارىٰ) الذين جادلوا رسول الله ﷺ في شأن المسيح وزعموا ألوهيته، وكذبوا القرآن، وجحدوا برسالة محمد ﷺ.

ـ وقد ذكر أهل التفسير، أن صدراً من سورة آل عمران نزل في وفد (نصارىٰ نجران) قدموا على النبي ﷺ في ستين راكباً، فيهم العاقب والسيد، فخاصموه في عيسىٰ، فقالوا: إن لم يكن ولد الله، فمن أبوه؟ فنزلت فيهم سورة [آل عمران] في بضع وثمانين آية منها[1].

٢ ـ تقرير العلة التي من أجلها ينصرف الناس في كل زمان ومكان عن التوجه إلى معرفة الحق والعمل على إدراكه والتمسك به، وقد بيّنت أنَّ هذه العلة هي غرور الناس بمالهم من أموال وجاه وسلطان، قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ﴾[2].

---

(١) انظر : زاد المسير. لابن الجوزى. جـ١، ص ٣٤٩.
(٢) سورة آل عمران الآية (١٤).

٣ ــ في النصف الثاني من السورة نجد دروساً مستفيضة عن أسرار النصر في غزوة أُحد قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾(١).

٤ ــ كانت السورة بلسماً شافياً يأسو جراح المسلمين في غزوة أحد، فتحدثت عن الابتلاء والاختبار، وذكرت فضل الشهداء وعاقبة الصابرين الأوفياء(٢)، وذلك من الآية(١٢١) إلى آخر السورة، حيث يقول الله سبحانه في الآية الأخيرة من السورة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾(٣).

واختتام السورة بهذه الآية مناسب لجوّ السورة وموضوعاتها، وقد جاءت النصوص في مواضعها من السياق متناسقة فيما بينها، متكاملة، لقد نزلت في معمعان المعركة، معركة العقيدة، ومعركة الميدان، المعركة في داخل النفوس والمعركة في واقع الحياة.

ــ وقد تضّمنت ذلك الرصيد الحيّ العجيب، من الحركة والتأثير والإيحاء(٤).

ــ افتتحت هذه السورة بتقرير التوحيد، وإثبات الرسالة، واشتملت على رسم المعالم والأطر الصحيحة لكثير من أصول العقيدة، والشريعة، وختمت بالنّداء والتوجيه لجماعة المؤمنين لتحمّل مسئولية الصبر والمصابرة والمرابطة في سبيل الله، كما

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٣٩).

(٢) التفسير بين الماضى والحاضر. د. عبد الله شحاته ص ٥٩ بتصرّف.

(٣) سورة آل عمران الآية (٢٠٠).

(٤) في ظلال القرآن. لسيد قطب. بتصرّف.

اختتمت بالأمر بتقوى الله لتربية المهابة في نفوس المؤمنين، ودفعهم للعمل بمنهج الله، فإن التقوى من أسباب الفلاح في الدنيا والآخرة.

٣ ــ سورة النساء :ــ (مدنيّة بإجماع القرّاء)[١].

ــ سميت بسورة النساء لكثرة ما ورد فيها من الأحكام التي تتعلّق بهن، بدرجة لم توجد في غيرها من السور، ولذا أطلق عليها (سورة النساء الكبرى) في مقابلة (سورة النساء الصغرى) التي عرفت في القرآن (بسورة الطلاق).

ــ ولم تكن هاتان السورتان فقط هما كل ماعرض فيه القرآن لشأن النساء، بل عرض لهن في أكثر من عشر سور، وإن لم تُسمَ بهذا الاسم، عرض لهن في:ــ

١ ــ **سورة البقرة** : وتناول : النكاح، والطلاق، والعدة، والرضاعة، والحيض وغير ذلك.

٢ ــ **وفي سورة المائدة** : بيّن حلّ تزوج المحصنات الكتابيات منهن، وسوّى في حقوق الزوجيّة بينهن وبين المحصنات المؤمنات.

٣ ــ **وفي سورة يوسف** : أخبار امرأة العزيز والنساء الأخريات.

٤ ــ **وفي سورة النور** : تناولت الحدود والآداب العامة وغيرها من أحكام النساء.

---

(١) بصائر ذوى التمييز . جـ١، ص ١٩٦.

٥ ــ **وفي سورة الأحزاب** : ذكرت نساء النبي ﷺ وهنّ أمهات المؤمنين ــ كما ذكرت نساء المؤمنين.

٦ ــ **وفي سورة المجادلة** : قصة (خولة بنت ثعلبة) مع زوجها، (أوس بن الصامت) عندما ظاهر منها وماترتب على ذلك من أحكام الظهار.

٧ ــ **وفي سورة الممتحنة** : بيان حكم النساء المهاجرات من بلاد الأعداء إلى بلاد الإسلام وحقوقهن في البيعة على السمع والطاعة وغير ذلك من الأحكام.

٨ ــ **وفي سورة التحريم** : بيان ماجرى بين زوجات الرسول ﷺ، ويجرى بين الزوجات في كل زمان ومكان، وما ورد في آخر السورة من ضرب المثل للنساء الصالحات والنساء الطالحات.

= أما الحديث عن الوحدة الموضوعية للسورة: فإنّ لكل سورة من سور القرآن شخصيتها الخاصّة، وملامحها المميزةومحورها الذى تشد إليه موضوعاتها جميعاً.

ــ ومن مقتضيات الشخصيّة الخاصّة أن تجتمع الموضوعات في كل سورة وتتناسق حول محورها في نظام خاص بها، تبرز فيه ملامحها، وتتميز به شخصيتها، كالكائن الحىّ المميّز السمات والملامح، وهو ــ مع هذا ــ واحد من جنسه على العموم(١).

ــ وقد عُنيت السورة بتوضيح معالم المجتمع الإسلامي، وتبين الخطوط المكونة لصورته، والمميزة لملامحه وقسماته، على الوجه الذي يسعده، ويرد عنه غوائل الشر،

---

(١) انظر (في ظلال القرآن). للسيد قطب. جـ١، ص ٥٥٥.

وعوامل الفساد. فالبناء والاستقرار الداخلى والخارجى من السمات المميزة التي تناولتها السورة.

ــ والاستقرار الداخلى : أساسه صلاح الأسرة التي هي قاعدة المجتمع وركيزته الأولى، وصلاح المال الذي به قوام الحياة، وصلاح الحكم في ظلٍّ تشريع قوى عادل.

ــ والاستقرار الخارجى : أساسه إحتفاظ الأمة بشخصيتها، والاستعداد لمقاومة الشر الذي يطرأ عليها، والعدو الذي يطمع فيها.

ــ ويمكن أن نجمل أهداف سورة النساء في الأمور التالية :

١ ــ إعلان مبدأ المساواة بين الناس تمهيداً لإقامة المجتمع على أساسه.
٢ ــ بناء الأسرة، والتكافل الاجتماعي وذلك من خلال:
★ تقرير حقوق النساء واليتامى والسفهاء.
★ أحكام الزوجية وما يتصل بها.
★ أحكام المواريث.

٢ ــ أسس المجتمع الإسلامي.
٤ ــ التحذير من أهل النفاق والكفر من الأعداء الذين يتربصون الدوائر بالمؤمنين ويحاربونهم حرباً ماديّة ومعنوية.
٥ ــ إرسال الرسل شأن إلهى، وليس محمدٌ بدعاً من الرسل.
٦ ــ إقامة الحجة على من يزعمون التثليث، وإثبات أن الله تعالى واحد لاشريك له، وأن عيسى عليه السلام عبد الله ورسوله.
٧ ــ الرسالة المحمدية رسالة عامة موجهة إلى الناس أجمعين.

= وقد اشتملت السورة على أنواع كثيرة من التكاليف العامة، وتقرير المبادئ العامة في الاعتقاد والتشريع، والأخلاق.

ـ ومن معالم الوحدة الموضوعية: أنّ الله تعالى أمر في أوّل السورة بالعطف على الأولاد والنساء والأيتام، والرأفة بهم وإيصال حقوقهم إليهم وحفظ أموالهم، وختم السورة بهذا المعنى في قوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾(١).

ـ وفي قوله تعالى: ﴿يبيّن الله لكم أن تضلوا والله بكل شيىء عليم﴾ ختام رائع للسورة ومشتملاتها، صيغة جامعة شاملة، [بكل شيىء] من الميراث وغير الميراث، ومن علاقات الأسر وعلاقات الجماعات، من الأحكام والتشريعات .. فإمّا اتباع بيان الله في كل شيىء، وإما الضلال، طريقان اثنان لحياة الناس لا ثالث لهما: طريق بيان الله. فهو الهدى، وطريق من عداه، فهو الضلال، وصدق الله ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾(٢)، (٣).

٤ ـ سورة المائدة :ـ

ـ وهي مدنيّة بالإجماع، وما يذكره بعض العلماء من أن قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى﴾(٤) هو آية مكية، فلأنها نزلت يوم عرفة في الموقف في حجة الوداع.

(١) سورة النساء الآية (١٧٦).
(٢) سورة يونس الآية (٣٢).
(٣) في ظلال القرآن. جـ٢، ص ٨٢٤ بتصرف.
(٤) سورة المائدة الآية (٣).

ـــ والاصطلاح الصحيح في المكى والمدنى، أن ما نزل قبل الهجرة فهو مكّيّ، سواء نزل في مكة أو في غيرها .. ـــ ومانزل بعد الهجرة فهو مدنّى، سواء نزل في المدينة أو في غيرها، كالآية السابقة.

ـــ وسميّت بالمائدة لاشتمالها على قصة نزول المائدة من السماء وهي السورة الوحيدة التي تحدثت عن هذه المائدة التي طلب فيها الحواريون من عيسىٰ عليه السلام أن يسألها ربه، وذلك في قوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

ـــ وسورة المائدة من أواخر مانزل من القرآن، بعد أن قويت شوكة المسلمين، وارتفع شأنهم، ولذلك لم تتحدث السورة كثيراً عن الشرك والمشركين، وإنما تحدّثت عن أمرين بارزين:

الأول : تشريع ينظم شئون المسلمين في خاصّة أنفسهم وفي معاملة من يخالطون.

االثاني : إرشادات لطرق المحاجّة والمناقشة وبيان الحق في المزاعم التي كان يثيرها أهل الكتاب، مما يتصل بالعقائد والأحكام.

ـــ وجماع هذه السورة يتناول الأحكام التشريعيّة، وفيها بعض الإرشادات إلى عقائد أهل الكتاب المنحرفة.

---

(١) سورة المائدة . الآية (١١٢ ـــ ١١٥).

ــ ومن أبرز المقاصد التي جاءت في السورة:ــ

١ ــ الوفاء بالعقود والمواثيق.

٢ ــ تفصيل أحكام الطعام، وبيان حلاله وحرامه.

٣ ــ تحريم الخمر والميسر.

٤ ــ بيان محظورات الإحرام في الحج.

٥ ــ حدود المحاربين الذين يفسدون في الأرض.

٦ ــ أحكام الأيمان وكفاراتها.

٧ ــ أحكام خاصة بمعاملة أهل الكتاب.، منها: معاملتهم بالعدل والحكم بينهم بالقسط، وإباحة أكل طعامهم، وتزوج نسائهم إلى غير ذلك من الأحكام والمقاصد.

٨ ــ براءة المسيح عليه السلام يوم القيامة ممن جعله إلهاً، وتفويضه الأمر كله لله الحق، فهو سبحانه المتفرّد بالعلم والقدرة والألوهية(١).

= والوحدة الموضوعية لهذه السورة تتمثل في تناسق موضوعاتها المتفرقة، وربطها بأهدافها ومقاصدها السامية، التي من أبرزها هداية الإنسانية، وبيان الطريق الموصل إلى الله تعالى:ــ فإنَّه جل وعلا صاحب الحكم والإرادة النافذة دون حدود، وهو صاحب القدرة المطلقة في خلقه وتدبيره.

ــ وقد اشتملت الآية الأولى من السورة على الإرادة المطلقة فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾(٢)، وختمت السورة بالقدرة الشاملة، والملك العام، فقال تعالى ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرُۢ﴾(٣).

---

(١) انظر: بصائر ذوى التمييز. جـ١، ص ١٧٩، والتفسير بين الماضى والحاضر، للدكتور: عبد الله شحاته، ص ٦١ ــ ٦٢.

(٢) سورة المائدة الآية (١).

(٣) سورة المائدة الآية (١٢٠).

ــ قال (سيّد قطب) ــ رحمه الله ــ في حديثه عن هذه السورة.

«نجد في هذه السورة موضوعات شتي، الرابط بينها جميعاً هو هذا الهدف الأصيل الذي جاء القرآن كله لتحقيقه:ــ إنشاء أمة، وإقامة دولة، وتنظيم مجتمع، على أساس من عقيدة خاصة، وتصور معين، وبناء جديد، الأصل فيه إفراد الله سبحانه بالألوهية والربوبية، والقوامة، والسلطان، وتلقى منهج الحياة وشريعتها، ونظامها وموازينها وقيمها منه وحده بلا شريك»(١).

٥ ــ سورة الأنعـــام :

ــ وهي مكيّة غير بضع آيات، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾(٢) إلى آخر الثلاث آيات منها قال عبد الله بن مسعود (رضى الله عنه): من سرَّه أن ينظر إلى الصحيفة التي عليها خاتم محمد (ﷺ) فليقرأ هؤلاء الآيات ﴿قل تعالوا أتْلُ ما حرّم ربكم عليكم﴾ إل قوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٣) شبَّهت هذه الآيات بالصحيفة التي كتبت ثم ختمتْ فلم يزد فيها ولم ينقص، وهذا يعني أنها من، أواخر ما نزل على النبي ﷺ في المدينة.

ــ وقد روى عن (ابن عباس)، أنها نزلت جملة واحدة بمكة، عدا ست آيات، منها الآيات السابقة(٤).

= **وسميتْ بالأنعام** : لأنها تعرّضت لذكر الأنعام وأنواعها الثمانية: وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ

---

(١) في ظلال القرآن. جـ٢، ص ٨٢٥.

(٢) سورة الأنعام، الآية (١٥١ ــ ١٥٣).

(٣) رواه الترمذى في سننه. جـ٨، ص ٢٣١.

(٤) انظر (زاد المسير) لابن الجوزى جـ٣، ص٤.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾(1).

= ووحدة السورة الموضوعية ومحورها يدور حول [العقيدة] و [أصول الإيمان] ..، وهي تختلف في أهدافها، ومقاصدها وأسلوبها عن السور المدنيّة التي تقدم ذكرها، كسورة البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة.

ــ فسورة الأنعام لم تعرض لشيىء من الأحكام التنظيمية لجماعة المسلمين، كالصيام، والحج، وأمور الجهاد، ومحاربة الخارجين على دعوة الإسلام، كما لم تتحدث عن أهل الكتاب ولا عن المنافقين، وإنما تناولت القضايا الكبرى الأساسية لأصول العقيدة وأركان الإيمان، وهذه القضايا هي:ــ

قضية الألوهية .. وقضية الوحي والرسالة .. وقضية البعث والجزاء.

ــ ومن أجل تقرير هذه الأصول نجد الحديث في هذه السورة واضحاً مستفيضاً، يدور بشدة حول هذه الأصول الأساسية للعقيدة الإسلامية، ونجد سلاحه في ذلك الحجة الدامغة والبراهين القاطعة، والأدلة المقنعة لإرغام الخصم وإلزامه بطريق الحجة والبرهان على صدق ما جاء به القرآن.

ــ ومما يلفت النظر ويثير الانتباه في هذه السورة الكريمة أنها عرضت لأسلوبين بارزين، لانكاد نجدهما بهذه الكثرة في غيرها من سور القرآن الكريم، الأول : أسلوب التقرير، والثاني : أسلوب التلقين.

---

(1) سورة الأنعام الآية (١٤٢ ــ ١٤٤).

أما الأول :ـــ وهو الأسلوب التقريرى، فإن القرآن يعرض للأدلة المتعلقة بتوحيد الله جلّ وعلا، والدلائل المنصوبة على وجود الخالق العظيم، المدبر الحكيم، في صورة الشأن المسلّم، الذى لايقبل الإنكار أو الجدل، وتضع السورة لذلك ضمير الغائب عن الحس، الحاضر في القلب، الذي تدل آياته على وجوده، ومخلوقاته على بديع صنعه، وأفعاله وآثار قدرته، على حكمته وعظيم سلطانه، والتى لايمترى فيه قلب سليم ولا عقل راشد بأنه جلّ وعلا المبدع للكائنات، المدبّر لشئون خلقه، ويأتى بعبارة [هو] المشيرة إلى وحدانيته في ملكه وخلقه، إقرأ قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ﴾[1] ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴾[2] ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾[3] ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾[4] ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾[5]..إلى آخر ماهنالك من أسلوب التقرير.

أما الأسلوب الثاني :ـــ [اسلوب التلقين]، فإنَّه يظهر بوضوح في تلقين الرسول الحجة الدامغة ليقذف بها في وجه الخصم العنيد بحيث تأخذ عليه سمعه، وتملك عليه قلبه، وتحيط به من جميع جوانبه فلايستطيع التفلّت منها.

ـــ ويأتى هذا الأسلوب بطريق السؤال والجواب، ويسأل ثم يجيب ويركّز الجواب.، واستمع إلى قوله تعالى في هذه السورة: ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾[6] ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) سورة الأنعام الآية (٢).
(٢) سورة الأنعام الآية (٣).
(٣) سورة الأنعام الآية (٦٠).
(٤) سورة الأنعام الآية (٦١).
(٥) سورة الأنعام الآية (٧٣).
(٦) سورة الأنعام الآية (١٢).

وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾(١) ﴿ قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ ﴾(٢).

وهكذا تعرض السورة الكريمة لمناقشة المشركين وإفحامهم بالحجج الساطعة، والبراهين القاطعة،.. ومن هنا كانت سورة الأنعام بين السور المكيّة ذات شأن عظيم في تركيز الدعوة الإسلامية، تقرر حقائقها، وتثبت دعائمها، وتفنّد شبه المعارضين لها بطريق التنويع العجيب في المناظرة والإلزام.

يمكن أن نجمل أغراض السورة في النقاط التالية :ـــ

أولاً : توحيد الله تعالى، ويتصل بهذا إقامة الدليل على وحدة الألوهية، بلفت الأنظار إلى آثار الربوبية، وإلى صفات الله، الخالق المتصرّف، كما يتصل بها إبطال عقيدة الشرك، وشبهات المشركين، وتقرير أن العبادة والتوجيه والتحريم إنما ترجع إلى الله تعالى، ونلمح ذلك في أول آية من السورة وهي: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ﴾(٣)

وقد بسط هذا المعنى في الآيات التالية لهذه الآية.

ثانياً : الإيمان برسوله الذي أرسله، وبكتابه الذى أنزله وبيان وظيفة هذا الرسول، قال تعالى: ﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ ﴾(٤).

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٤).

(٢) سورة الأنعام الآية (١٩).

(٣) سورة الأنعام الآية (١).

(٤) سورة الأنعام الآية (١٩).

ثالثاً : إثبات البعث والجزاء لينال المحسن جزاء إحسانه والمسيىء جزاء إساءته، وقد لوّنت السورة أدلتها لإثبات البعث، وصورت مواقف المشركين وما سيكونون عليه في ذلك اليوم، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾(١) إلخ.

رابعاً : ذكرت السورة طرفاً من قصة إبراهيم عليه السلام ومناظرته لقومه لإبطال معبوداتهم، وذلك بالتأمل في ملكوت السموات والأرض، واستدراجهم بالسياسة الجدليّة، ليوقعهم في التسليم ببطلان تلك المعبودات، وقد استقرى معهم النجوم والشمس والقمر التى كانوا يعبدونها من دون الله، وساق لهم الدليل على بطلانها على جهة الإلزام، ثم ختم جداله معهم بالتوجه إلى الله الذى فطر السموات والأرض (٢).

خامساً : اشتمل الربع الأخير من السورة على عشر وصايا وهي: النهى عن قتل الأولاد، وعن الزنا، وعن قتل النفس التى حرّم الله إلا بالحق، ثم أمرت الآيات بالإحسان إلى اليتيم، وإتمام الكيل والميزان، كما أمرت بالعدل والوفاء بالعهد والاستقامة.

ــ وقد بدأت هذه الوصايا بقوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(٣)،(٤).

(١) سورة الأنعام الآية (٢٢). وما بعدها.

(٢) انظر الآيات في سورة الأنعام من (٧٤ : ٨٨).

(٣) سورة الأنعام الآية (١٥١ : ١٥٣).

(٤) انظر: (بصائر ذوى التمييز). جـ١، ص ١٨٧ ــ ١٨٨، و(ظلال القرآن) للسيد قطب، جـ٢، ص ١٠٤، و(تفسير القرآن الكريم) لمحمود شلتوت ص ٣٨٨ ــ ٣٨٩، و(ايجاز البيان) للصابونى ص ٢٤ ــ ٢٥، و(التفسير بين الماضى والحاضر) د. عبد الله شحاته ص ٦٣ ــ ٦٤.

ـــ وقد جاءت هذه الوصايا في آخر السورة بمثابة التخليص والإجمال للأسس والمبادىء التي جاءت في مواضع متفرقة من السورة.

ـــ ومن العرض الحسن، ما أورده (سيّد قطب) في بداية حديثه عن السورة فقد ذكر أن القرآن المكىّ كان يعالج القضيّة الأولى في هذا الدين وهي قضيّة العقيدة ممثلة في قاعدتها الرئيسية: الألوهية والعبودية وما بينهما من علاقة.

ويقول : لقد كان هذا القرآن المكىّ يفسّر للإنسان سرّ وجوده ووجود هذا الكون من حوله، كان يقول له: من هو؟ ومن أين جاء؟ وكيف جاء؟ ولماذا جاء؟ وإلى أين يذهب في نهاية المطاف؟ ومن الذى جاء به من العدم المجهول؟ من ذا الذى يذهب به؟ وما مصيره هناك؟ .. وكان يقول له: ما هذا الوجود الذى يحسه ويراه؟ والذى يحس أن وراءه غيباً ولا يراه؟ ومن أنشأ هذا الوجود المملوء بالأسرار؟.

إلى أن يقول : وكانت هذه هي القضية الكبرى التي يقوم عليها وجود (الإنسان) وستظل هي القضية الكبرى التي يقوم عليها وجوده على توالى الأزمان[1].

٦ ـــ سورة الأعـراف :ـــ نزلت بمكة إجماعاً[2].

وروى عن ابن عباس وقتادة: أنها مكيّة إلا بضع آيات أولها ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ﴾[3] وهي أول سورة طويلة نزلت من القرآن الكريم، وأطول سورة في المكىّ، وهي أول سورة عرضت للتفصيل في قصص الأنبياء مع أممهم.

---

(١) في ظلال القرآن. بتصرف يسير. جـ٢. ص ١٠٠٤.

(٢) بصائر ذوى التمييز. جـ١، ص ٢٠٣.

(٣) سورة الأعراف الآية (١٦٣).

ـــ وقد نزلت بين جملتين من السور المكيّة، يكثر في الجملة التي نزلت قبلها: «السور القصيرة» التي تعرف بسور [المفصّل]، ويكثر في الجملة التي نزلت بعدها: «السور المتوسطة» التي تعرف بسور [المئين].

ـــ **وسميت بالأعراف** : لورود اسم الأعراف فيها، وهو سور مضروب بين الجنَّة والنَّار .. كما قال تعالى: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌ ﴾[1].. قال اللغويون: الأعراف عند العرب: كل ما ارتفع من الأرض وعلا[2]، وعلى الأعراف رجال استوت حسناتهم وسيئاتهم، فلا يزالون عليه حتى يقضى الله فيهم بأمره قال تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَٰهُمْ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴾[3].

ـــ ووحدة السورة الموضوعية، ومحورها الذي تدور عليه: الإنذار بوجوب الإيمان، والبعد عن الكفر والطغيان.

ـــ تبدأ السورة بالإنذار في قوله تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[4] ثم تسلك بهذا المعنى سبلاً شتى، وتتصرف به تصرفات كثيرة وترسم له صوراً متعددة، وتلمس به المشاعر لمسات مختلفة، فتارة يأخذ السياق شكل القصة: قصة آدم مع إبليس، ثم قصص نوح وهود وصالح وشعيب وموسى مع أقوامهم لتنتهى كل قصة بالعذاب والنكال لمن يخالفون أمر الله.

---

(١) سورة الحديد الآية (١٣).
(٢) انظر: زاد المسير. لابن الجوزى. جـ٣. ص ٢٠٤.
(٣) سورة الأعراف الآية (٤٦).
(٤) سورة الأعراف الآية (١).

ـ وتارة يأخذ شكل مشهد من مشاهد القيامة، أو مشاهد الاحتضار، تتكشف فيه مصائر المكذبين المتكبرين، ومصائر الطائعين لرب العالمين.

ـ ومن مقاصد السورة الرئيسية: تقرير أصول العقيدة، بتوحيد الله في العبادة والتشريع، وتقرير البعث والجزاء، وتقرير الوحي والرسالة بوجه عام، وتقرير رسالة محمد ﷺ بوجه خاص، وتلك هي أصول الدعوة الدينية التي كانت لأجلها جميع الرسالات الإلهية[١].

ـ وقد تناولت هذه السورة الكريمة مشهداً حيّاً من مشاهد القيامة، تبدو فيه ألوان جديدة من صور المحاورة والمناظرة وفي هذا المشهد تجرى المحاورة بين فرق ثلاث:ـ

١ ـ **فرقة المؤمنين** : أصحاب الجنّة، أهل الهدى والإيمان.
٢ ـ **الفرقة الثانية** : الكافرون، أصحاب النار، أهل الضلال والبهتان.
٣ ـ **الفرقة الثالثة** : أصحاب الأعراف، الذين استوت حسناتهم وسيئاتهم، فإذا رأوا أصحاب الجنّة طمعوا، وإذا رأوا أصحاب النار فزعوا .. واقرأ ذلك المشهد العظيم في سورة الأعراف من الآيات(٤٤ ـ ٥٠).

٧ ـ سورة الأنفال :

وهي مدنية بالإجماع[٢]، إلا ما روى عن ابن عباس أن سبع آيات منها مكيّات، أولها قوله تعالى ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا﴾ إلخ الآيات (الأنفال ٣٠).

---

(١) (تفسير القرآن الكريم): محمود شلتوت ص ٤٤٨.

(٢) زاد المسير لابن الجوزى جـ٣ ص٣١٦ وبصائر ذوى التمييز للفيروزأبادي جـ١ ص٢٢٢.

وقد عرضت السورة لأول غزوة من غزوات الرسول ﷺ وهي غزوة بدر، وبهذه المناسبة أرشدت إلى ماتستدعيه حالة الحرب من أحكام تتعلق بالقتال نفسه والإعداد له، كما عرضت لأحكام الغنائم والأسرى، وربطت بين المؤمنين على اختلاف ألوانهم بولاية الإيمان، كما ربطت بين الكفار بولاية الكفر، وقطعت بذلك مابين المؤمنين والكفار من موالاة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾(1).

﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ﴾(2).

فالوحدة الموضوعية في هذه السورة واضحة، لأنها جاءت لمعالجة بعض النواحي الحربية التي ظهرت أثر بعض الغزوات، وقد تضمنت كثيراً من التشريعات الحربية والإرشادات التي يجب على المؤمنين اتباعها فيما بينهم بعضهم وبعض، وفيما بينهم وبين المحاربين والمسالمين.

بدأت السورة بالحديث عن الأنفال، وهي الغنائم التى يغنمها المسلمون في جهادهم لإعلاء كلمة الله، ثم استمرت السورة في بيان التشريعات والإرشادات وآثار نعمة الله عليهم بالنصر والتأييد وغير ذلك مما له ارتباط بموضوعات السورة ثم ختمت السورة ببيان الوحدة والترابط بين المؤمنين المجاهدين، وتقوية صلات الرحم لما في ذلك من حفظ المودة والنصر وسلامة المجتمع من التفرق والاختلاف.

فالسورة من أولها إلى آخرها حديث عن الجهاد، وما يلزم جماعة المسلمين من

---

(١) سورة الأنفال الآية (٧٢).
(٢) سورة الأنفال الآية (٧٣).

الاعداد له واتخاذ الوسائل والاحتياطات اللازمة له، وفي مقدمتها إخلاص النية لله تعالى، والصبر، والسمع والطاعة للقيادة وإعداد العدة والثبات في ساحة القتال، والبعد عن التنازع والاختلاف، وعدم الاصغاء للإشاعات والأراجيف التى يبثها الاعداء، وهي ما يعرف اليوم بالحرب النفسية، بل إنها من أخطر الأسلحة لفلّ عزيمة الجيوش المقاتلة، ولهذا استخدمها الرسول ﷺ هو وأصحابه ضد اعدائهم، كما أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله: ﴿تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾[1] وقد نُصر النبي ﷺ بالرعب على عدوّه كما ثبت ذلك في صحيح مسلم وغيره[2].

وقصة أبي دجانة عندما كان يمشي يتبختر بسيفه أمام المشركين فقال ﷺ «إنها لمشية يبغضُها الله إلا في هذا الموطن»[3].

وعند قدومه ﷺ إلى مكة هو وأصحابه في عمرة القضاء سمع أن قريشاً تقول سيأتيكم محمدٌ وأصحابه وقد أنهكتهم حمّى يثرب، فأمر النبي ﷺ أصحابه عند الطواف حول الكعبة أن يحسر كل منهم عن كتفه الأيمن وأن يرملوا في الأشواط الثلاثة الأولى وقال «رحم الله امرءا أراهم اليوم من نفسه قوة»[4].

وقد اشتملت السورة على وصف المؤمنين بخمس صفات كريمة: هي وجل القلوب عند ذكر الله، وزيادة الإيمان عند تلاوة آياته، والتوكل على اللهوحده وإقامة الصلاة، والانفاق مما رزق الله، ثم بين الله تعالى أنهم بهذه الصفات يكون أهل الإيمان حقاً وأن لهم عند الله الدرجات العُلى في الجنة.

---

(١) سورة الأنفال الآية (٦٠).

(٢) صحيح مسلم جـ١ ص٣٧٢.

(٣) السيرة النبوية لابن كثير جـ٣ ص٣٠.

(٤) السيرة النبوية لابن كثير جـ٣ ص٤٣٠.

وقد تصدرت هذه الصفات سورة الأنفال قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾[1].

٨ ـ سورة التوبة :

وهي مدنية بالاجماع[2]، سوى الآيتين اللتين في آخرها ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾[3] الخ، فإنهما نزلتا بمكة وهي من آخر ما نزل كما في صحيح البخارى من حديث البراء قال آخر سورة نزلت «براءة»[4]، ولعل هذا يعنى آخر سورة نزلت مما اشتمل على الأحكام، ولم ينزل بعدها سورة كاملة إلا سورة «النصر» فقد نزلت بمنى في حجة الوداع .. وقد نزلت سورة «التوبة» في أواخر السنة التاسعة للهجرة، والسنة التاسعة هي السنة التي خرج فيها النبي ﷺ بالمسلمين إلى تبوك بقصد غزو الروم، وخرج في أواخرها أبو بكر الصديق على رأس المسلمين لحج بيت الله الحرام.

وقد كان للسورة بحكم هذين الحادثين العظيمين ـ في تاريخ الدولة الإسلامية ـ هدفان أصليان :

أحدهما : تحديد النظام الأساسي الذي تشاد عليه دولة الإسلام، وذلك بالتصفية النهائية بين المسلمين ومشركى العرب بإلغاء معاهداتهم، ومنعهم من

---

(١) سورة الأنفال الآيات (٢ ـ ٤).

(٢) انظر زاد المسير لابن الجوزي جـ٣ ص٣٨٨.

(٣) سورة التوبة الآية (١٢٨، ١٢٩).

(٤) صحيح البخاري جـ٣ ص١٣٤.

الحج، وتأكيد قطـع الولاية بينهم وبين المسلمين، وبوضع الأساس في قبول بقاء أهل الكتاب في جزيرة العرب وإباحة التعامل معهم.

ثانيهما : إظهار ما كانت عليه نفوس أتباع النبي ﷺ حينما استنفرهم ودعاهم إلى غزوة الروم، وفي هذه الدائرة تحدثت السورة عن المتثاقلين منهم والمتخلفين والمثبطين، وكشفت الغطاء عن فتن المنافقين وما انطوت عليه قلوبهم من أحقاد وما قاموا به من أساليب النفاق وألوانه.

وقد عرضت السورة من أولها للهدف الأول، واستغرق ذلك إلى الآية السابعة والثلاثين منها.

كما عرضت للهدف الثاني ابتداء من قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[1] إلى قوله في آخر السورة ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾[2]

اقتران سورة التوبة والأنفال :

في الوقت الذي ترشدنا فيه سورة التوبة إلى الأحكام والأسس التي لابد منها للمسلمين لحفظ كيانهم الداخلي والخارجي، فإنها تشكل مع سورة الأنفال مايشبه أن يكون صورة تأريخية مجملة لدعوة النبي ﷺ وجهاده إلى أن أقر الله عينه بثمرة ذلك الجهاد وتبليغ تلك الدعوة.

---

(١) سورة التوبة الآية (٣٨).

(٢) سورة التوبة الآيات (٣٨ ــ ١٢٧).

فسورة الأنفال تضع الأوصاف التي بها تتحقق إجابة الدعوة، ثم تشير إلى حالتهم قبل الهجرة: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ﴾[1] ثم تشير إلى تدبيرهم الذي كان سبباً مباشراً للهجرة: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[2]، ثم تذكر غزوة بدر ومابدا من اليهود من نقض العهود: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾[3]، ومن المنافقين في التهكّم بخروج المؤمنين إلى بدر من قلتهم ﴿إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾[4].

وبينما نرى سورة الأنفال تشير إلى هذه الأحداث الأولى نرى سورة «التوبة» تشير إلى مشاهد النصر وتخص منها يوم حنين بالذكر: ﴿ولقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين﴾ الآيات كما تذكر صراحة حادث الهجرة ﴿إلاّ تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا﴾ الآية ثم تصف مواقف المشركين وأهل الكتاب، وتصف بالتفصيل مواقف المنافقين، وتذكر غزوة تبوك التي ترشد إلى واقعة مؤتة، هذه الواقعة التى تذكّر بعهد كتب الدعوة التى وجهها النبي ﷺ إلى ملوك الأرض بعد صلح الحديبية.

ولعل قيام السورتين بالإرشاد إلى هذه المراحل كان هو الحكمة في وضعهما مقترنتين في الترتيب المصحفى[5].

---

(١) سورة الأنفال الآية (٢٦).

(٢) سورة الأنفال الآية (٣٠).

(٣) سورة الأنفال الآية (٥٨).

(٤) سورة الأنفال الآية (٤٩).

(٥) تفسير القرآن الكريم لمحمود شلتوت ص٥٨٥ ــ ٥٨٩ بتصرف

والوحدة الموضوعية : في هذه السورة، أنها من بدايتها إلى نهايتها تقرر أحكام التعامل فيما بين المسلمين من جهة، وبين المسلمين وغيرهم من جهة ثانية، سواء كانوا من أهل الكتاب أو من المشركين، وغير ذلك مما يتصل ببناء الدولة الإسلامية وحراسة أمنها الداخلي وتكافلها الاجتماعي.

٩ ـ سورة يوسف :

وهي مكية، وقد تناولت جوانب كثيرة من أهداف السور المكية ومن ضمنها «قصص الأنبياء» قال سيد قطب رحمه الله: والسورة لحمة واحدة عليها الطابع المكي واضحاً في موضوعها وفي جوها وفي ظلالها وفي إيحاءاتها[١].

وقد جاءت السورة مفصلة قصة «يوسف الصديق» وما لاقاه من إخوته من ضروب المحن والشدائد، ولهذا سميت بسورة «يوسف» والمقصود بها، تسلية النبي ﷺ بما لاقاه من أذى القريب والبعيد في تلك الفترة الحرجة من حياة النبي ﷺ .. حيث توالت الشدائد والنكبات، على الرسول وعلى المؤمنين، واشتد عليهم أذى المشركين، وبوجه خاص عندما فقد عليه الصلاة والسلام نصيريه: زوجه الطاهر الحنون «خديجة» التي كانت تخفف عنه الآلام والأحزان وتشجّعه، وعمه «أبا طالب» الذي كان يناصره ويدافع عنه مع أنه لم يدخل في الإسلام، وبموتهما إشتد الأذى والبلاء على رسول الله ﷺ حتى عرف ذلك العام بعام الحزن، فكأن السورة تقول لمحمد ﷺ انظر إلى أخيك «يوسف» وتمعّن بما حدث له من صنوف المحن، ومالاقاه من ألوان المكاره والابتلاء: محنة حسد إخوته له، ومحنة كيد إخوته له، ومحنة رميه في الجبّ، ومحنة الرق، وهو ينتقل كالسلعة من يد إلى يد، ومحنة كيد امرأة العزيز بالمراودة والإغراء، ومحنة السجن بعد رغد العيش .. إلى غير ذلك مما

---

(١) ظلال القرآن جـ٤ ص١٩٥.

لاقاه من المحن والكوارث، وهكذا تتوالى النكبات إثر النكبات على الأنبياء والمرسلين، والدعاة المصلحين، ولكن لابد من الفرج بعد الضيق، والنصرة بعد الشدة، ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴾[1] هذا هو جوّ السورة وهذه إيحاءاتها .. تبشر بقرب النصر لمن سار على طريق الأنبياء والمرسلين.

وحين نستعرض سورة يوسف نجد أنها سورة فريدة في نوعها من بين سور القرآن الكريم، فهناك قصص متعددة مبثوثة في ثنايا سور القرآن كان يكتفى أحيانا بذكر حلقة أو حلقات محدودة من القصة، كحلقة قصة مولد عيسى عليه السلام، أو حلقة قصة نوح والطوفان، لأن هذه الحلقات تفي بالمقصود منها.

أما قصة يوسف فتقتضى أن تتلى كلها متوالية حلقاتها ومشاهدها من بدئها إلى نهايتها وصدق الله العظيم: ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴾[2].

قال الإمام القرطبي في تفسيره: ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن، وكررها بمعنى واحد في وجوه مختلفة، بألفاظ متباينة على درجات البلاغة، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها، فلم يقدر مخالف على معارضة ما تكرر، ولا على معارضة غير المتكرر، والإعجاز لمن تأمل[3].

فالسورة ذات طابع خاص منفرد في احتوائها على قصة يوسف عليه السلام

(١) سورة غافر الآية (٥١).

(٢) سورة يوسف الاية (٣).

(٣) تفسير القرطبي جـ٩ ص١١٨ .

كاملة، فقد بدأت برؤيا يوسف، وانتهت بتأويلها، بحيث لايناسبها أن تكون حلقة منها أو حلقات في سورة وتكون بقيتها في سورة أخرى.

وقد اشتملت السورة على لفتات ولمسات أخرى في صفحة الكون، وفي أغوار النفس وفي آثار الماضين، وفي ضمير الغيب المطوى الذى لايدرى البشر ما هو مخبوء خلف ستاره الرهيب، وكل هذه العظات المبثوثة في حنايا السورة تتناسب مع القصة، والقصة تتكامل معها، لتحقيق القضية الكبرى التى جاء بها هذا القرآن للبشرية، جاءت بها رسالات الأنبياء في العصور المتلاحقة.

وقصة يوسف عليه السلام وحدة موضوعية متماسكة وهي أطول قصة في القرآن الكريم تجتمع حلقاتها كلها في سورة واحدة، تلخص فيها الخصائص الفنية البحتة للقصة، خصائص الموضوع وخائص العرض والاداء وتتوّجها تلك الدعوة الصريحة إلى العقيدة السليمة والإيمان بالله على لسان يوسف حين مكث في السجن يدعو إلى الله ويأخذ بيد الضعفاء ويواسى المحزونين ويفسر الأحلام ويشرح لهم سر معرفته وإيمانه فيقول: ﴿ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشۡرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيۡءٖۚ ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1].

---

(١) سورة يوسف الآية (٣٧ ــ ٤٠).

وبذلك نجد السورة تربط بين رسالات السماء جميعها برباط أساسى وهدف مشترك هو الدعوة إلى توحيد الله ونبذ الشركاء والأنداد، وبيان أن الإيمان بالله هو الطريق الواضح والدين القيّم الذي يسمو بصاحبه ويعصمه من الفتنة ويمنعه من الرذيلة ويجعله يقف ثابت اليقين، يقاوم الإغراء، ويرد المنحرف إلى طريق الصواب.

١٠ ــ سورة الكهف :

مكية في قول جميع المفسرين كما ذكره القرطبى وابن الجوزى[١]، وقد نزلت في وقت اشتدت فيه حملة القرآن على المنكرين المكذبين بيوم الدين، وقد نزلت قبلها سورة الغاشية وهي سورة تبدأ وتنتهى بحديث الساعة وإياب الناس جميعاً إلى الله ليحاسبهم على ماقدموا.

ونزلت بعد سورة الكهف سورة النحل وعدة سور تحدثت عن البعث والجزاء وأثبتت وحدانية الله وقدرته وذكرت عقوبته للمكذبين وأخذه على يد الظالمين.

لقد كان كفار مكة ينكرون البعث، ويستبعدون وقوعه في عناد وإصرار فتكفل القرآن بمناقشتهم وتفنيد آرائهم وأثبت قدرة الله على البعث والجزاء، وقدم الأدلة على هذه القضية وساق في سورة (الكهف) عدداً من الحجج والبراهين على حقيقتها مبرزاً ذلك في صورة واضحة قد اكتملت فيها عناصر القوة والروعة والإفحام.

والقصص هو العنصر الغالب في هذه السورة، ففي أولها تجيئ قصة أصحاب الكهف، وبعدها قصة الجنتين، ثم إشارة إلى قصة آدم وإبليس، وفي وسطها يجيئ

---

(١) انظر تفسير القرطبي جـ١٠ ص٣٤٦ وزاد المسير لابن الجوزي جـ٥ ص١٠٢.

قصة موسى مع العبد الصالح، وفي نهايتها قصة ذى القرنين، ويستغرق هذا القصص معظم آيات السورة، فهو وارد في إحدى وسبعين آية من عشر ومائة آية.

ومعظم ما تبقى من آيات السورة هو تعليق أو تعقيب على القصص فيها، وإلى جوار القصص بعض مشاهد القيامة وبعض مشاهد الحياة التى تصور فكرة أو معنى، على طريقة القرآن في التعبير بالتصوير.

أما المحور الموضوعي للسورة الذي ترتبط به موضوعاتها، ويدور حوله سياقها، فهو تصحيح العقيدة وتصحيح منهج النظر والفكر، وتصحيح القيم بميزان هذه العقيدة.

فأما تصحيح العقيدة فيقرره بدؤها وختامها.

في البدء: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِءَابَآئِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾[1].

وفي الختام: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[2].

وهكذا يتساوى البدء والختام في إعلان الوحدانية وإنكار الشرك، وإثبات الوحى، والتمييز المطلق بين الذات الإلهية وذوات الحوادث.

---

(١) سورة الكهف الآية (١ — ٥).

(٢) سورة الكهف الآية (١١٠).

أما تصحيح منهج الفكر والنظر فيتجلى في استنكار دعاوى المشركين الذين يقولون ماليس لهم به علم، والذين لايأتون على مايقولون ببرهان، وفي توجيه الإنسان إلى أن يحكم بما يعلم ولايتعداه، ومالا علم له به فليدع أمره إلى الله.

ففي مطلع السورة: ﴿ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِأَبَآئِهِمْ ﴾[1].

والفتية أصحاب الكهف يقولون ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ ﴾[2]

وعندما يتساءلون عن فترة لبثهم في الكهف يكلون علمها لله: ﴿ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾[3].

وفي ثنايا القصة إنكار على من يتحدثون عن عددهم رجماً بالغيب: «سيقولون: ثلاثة رابعهم كلبهم، ويقول: خمسة سادسهم كلبهم ــ رجماً بالغيب ــ ويقولون: سبعة وثامنهم كلبهم، قل: ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل، فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهراً، ولا تستفت فيهم منهم أحداً».

وفي قصة موسى مع العبد الصالح عندما يكشف له عن سر تصرفاته التي أنكرها عليه موسى يقول: «رحمة من ربك وما فعلته عن أمرى» فيكل الأمر فيها لله.

---

(١) سورة الكهف الآية (٥).
(٢) سورة الكهف الآية (١٥).
(٣) سورة الكهف الآية (١٩).

فأما تصحيح القيم بميزان العقيدة، فيرد في مواضع متفرقة، حيث يرد القيم الحقيقية إلى الإيمان والعمل الصالح، ويصغر ما عداها من القيم الأرضية الدنيوية التي تبهر الأنظار.

وهكذا نجد محور السورة هو تصحيح العقيدة، وتصحيح منهج الفكر والنظر، وتصحيح القيم بميزان العقيدة.

ويسير سياق السورة حول هذه الموضوعات الرئيسية في أشواط متتابعة، تبدأ السورة بالحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب للإنذار والتبشير، تبشير المؤمنين وإنذار الذين قالوا اتخذا الله ولداً، وتقرير أن ما على الأرض من زينة إنما هو للابتلاء والاختبار، والنهاية إلى زوال وفناء.، ويتلو هذا قصة أصحاب الكهف. وهي نموذج لإيثار الإيمان على باطل الحياة وزخرفها، والإلتجاء إلى رحمة الله في الكهف، هرباً بالعقيدة أن تمس.

ويبدأ الشوط الثاني : بتوجيه الرسول ـ ﷺ ـ أن يصبر نفسه مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه، وأن يغفل الغافلين عن ذكر الله .. ثم تجيئ قصة الجنتين تصور اعتزاز القلب المؤمن بالله، واستصغاره لقيم الأرض .. وينتهى هذا الشوط بتقرير القيم الحقيقية الباقية.

والشوط الثالث : يتضمن عدة مشاهد متصلة من مشاهد القيامة تتوسطها إشارة إلى قصة آدم وإبليس .. وينتهى ببيان سنة الله في إهلاك الظالمين، ورحمة الله وإمهاله للمذنبين إلى أجل معلوم. وتشغل قصة موسى مع العبد الصالح الشوط الرابع. وقصة ذى القرنين الشوط الخامس.

ثم تختتم السورة بمثل ما بدأت: تبشيراً للمؤمنين وإنذاراً للكافرين، وإثباتاً للوحى وتنزيهاً لله عن الشريك[1].

وبهذا يتجلى للناظر في السورة أنها منتظمة النسق، مطردة السياق، واضحة الغرض، قوية الأسلوب، متماسكة في أولها وآخرها وأثنائها، يجول فيها معنى واحد تلتقى عليه الآيات والأمثال والقصص والوعد والوعيد والتذكير والبيان[2]، ولذلك يقول الله عز وجل في آية من آياتها: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾[3].

١١ ـــ سورة النور : وهي مدنية بالاجماع كما ذكره القرطبى[4] وغيره نزلت بعد سورة الحشر.

وسميت بهذا الاسم لكثرة ذكر النور فيها :

كقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ ﴾[5]

وقوله: ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾[6]

وقوله: ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾[7]

وقد ذكر النور في هذه السورة بلفظه متصلاً بذات الله: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ

---

(١) انظر في ظلال القرآن للسيد قطب جـ٤ ص٢٢٥٦ ـــ ٢٢٥٩.

(٢) أهداف كل سورة ومقاصدها في القرآن الكريم: د/عبد الله شحاته ص٢١٢.

(٣) سورة الكهف الآية (٥٤).

(٤) تفسير القرطبي جـ١٢ ص١٥٨.

(٥) سورة النور الآية (٣٥).

(٦) سورة النور الآية (٣٥).

(٧) سورة النور الآية (٤٠).

﴿وَٱلْأَرْضِ﴾.. كما ذكر فيها النور بآثاره ومظاهره في القلوب والأرواح، ممثلة هذه الآثار في الآداب والأخلاق التي يقوم عليها بناء هذه السورة، وهي آداب وأخلاق نفسية وعائلية وجماعية، تنير القلب، وتنير الحياة، وهي مستمدة كلها من ذلك النور الكبير..

والمحور : الذي تدور عليه السورة كلها هو محور التربية التي تشتد في وسائلها إلى درجة الحدود، وترق إلى درجة اللمسات الوجدانية الرفيعة التي تصل القلب بنور الله وبآياته المبثوثة في تضاعيف الكون وثنايا الحياة.

وقد بدأت السورة باعلان حاسم عن تقرير هذه السورة وفرضها بكل ما فيها من حدود وتكاليف، ومن آداب وأخلاق ﴿سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (١)

فيدل هذا البدء الفريد على مدى اهتمام القرآن بالعنصر الأخلاقي في الحياة، ومدى عمق هذا العنصر وأصالته في العقيدة الإسلامية، وفي فكرة الإسلام عن الحياة الإنسانية.

وتدور موضوعات السورة حول محورها الأصيل في خمسة أشواط متتالية، ووحدة موضوعية متناسقة.

الشوط الأول : يتضمن الإعلان الحاسم الذي تبدأ به السورة، ويليه بيان حد الزنا، وتفظيع هذه الفعلة، ثم بيان حد الفعلة، ثم بيان حد القذف وعلة التشدد فيه، واستثناء الأزواج من هذا الحد مع التفريق بين الزوجين بالملاعنة، ثم حديث الإفك وقصته..، وينتهي هذا الشوط بتقرير مشاكلة الخبيثين للخبيثات، ومشاكلة الطيبين للطيبات. وبالعلاقة التي تربط بين هؤلاء وهؤلاء.

---

(١) سورة النور الآية (١).

ويتناول الشوط الثاني : وسائل الوقاية من الجريمة، وتجنب النفوس أسباب الإغراء والغواية. فيبدأ بآداب البيوت والاستئذان على أهلها، والأمر بغض البصر والنهي عن إبداء الزينة لغير المحارم، والحض على إنكاح الأيامى والتحذير من دفع الفتيات إلى البغاء.

وكلها أسباب وقائية لضمان الطهر والتعفف في عالم الضمير والشعور، ودفع المؤثرات التي تهيج الميول الحيوانية، وترهق أعصاب المتحرجين المتطهرين، وهم يقاومون عوامل الإغراء والغواية.

والشوط الثالث : يتوسط مجموعة الآداب التي تتضمنها السورة، فيربطها بنور الله. ويتحدث عن أطهر البيوت التي يعمرها وهي التي تعمر بيوت الله .. وفي الجانب المقابل الذين كفروا وأعمالهم كسراب من اللمعان الكاذب، أو كظلمات بعضها فوق بعض، ثم يكشف عن فيوض من نور الله في الآفاق في تسبيح الخلائق كلها لله، وفي إزجاء السحاب، وفي تقليب الليل والنهار، وفي خلق كل دابة من ماء. ثم اختلاف أشكالها ووظائفها وأنواعها وأجناسها، مما هو معروض في صفحة الكون للبصائر والأبصار..

والشوط الرابع : يتحدث عن مجافاة المنافقين للأدب الواجب مع رسول الله ﷺ في الطاعة والتحاكم .. ويصور أدب المؤمنين الخالص وطاعتهم، ويعدهم على هذا الاستخلاف في الأرض والتمكين في الدين، والنصر على الكافرين.

ثم يعود **الشوط الخامس** إلى آداب الاستئذان والضيافة، في محيط البيوت بين الأقارب والأصدقاء وإلى آداب الجماعة المسلمة كلها كأسرة واحدة، مع رئيسها ومربيها رسول الله ﷺ.

وتتم السورة بإعلان ملكية الله لما في السموات والأرض، وعلمه بواقع الناس، وما تنطوى عليه حناياهم، ورجعتهم إليه، وهو بكل شيء عليم[1].

أثر السورة في حفظ المجتمع :

ويلاحظ أن سورة النور دعوة هادفة إلى إضاءة القلب بنور الله وذكره، وتذكر جلاله وعظمته، وهي سياج للفرد والمجتمع من الانحلال والتردى في الخطيئة فقد أمرت بغض البصر وحفظ الفرج، ونهت عن دخول البيوت بغير إذن وإيذان، ونهت عن قذف المحصنات وبينت عقوبة البهتان وإلصاق التهم الكاذبة بالمستقيمين، وذمت إشاعة الفاحشة، وأظهرت عجائب صنع الله في إرسال المطر وتفصيل أصناف الحيوان، وحثت على التوبة والإنابة، وبذلك أخذت بيد الإنسان إلى الطريق الصحيح، ورفعت عنه عوامل الإحباط والانتكاس، وبينت أن الله مطلع على كل شيء[2].

وهكذا تختم السورة بتعليق القلوب والأبصار بالله، وتذكيرها بخشيته وتقواه، فهذا هو الضمان الأخير، وهذا هو الحارس لتلك الأوامر والنواهي، وهذه الآداب والأخلاق التي فرضها الله في هذه السورة.

هذه نماذج من سور القرآن الكريم، تدلنا على مدى ارتباط السور القرآنية في موضوعاتها بوحدة موضوعية متماسكة متناسقة وقد اشتملت هذه النماذج على سور مكية وسور مدنية.

---

(١) انظر ظلال القرآن للسيد قطب ص٢٤٨٥ ــ ٢٤٨٧.
(٢) أهداف كل سورة للدكتور عبد الله شحاته ص٢٥٨.

الفصل الخامس

تفسير الموضوعات التالية تفسيراً موضوعياً

سبقت الإشارة في أول هذا الكتاب إلى أن التفسير الموضوعي يعنى «جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن الكريم المتعلقة بالموضوع الواحد لفظاً أو حكماً، وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية» وفي هذا الفصل ـــ الذي يعتبر صلب هذه الدراسة ـــ سنتحدث عن نماذج من التفسير الموضوعي، وذلك باختيار موضوعات متنوعة تحدث عنها القرآن الكريم، وتفسيرها تفسيراً موضوعياً. ومن هذه الموضوعات مايلي:

الموضوع الأول : التوحيد

ولأهمية هذا الموضوع وكونه أساس العقيدة الإسلامية فسنرجع إلى ماكتبه العلماء في هذا المجال في ضوء القرآن الكريم، ومن أنفع ما اطلعت عليه مما كتب في هذا الموضوع مذكرة صغيرة للدكتور / عبد الستار فتح الله سعيد / عالج فيها قضية الوحدانية والتوحيد.

وسنعتمد عليها في تجلية هذا الموضوع بالإضافة إلى مصادر أخرى مستدلين بالآيات القرآنية والسنة النبوية، فالتوحيد له معان لغوية وحقائق شرعية.

يقال في اللغة (وحد) بكسر الحاء وضمها أي صار منفردا، إذ أصل (الوحدة) الانفراد، أو كما يقول الراغب رحمه الله «هي الشيىء الذي لا جزء له ألبتّه»[(١)].
ويقال : وحَّدَه توحيدا أى جعله واحدا، أَوْ عَدَّه واحدا.

و«الواحد» مشترك لفظى يطلق على الله تعالى وعلى غيره مع ملاحظة الفرق بين الوحدة في الحالين.

فالوحدة في جانب الخلق جميعا عارضة تقبل التحول، بل قد تكون ادعائية.

---

(١) المفردات للراغب الاصفهاني مادة [وحد] ص٥١٤ .

كقولهم : فلان «واحدُ دهرِه»، أو «نسيجُ وحدِه».

أما الوحدة في جانب الخالق جل شأنه فهي أصلية غير عارضة، ولا مدّعاة، وهي حقيقة يقينية لاتقبل التحول والانتقال، وقد أحسن الراغب رحمه الله حين قال بعد أن بيّن استعمالات لفظ (الواحد).

«والوحدة في كلها عارضة، وإذا وصف الله تعالى بالواحد فمعناه هو الذي لايصح عليه التجزى ولا التكثر»[1].

ولفظ «أحد» مشترك لفظى كذلك لكنه إذا وقع وصفا فلا يُكون الا لله تعالى لأنه «أكمل من الواحد» كما قال أبو حاتم[2] وأوفي دلالة على معنى الوحدة.

الوحدانية والتوحيد :

(فالوحدانية) صفة ذاتية لله تعالى، و(التوحيد) إيمان المكلف واعتقاده أن الله تعالى متصف بذلك.

ولذلك يقول صاحب القاموس المحيط :

«التوحيد الإيمان بالله وحده، والله الأوحد والمتوحد ذو الوحدانية[3]».

«والوحدانية: مصدر بمعنى «الوحدة» زيدت عليه ألف ونون للمبالغة في أصل المعنى، ونظيره لفظ: ربانية، وروحانية، وجسمانية، في النسبة إلى الرب، والروح، والجسم، على وجه المبالغة.

---

(١) المفردات للراغب ص٥١٥.

(٢) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي جـ٢ ص١٤٣.

(٣) القاموس المحيط [باب الدال] [فصل الواو].

وجاء لفظ «الوحدانية» على هذا البناء للدلالة على اتصافه تعالى بالوحدة المطلقة البالغة غاية الكمال، والثابتة له سبحانه قبل أن يكون الخلق جميعا كما قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ ﴾(١).

وكما قال ﷺ: «كان الله ولم يكن شيئ غيره»(٢).

أما (التوحيد) شرعاً فهو :

الإيمان الجازم بتفرد الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله، ونفى الشركاء عنه سبحانه اعتقادا وعملا، على الوجه الذى جاء به الوحى الالهى على ألسنة الرسل عليهم السلام.

ويتخلص من هذا :

أن (الوحدانية) هي صفة لله تعالى، وهي حقيقة قائمة بذاته جل شأنه سواء اعترف بذلك الناس أو لم يعترفوا.

(والتوحيد) هو اعتقاد المكلفين بهذه الصفة على وجهها الشرعى، فهو تكليف من الله لعباده ابتداء وهو امتثال من العباد لهذا التكليف انتهاء.

ولا يتحقق «التوحيد» إلاّ إذا امتثل العباد لما كلفهم به ربهم على الوجه المشروع.

---

(١) سورة الحديد الآية (٣).

(٢) رواه البخاري عن عمران بن حصين في (بدء الخلق) من أول كتابه الجامع الصحيح.

صفات الله تعالى وأسماؤه :

وقد علمنا الوحى الالهى أن لله تعالى صفات كثيرة: كالعلم، والقدرة، والإرادة (والوحدانية) من هذه الصفات الجليلة.

وعلمنا أن لله الأسماء الحسنى مثل : الخالق، الرازق، المصور. (والواحد) من هذه الأسماء الحسنى[١].

وقد عنى الوحى الإلهى أبلغ العناية ببيان وتقرير كل ما يتعلق بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا، وجعل ذلك رأس الإيمان، ولب الاعتقاد خاصّة صفة (الوحدانية) باعتبارها الصفة الجامعة لكل كمال يليق بالله تعالى[٢].

وإذا أردنا أن نعرف الطريق التي دعا إليها القرآن الكريم في إثبات وجود الله تعالى وجدناها تنحصر في طريقين، كما ذكرهما الفيلسوف ابن رشد في كتابه «الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة»[٣].

الطريق الأول : طريق الوقوف على العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجله ولنسم هذا دليل العناية.

الطريق الثاني : ما يظهر من اختراع جواهر الأشياء الموجودات مثل اختراع الحياة في الجماد والإدراكات الحسية والعقل، ولنسم هذا دليل الاختراع.

---

(١) جاء ذلك في حديث أبي هريرة الذي رواه الترمذي وابن حبان والحاكم والبيهقي.

(٢) الوحدانية والتوحيد في ضوء القرآن للدكتور عبد الستار السعيد.

(٣) ص ٦٥

ثم قال ابن رشد : ولذلك كان واجباً على من أراد معرفة الله حق معرفته أن يعرف جواهر الأشياء، ليقف على الاختراع الحقيقي في جميع الموجودات، لأن من لم يعرف حقيقة الشيىء لم يعرف حقيقة الاختراع، وإلى هذا الإشارة بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾[١].

وكذلك أيضا من تتبع معنى الحكمة في وجود موجود، أعني معرفة السبب الذي من أجله خلق، والغاية المقصودة به كان وقوفه على دليل العناية أتم، فهذان الدليلان هما دليلا الشرع.

وقد ذكر ابن رشد أن الآيات الواردة في القرآن، المنبهة على الأدلة المفضية إلى وجود الصانع سبحانه تنحصر في هذين الجنسين من الأدلة ــ يعنى بذلك ــ دليل العناية، ودليل الاختراع، ثم قال وذلك بيِّن لمن تأمل الآيات الواردة في الكتاب العزيز في هذا المعنى، وذلك أن الآيات التي في الكتاب العزيز في هذا المعنى إذا تُصُفِّحَتْ وُجدتْ على ثلاثة أنواع :

١ ــ آيات تتضمن التنبيه على دلالة العناية.
٢ ــ آيات تتضمن التنبيه على دلالة الاختراع.
٣ ــ آيات تجمع الأمرين من الدلالة جميعاً.

فأما الآيات التي تتضمن دلالة العناية فقط فمثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ إلى قوله: ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾[٢] ومثل قوله: ﴿تَبَارَكَ

(١) سورة الأعراف الآية (١٨٥).

(٢) سورة النبأ الآية من (٦ ــ ١٦).

﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾(١) ومثل قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴾(٢) الآية، ومثل هذا كثير في القرآن.

وأما الآيات التي تتضمن دلالة الاختراع فقط، فمثل قوله تعالى: ﴿ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴾(٣)، ومثل قوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾(٤) ومثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾(٥) ومن هذا قوله تعالى حكاية عن قول إبراهيم: إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾(٦) إلى غير ذلك من الآيات التي لا تحصى.

وأما الآيات التي تجمع الدلالة فهي كثيرة أيضاً، بل هي الأكثر مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(٧).

فإن قوله ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ تنبيه على دلالة الاختراع وقوله: ﴿ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا ﴾ تنبيه على دلالة العناية، ومثل هذا قوله تعالى: وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ (٨) وقوله تعالى: ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾(٩)، وأكثر الايات الواردة في هذا المعنى يوجد فيها النوعان من

---

(١) سورة الفرقان الآية (٦١).
(٢) سورة عبس الآية (٢٤).
(٣) سورة الطارق الآية (٥،٦).
(٤) سورة الغاشية الآية (١٧).
(٥) سورة الحج الآية (٧٣).
(٦) سورة الأنعام الآية (٧٩).
(٧) سورة البقرة الآية (٢١،٢٢).
(٨) سورة يس الآية (٣٣).
(٩) سورة آل عمران الآية (١٩١).

الأدلة، ثم يبين ابن رشد أن هاتين الطريقتين ــ يعنى دلالة العناية ودلالة الاختراع ــ هما بعينهما طريقة الخواص، كما هي طريقة الجمهور، وفسر الخواص بالعلماء ومعروف أن الجمهور: العامة من الناس، ثم قال «وإنما الاختلاف بين المعرفتين في التفصيل، أعني أن الجمهور يقتصرون من معرفة العناية والاختراع على ما هو مدرك بالمعرفة الأولى المبنية على علم الحس، وأما العلماء فيزيدون على مايدرك من هذه الأشياء بالحس مايدرك بالبرهان، أعنى من العناية والاختراع، حتى لقد قال بعض العلماء: إن الذي أدركه العلماء من معرفة أعضاء الإنسان والحيوان هو قريب من كذا وكذا آلاف منفعة، وإذا كان هذا هكذا فهذه الطريقة هي الطريقة الشرعية والطبيعية، وهي التي جاءت بها الرسل ونزلت بها الكتب، والعلماء ليس يفضُّلون الجمهور في هذين الاستدلالين من قبل الكثرة فقط، بل ومن قبل التعمق في معرفة الشيء الواحد نفسه فإن مثال الجمهور في النظر إلى الموجودات مثالهم في النظر إلى المصنوعات التي ليس عندهم علم بصنعتها، فإنهم إنما يعرفون من أمرها أنها مصنوعات فقط وأن لها صانعاً موجوداً، ومثال العلماء في ذلك مثال من نظر إلى المصنوعات التي عنده علم ببعض صنعتها وبوجه الحكمة منها، ولاشك أن من حاله من العلم بالمصنوعات هذه الحال هو أعلم بالصانع من جهة ما هو صانع، من الذي لايعرف من تلك المصنوعات، إلا أنها مصنوعة فقط، أما مثال الدهرية الذين جحدوا الصانع سبحانه وتعالى في هذا فمثالُ من أحسّ مصنوعات فلم يعترف أنها مصنوعات، بل ينسب ما رأى فيها من الصنعة إلى الاتفاق والأمر الذي يحدث من ذاته»[1].

ولقد جاء القرآن الكريم بالأدلة الكونية في الأنفس والآفاق، شاهدة بوجود الله تعالى متمثلة في إبداع وإحكام تصريفه لشئون خلقه، جاءت واضحة في نظام

(١) الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة ص ٦٩ ــ ٧٠ بتصرف.

الكائنات وسائر المخلوقات، وقد وجدت هذه الكائنات على هيئة صالحة لاستخدام الإنسان لها وتذليلها له، وتسخيرها للانتفاع بها.

كما أن خلق الإنسان نفسه في تركيب بدنه وأجزائه وعجائب تكوينه على هيئة تدعو إلى الدهشة والحيرة، كلها تدل على أن هذه العناية والدقة في سائر المخلوقات محال أن تكوّن نفسها بنفسها، ومحال أن تكون على سبيل المصادفة العمياء ومن غير حكيم وصانع مبدع أفاض عليها من عنايته وحكمته، وهو الله سبحانه وتعالى.

ولقد استخدم القرآن الكريم لجدله وبراهينه على إثبات الصانع تعالى ما في عالم الحيوان من عجائب في خلقه وتكوينه وأجهزته الدموية والهضمية والعصبية والتنفسية ونظام التوالد وتنوعه إلى حيوانات برية وبحرية، وهوائية طائرة ميكروبية، وحيوانات طويلة العمر، وأخرى قصيرة الأجل، وحيوانات تبيض، وأخرى تلد، وحيوانات للأكل والحمل والألبان ومنافع أخرى كثيرة ولو ذهبنا ننظر إلى كل هذا التنوع وكيفيات أخرى من التنوع، كاختلاف الألوان والأصوات، وطريقة الحياة، وتناول الطعام، ونظام المعيشة، لأدركنا أن ذلك التخصص والتمايز والتنوع، لم يكن عفوياً ولا مصادفة، بل كان بصنع فاعل حكيم مختار ليس من جنس الحوادث، بل هو خالق كل شيء سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[١].

(١) سورة النور الآية (٤٥).

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِي جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ﴾(٤)

واستخدام القرآن الكريم لجدله وبراهينه لإثبات الصانع، ما في عالم النبات من عجائب وسنن ونواميس تحار فيها العقول، كيف توضع الحبة في الأرض الرطبة فلا تتلفها الرطوبة والعفونة، كما يظن بادىء الرأى، ولكنها تربو وتنتفخ وتنشق من أسفل عن جذور تمتد إلى باطن الأرض، ومن أعلى عن ساق يصعد إلى أعلى شاقاً لنفسه طريقاً من بين التراب، وكيف يتنوع عالم النبات، ويختلف شكلاً ونوعاً وطعماً ومذاقاً ولوناً ورائحة وتختلف كذلك الثمار والفواكه، بعضها يؤكل ظاهره، ويرمي باطنه، وبعضه بالعكس يؤكل باطنه ويرمى ظاهره، وإلى هذه المعاني تشير الآية الكريمة في سورة الأنعام ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ

(١) سورة الأنعام الآية (٣٨).
(٢) سورة هود الآية (٦).
(٣) سورة النحل الآية (٧٩).
(٤) سورة الملك الآية (١٩).

﴿وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ﴾[1] وقوله في سورة فاطر: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٖ مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهَاۚ﴾[2]، وقوله في سورة الرعد: ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ﴾[3].

ونظر القران في برهانه على وجود الله الخالق إلى عالم الكواكب وما فيه من عجائب كيف أنها رفعت بلا عمد أو جبال، تسير في الفضاء بدقة ونظام في سيرها، لا يرتطم بعضها ببعض، نعلم من حركاتها عدد السنين والحساب والأيام والليالي والشهور وتتنوع بسبب سيرها الفصول السنوية من صيف إلى شتاء إلى ربيع إلى خريف، وكثير ما يشير القرآن الكريم في غير ما موضع إلى هذه المعاني كما في سورة الرعد ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ﴾[4] وقوله في سورة النحل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ﴾[5]، وقوله في سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾[6] ويوجه القرآن في برهانه على وجود الله الأنظار إلى الرياح وتنوعها إلى حارة ورطبة وشمالية وجنوبية وشرقية وغربية وبطيئة في سيرها وعاصفة وعقيم لاسحاب فيها وممطرة تحمل السحاب والماء، وإلى حمل الرياح مادة التلقيح من ذكور النبات إلى إناثه، وإلى جريان الفلك في البحار بواسطتها قال تعالى: ﴿وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ﴾[7] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٤١).
(٢) سورة فاطر الآية (٢٧).
(٣) سورة الرعد الآية (٤).
(٤) سورة الرعد الآية (٢).
(٥) سورة النحل الآية (١٢).
(٦) سورة الأنعام الآية (٩٧).
(٧) سورة الحجر الآية (٢٢).

سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[1] وقال تعالى ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾[2].

ثم وجه القرآن الأنظار إلى مايتبع الرياح والهواء، ويتفاعل معه من السحاب والمطر والرعد والبرق، وان كل ذلك عجيب الصنع، دقيق الحصول، متنوع في كمه وكيفه، وفي الآثار المترتبة عليه وفي سبب حصوله وتكونه، وفي انتفاع العباد والبلاد به، وما يتبع ذلك من اختلاف دراسات الحرارة والبرودة، وتأثير ذلك على سائر الموجودات فوق الغلاف الأرضي، لو نظرنا إلى كل ذلك بتمعن لأدركنا أن فاعل ذلك لابد أن يكون حكيماً عليماً كما أشارت إلى ذلك سورة النور حيث يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[3].

وقوله تعالى في سورة الرعد: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴾[4].

(١) سورة الأعراف الآية (٥٧).
(٢) سورة الشورى الآية (٣٢ ــ ٣٤).
(٣) سورة النور الآية (٤٣،٤٤).
(٤) سورة الرعد الآية (١٢،١٣).

ثم وجه القرآن أنظار المكابرين إلى الأرض وما فيها من بحار وأنهار وجبال ووديان وصحاري وصخور ومعادن ومستخرجات من باطنها ومستخرجات من قشرتها السطحية، وإلى ما في الماء من عذوبة وملوحة وجزر ومد وتيارات سطحية وسفلية وأمواج كالجبال وأخرى هادئة وإلى صلاحية الأرض للحياة عليها والتقلب في مناكبها لطلب المعائش فلا هي بالرخوة بحيث يغوص الناس فيها ولا هي بالصلبة، بحيث يستعصى على الناس حفرها للانتفاع بما في باطنها، ولا هي باردة يتجمد الناس فوقها، ولا ملتهبة بحيث تنصهر المخلوقات فوقها، بل جعلها الله تعالى مهاداً وبساطاً للعباد، كما نطق بذلك القرآن في أكثر من موضع لو نظرنا إلى ذلك بإنصاف لعرفنا بداهة أن هذا التنوع لايمكن أن يكون مصادفة واتفاقاً[1].

وإلى هذه المعاني يشير القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ

---

(١) دراسات في علوم القرآن للدكتور عبد الغني الراجحي بتصرف.

(٢) سورة فاطر الآية (٢٧،٢٨).

(٣) سورة الرعد الآية (٣).

﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾(١).

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ﴾(٢).

وقوله تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(٤).

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾(٥).

كل هذه الآيات بتنوع أساليبها واختلاف موضوعاتها تلفت الأنظار إلى أن هذا الكون وما يحتويه لم يكن وليد المصادفة والاتفاق، وإنما هو مخلوق عن علم عليم وقدرة قادر وهو الله تبارك وتعالى(٦).

(١) سورة الرعد الآية (١٧).
(٢) سورة الحجر الآية (١٩، ٢٠).
(٣) سورة النمل الآية (٦١).
(٤) سورة فاطر الآية (١٢).
(٥) سورة فصلت الآية (٩، ١٠).
(٦) انظر مباحث التوحيد بتوسع في كتابي [مناهج الجدل في القرآن الكريم] من ص ١٣٣ إلى صفحة ٢٧٦ الطبعة الثالثة.

الوجود الإلهي حقيقة مسلّمة :

فالله تعالى متصف بصفة «الوجود» وهو متفرد بوجوب هذا الوجود، ومن المقرر الثابت أن عامة الأمم كانت تسلم بوجوده سبحانه وتعالى، ولا تمارى في ذلك قط لما يأتى:

أولا : لأن الله تعالى علم أباهم آدم الأسماء كلها، ثم علمهم أبوهم آدم أول حقائق العلم وهو وجود الله تعالى.

ثانيا : لأن الله تعالى أخذ على بنى آدم العهد والميثاق أنه ربهم، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ﴾[1].

ثالثا : لأن الرسل جميعا ترادفوا بين الأمم على كلمة واحدة في الدعوة إلى الإيمان بالله تعالى.

رابعا : لأن الله تعالى فطر الناس على أن لهم ربا وخالقا، وكل مولود يولد على هذه الفطرة كما قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾[2].

ومن هنا اجتمعت دلائل الخلق، والعهد، والعلم، والعقل، والوحى على التسليم وجوده سبحانه وتعالى تسليما مطلقا، وشاع ذلك بين الناس منذ درجوا على الأرض.

وقد أفاض القرآن الكريم في تقرير هذه الحقيقة البيّنة، وبيان شيوعها وذيوعها بين الأمم من أقدم عصور التاريخ.

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٧٢).

(٢) سورة الروم الآية (٣٠).

قال تعالى: على لسان قوم نوح: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾[1].

وقال تعالى: معرّضاً بعاد وثمود: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً﴾[2].

ولم ينكر وجود الله تعالى في الأمم السابقة إلاّ صنفان:

الأول : «الدهريون» وهم قلة قليلة في كل أمة، كانوا ينسبون الأفعال إلى الدهر وطبائع الأشياء، وقد قص القرآن مقالتهم، وجهلهم، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾[3].

الثاني : «المكابرون» أصحاب اللجاج المحض، والحجاج الباطل الذي لا يخرج عن نطاق ـــ الهذيان والهزل، وغالبا ما يكون ذلك في مواقف الخصومة والجدال مع الرسل عليهم السلام، ومثال ذلك محاورة إبراهيم عليه السلام للنمرود. وموقف موسى عليه السلام مع فرعون.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾[4].

(١) سورة المؤمنون الآية (٢٤).

(٢) سورة فصلت الآية (١٣، ١٤).

(٣) سورة الجاثية الآية (٢٤).

(٤) سورة البقرة الآية (٢٥٨).

وفي هذا الموقف أيضا قال فرعون لموسى عليه السلام: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[(١)].

فلم يكن النمرود ولا فرعون يجهلان وجود الله تعالى. وإنما جادلا بالباطل حفاظا على الملك والسلطان واستتباع الناس لهم، وقد تكرر ذلك بين طواغيت الأمم، كما قال تعالى عنهم: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾[(٢)].

ولهذا لم يتوسع القرآن كثيرا في هذه القضية لكونها حقيقة مسلّمة عند عامة الأمم وإنما عرض لها في إيجاز ردًّا على الملحدين والمكابرين كما قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾[(٣)].

ضلال البشر في عقيدة التوحيد :

ومع اعتراف الأمم بالوجود الأعلى انحرفوا في أمر التوحيد، وضلوا فيه ضلالا مبينا. فأشركوا مع الله تعالى غيره، وجعلوا معه آلهة أخرى، واتخذوا من دونه أندادا يحبونهم كحب الله. وقد لقن الشيطان أتباعه فرية خبيثة إذ زعموا أن الله تعالى قد أعطى لبعض «القوى» في الكون تفويضا وسلطانا، وجعل لهم نفوذا وتأثيرا لذلك يتقرب إليهم الناس ليكونوا واسطة بينهم وبين الله تعالى في الشفاعة لهم، أو دفع الضر عنهم، أو جلب النفع لهم، وتدرجوا حتى عبدوا من دون الله كل ماسولته لهم أوهامهم وشياطينهم، ابتداء من الملائكة وبعض الرسل وانتهاء بالجن والكواكب والملوك والكهان، بل لم يزل الشيطان يستخف من أتبعه من الغاوين حتى هوى

---

(١) سورة الشعراء الآية (٢٣).
(٢) سورة غافر الآية (٥).
(٣) سورة الطور الآية (٣٥،٣٦).

بهم إلى أسفل سافلين فعبدوا الشجر والحجر، والحشرات والبقر، والشمس والقمر وغير ذلك من المخلوقات التي لاتملك لنفسها ضرا ولا نفعا، ولا تملك موتا ولا حياة ولا نشورا.

موقف القرآن من الوحدانية والتوحيد :

وقد وقف القرآن موقفا شاملا في هذا الباب، وعنى بأمر الوحدانية والتوحيد غاية العناية، وأبرزهما في الآيات المكية والمدنية جميعا، وموقف القرآن في هذا الجانب واسع مستفيض، يحتاج إلى مجلدات تفرد له، ولكننا في باب (التفسير الموضوعى) نأخذ جوامع الآيات الكريمة التي تجلى لنا هذا الموقف الشامل، والذي نلخصه في الفقرات التالية:

أولا : سر الاهتمام البالغ :

لأن الوحدانية صفة جامعة من صفات الله تعالى: والتوحيد عقيدة ملزمة لايقبل عمل العبد إلا إذا قام بها على وجهها الشرعى. ولأن «التوحيد» هو العقيدة التي كثر فيه انحراف البشر عن حقائق الفطرة التي خلقوا عليها وعن حقائق الوحى الإلهى الذي جاء على ألسنة الرسل جميعا عليهم السلام كما سنبين بعد قليل إن شاء الله.

ثانيا : جوامع الألفاظ :

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه القضية الكبرى (الوحدانية والتوحيد) بألفاظ شتى تدور حول تقريرها وتأكيدها بطريق الإثبات أو النفى لأضدادها مثل لفظ: الواحد، والأحد، والرب، الاله، ومثل الشرك والشركاء، والشفعاء والأولياء، والدعاء، والعبادة وغير ذلك كثير، وعلى سبيل المثال:

فقد ورد لفظ (واحد) وما تفرع منه في القرآن الكريم في ثمانية وستين موضعا[1] (٦٨مرة) منها ثمان وعشرون مرة (٢٨) وصفا لله تعالى، وتقريرا لوحدانيته مثل ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾[2].

ومثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾[3].

وقد ورد لفظ (أحد) في القرآن الكريم خمساً وثمانين مرة (٨٥)[4].

ومن العجيب أنه جاء منها (مرة واحدة) وصفا لله تعالى وهو قوله تعالى: في سورة الاخلاص: ﴿قل هو الله أحد﴾ وكأن هذا نوع من التأكيد لأحدّية الله تعالى من حيث اللفظ والمعنى والعدد جميعا.

وقد ورد لفظ (أحد) بصيغ أخرى ــ غير الوصف ــ بالله تعالى بوجه ما، مثل ردّ الأحدية إليه عن طريق الاستثناء قال تعالى: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾[5].

---

(١) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم مادة (وحد) ص٧٤٥.
(٢) سورة البقرة الآية (١٦٣).
(٣) سورة الزمر الآية (٤٥).
(٤) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرأن الكريم مادة (أحد) ص١٥.
(٥) سورة الأحزاب الآية (٣٩).

ومثل نفي الشركاء مطلقا قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا﴾[1].

﴿وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا﴾[2]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾[3].

ثالثا : أصل الأصول جميعا :

فالقرآن العظيم يتحدث عن (الوحدانية) باعتبارها الصفة الالهية الجامعة لكل صفات الكمال. فهو سبحانه واحد في ذاته.

وهو سبحانه واحد في صفاته فلا يشاركه أحد في علمه ولا في قدرته، أو ارادته، أو حكمته، أو أي صفة من صفاته جل شأنه.

وهو واحد في أفعاله سبحانه فلا يشاركه أحد في خلقه، ولا رزقه كما قال تعالى في كلمة جامعة ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾[4].

والقرآن الكريم يتحدث عن (التوحيد) باعتباره رأس الإيمان والأصل الذي ينبغي أن يتقرر في النفس والقلب قبل كل شيء، ثم في العمل والسلوك، لأنه مقياس كل شيء بعده، فلا يقبل عمل بدونه،

---

(١) سورة الجن الآية (٢٦).
(٢) سورة الكهف الآية (٢٦).
(٣) سورة فاطر الآية (٤١).
(٤) سورة الشورى الآية (١١).

ولا تقبل شفاعة، ولا تعطى مغفرة لمن أخل به قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾(١).

رابعا : أساس دعوة جميع الرسل عليهم السلام :

فقد قرر القرآن الكريم أن الأساس الذي قامت عليه دعوة الرسل هو تقرير وحدانية الله تعالى، وتنزيهه عن الشركاء والأنداد والأبناء والآباء، وصرف وجوه العباد له وحده في العبادة والطاعة والذكر والدعاء والاستعانة، والاستغاثة، والتوكل ونحو ذلك من كل ما لايليق إلا به سبحانه وتعالى.

وقد قرر القرآن الكريم هذا المعنى وأكده بطريقين :

الأول : الطريق الاجمـالي :

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾(٢).

فهذا تعميم على سبيل الحصر بأن كل رسول قد أوحى إليه أن الله تعالى متصف بالوحدانية (لا إله إلا أنا) مستحق للتوحيد من العبيد (فاعبدون). وقال تعالى في هذا المعنى أيضا: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾(٣).

---

(١) سورة النساء الآية (٤٨).

(٢) سورة الأنبياء الآية (٢٥).

(٣) سورة النحل الآية (٣٦).

والآية الكريمة تقرر أن الأمم جميعا بعث في كل منها رسول، وكان أول دعوة كل رسول في كل أمة أن أعبدوا الله ولا تشركوا به الطواغيت، (والطواغيت كل ما عبد من دون الله تعالى). وهو مشتق من الطغيان.

الثاني : الطريق التفصيلي :

وهو الذي يذكر فيه القرآن الرسل بأسمائهم، وكيف كان التوحيد هو رأس دعوتهم جميعا ومن ذلك.:

١ ــ ما جاء في قصة نوح عليه السلام، وهو أول رسول إلى أهل الأرض بعد أن حدث الشرك في بنى آدم قال تعالى:
﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾(١).

٢ ــ وقال تعالى عن هود عليه السلام :
﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾(٢).

٣ ــ وبالألفاظ نفسها قال تعالى عن صالح عليه السلام :
﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾(٣).

---

(١) سورة الأعراف الآية (٥٩).

(٢) سورة الأعراف الآية (٦٥).

(٣) سورة الأعراف الآية (٧٣) وهود الآية (٦١).

٤ ـــ وهي التي جاءت على لسان شعيب عليه السلام قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ﴾(١).

٥ ـــ أما إبراهيم عليه السلام فقد تحدث القرآن بتفصيل وافر عن دعوته إلى التوحيد بشتى الصيغ والأساليب في المواقف المتعددة وفي الأحوال المختلفة.

ولعل السر في توسع حديث القرآن عن إبراهيم عليه السلام أنه أبو الأنبياء الكرام الذين جاءوا بعده ﷺ أجمعين، وكان اليهود والنصارى، والعرب يعترفون بنبوته وأبوته لهم، بل ويعتزون بالانتساب إليه عليه السلام.

ومن هنا توسع القرآن في الحديث عن إسلامه، ودعوته البليغة إلى التوحيد، ونبذ الشرك وعن محاوراته المفحمة للمشركين، وموقفه العملي الصارم من الأصنام: سخريةً منها، وتحطيماً لها، وتبكيتا لعبّادها، وبذلك تقوم الحجة على المنتسبين إليه من اليهود، والنصارى، ومشركي العرب الذين حرفوا جميعا دين الحق، ووقعوا في ضروب من الوثنية الطامسة الدامسة، وبذلك تسقط دعواهم أنهم على دين إبراهيم كما قال تعالى ردًّا عليهم مجتمعين: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾(٢).

---

(١) سورة الأعراف الآية (٨٥) وهود الآية (٨٤).

(٢) سورة آل عمران الآية (٦٧).

ويقول تعالى عنه وعن المؤمنين معه :

﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ ﴾[1]

وسيأتى الكثير من حديث القرآن عن دعوة إبراهيم عليه السلام إلى التوحيد الخالص.

٦ ــ وعن موسى عليه السلام يقول تعالى له:

﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي ﴾[2].

٧ ــ وعن عيسى عليه السلام يقول تعالى:

﴿ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾[3].

٨ ــ أما محمد ﷺ فقد بعث بالدعوة العالمية الشاملة، وبالتقرير الأوفى، وبالبيان الأعلى في شأن الدين كله عامة، والتوحيد منه خاصة، وقد أمده القرآن العظيم بأتم الحجج والبراهين، وسجل أقاويل الكفار وردود الوحى عليها حتى تكون حجة الله بالغةً باهرة إلى يوم الدين، وحتى لا تكون للناس على الله حجة بعد ختم النبوة لأن القرآن هو صوتها الممدود، ودعاؤها الموصول، وفيه أكمل

---

(١) سورة الممتحنة الآية (٤).

(٢) سورة طه الآية (١٣، ١٤).

(٣) سورة المائدة الآية (٧٢).

حديث عن التوحيد تقريرا، وإثباتا، وردا على المشركين والملحدين، وابطالا للشرك وكل ضروب الوثنية والانحراف عن التوحيد.

ويكفى مثالا لهذا ما أمره الله تعالى أن يقول للناس في كلمات جامعة: ﴿قل هو الله أحد. الله الصمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد﴾.

فهذه السورة الكريمة على وجازتها جامعة لكل ما يليق بالله تعالى: وحده من صفات الكمال توحيدا وتنزيها له عن الشركاء، والاشباه، ثم هي مصححة لضلالات المشركين وأهل الكتاب في باب الاعتقاد.

ان الآية الأولى تثبت (الوحدانية) لله تعالى على أبلغ الوجوه، لأن لفظ (أحد)أكمل من الواحد كما قلنا، ولذلك لا يوصف به إلا الله تعالى: والآية الثانية: بيان لأسباب أحديته إذ أنه هو وحده السيد الكامل في جميع صفاته وأفعاله، وهو المقصود في جميع الحوائج وهو الغنى عن كل شيء بل كل شيء محتاج اليه.

والآيتان الثالثة والرابعة تقرير لهذه الأسباب أيضا، لأنه سبحانه منفرد عن الأصول والفروع، وما يلزمهما من الصاحبة أماً أو زوجا، «ومنفرد عن الشبيه والمماثل وإن لم يكن أصلا أو فرعاً»[1].

خامسا : الربوبية والألوهية وصلتهما بالتوحيد :

وقد تحدث القرآن الكريم طويلا عن الربوبية والألوهية، وأبطل كل أدعاء

---

(١) انظر تفسير الآية الكريمة في تفسير البيضاوي والخازن، وأبي مسعود.

لأحدهما من دون الله تعالى: وأثبت أنه لا ربّ ولا إله بحق إلا الله تعالى، وأوجب سبحانه وتعالى على عباده أن يفردوه بهما في التوحيد.

والرب شرعاً يطلق على معان أجمعها :

(ا) المربى الذي تعهد خلقه بالتنشئة والتربية وقضاء الحاجات على معنى أنه هو المتصف بكل صفات التأثير من خلقٍ، ورزقٍ، وملك، وإحياء وإماتة، وتدبير، وهداية ..إلخ.

(ب) السيد المطاع النافذ الحكم.

والإله يطلق على معان أجمعها :

(ا) المعبود الذي يستحق وحده أقصى غايات التذلل والخضوع من صلاة، وذكر، وحب، وخوف وتوكل، ودعاء، ونذر، وقسم به سبحانه وتعالى ..إلخ.

(ب) المستعلى على عباده الخليق بالطاعة فيما أمر ونهى.

وصفان لا يفترقان :

ومن هنا يتضح التلازم التام بين الربوبية والألوهية، وأنهما لاينفصلان من حيث الواقع لما يأتى:

أولا : لأنهما وصفان لذات واحدة، لا يوجدان في غيرها ولا يجتمعان في سواها، ولا يتحققان بمعناهما الصحيح إلا (لله) الواحد الأحد.

ثانيا : لأنهما يجتمعان في معنى مشترك بينهما وهو المعنى (ب) السابق وإن اختص كل منهما بمعنى خاص.

الوحدانية والتوحيد مجموع الأمرين :

ومن هنا يتضح أيضا أن :

(الوحدانية) تعنى وجوب إفراده سبحانه وتعالى بالأمرين جميعا فلا يقال: (توحيد الربوبية) هو كذا ..، ولا يقال (توحيد الألوهية) هو كذا إلا على سبيل البيان والتعليم.

أما من حيث الحقيقة الشرعية فالتوحيد هو أن يؤمن العبد بأن الله تعالى هو وحده صاحب كل صفات التأثير والكمال، وأنه لذلك مستحق للعبادة والطاعة.

فإذا أقرَّ العبد بأحدهما لم يكن موحدا، وإنما هو مقرّ أو معترف بأحدهما ولكن لايصح أن يسمى (موحدا) لأن التوحيد هو مجموع الأمرين جميعا.

ولهذا لم يطلق القرآن على الكفار أنهم (موحدون) توحيد الربوبية حين أقروا أن الله تعالى هو الخالق، المالك: الرازق[1]، وإنما سماهم كفارا، ومشركين[2] لأنهم لم يأتوا بحقيقة التوحيد الجامعة، وإنما أقروا بشيء منها والتوحيد لايقبل التجزئة أصلاً، فمن أشرك في شيء فقد أشرك الكل.

---

(١) كما قال تعالى ﴿قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله﴾. سورة يونس الآية (٣١).

(٢) يقول تعالى بعد الآية السابقة ﴿كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لايؤمنون قل هل من شركائكم من يبدأ الخلق ثم يعيده..؟ سورة يونس الآيات (٣٣،٣٤).

ولذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[1].

والقرآن الكريم يورد هذين الوصفين على أربعة وجوه :

الوجه الأول : استعمال اللفظ في معناه الخاص به فقط.

مثال الربوبية: ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق﴾ فالخلق من أخص معاني الربوبية الذي وقع وصفا للفظ «الرب».

مثال الألوهية: ﴿لا إله إلا أنا فاعبدنى﴾ فالإله هنا بمعنى المعبود.

الوجه الثاني : استعمال اللفظ في معناه الخاص به مع جمعها في مكان واحد :

قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾[2]

اي هو (ربى) خالقى ومالكى ورازقى .. إلخ.

﴿لا إله إلا هو﴾ أي المعبود الذي لا معبود سواه.

فكل لفظ أفاد معناه الخاص به، وجمع بينهما لبيان حقيقة التوحيد الجامعة للمعنيين جميعا، لذلك جاءت آيات أخرى تبين المعنى المقصود عقب كل لفظ منهما مثل قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾[3].

---

(١) سورة النساء الآية (٤٨).

(٢) سورة الرعد الآية (٣٠).

(٣) سورة غافر الآية (٦٢).

فالخلق متصل بمعنى (الرب)، واستنكار الانصراف عن عبادته متصل بمعنى (الاله) الحق. وقد جاء المعنيان صراحة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾[1].

وهو من النوع المعروف في البديع باللف والنشر المرتب.

الوجه الثالث: استعمال اللفظين في المعنى المشترك بينهما وهو (السيد المطاع): قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾[2] فسياق الآيات يدل على أن المراد (بالرب) هنا السيد المطاع في أمره ونهيه المفهوم من قوله تعالى قبلها ﴿قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ الآيات .. وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾[3].

وربوبية الأحبار والرهبان بمعنى طاعتهم طاعة مقدسة في أمور الحلال والحرام، ومعنى عبادة الاله الواحد في قوله: ﴿وما أمروا الا ليعبدوا إلها واحدا﴾ أي ليطيعوا سيدا واحدا لهم، لأن المقام عن الطاعة في التشريع كما جاء في حديث عدى بن حاتم أنه دخل على النبي ﷺ وهو يقرأ هذه الآية وكان قد تنصرفي الجاهلية فقال: إنهم لم يعبدوهم فقال له النبي ﷺ: «بل إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم» رواه الترمذى[4].

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٠٢).
(٢) سورة الأنعام الآية (١٦٤).
(٣) سورة التوبة الآية (٣١).
(٤) سنن الترمذي جـ٨ ص٢٤٨.

الوجه الرابع : استعمال كل لفظ مكان الآخر.

وذلك لما قلنا من التلازم التام بينهما، فإذا ذكر أحدهما دل على الآخر باعتبارهما وصفين منفردين لذات واحدة، ولايليق أحدهما إلا بالله تعالى: فإذا ذكر (الرب) فهم منه أنه المستحق للعبادة والطاعة وحده، وإذا ذكر (الإله) فهم منه أنه الخالق الرازق المالك لأنه لا يُكون (إلها) حقا إلا بهذه الصفات.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى:

﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾(١).

فالسؤال في أول الآية وقع عن أشياء تتصل بالخلق، والرزق، والقدرة، والتدبير وغيرها من صفات التأثير التى هي معنى لفظ (الرب) فكان المقام يقتضى سؤالهم في آخر الآية ذلك فيقال: (أرب مع الله؟) ولكن وقع السؤال بقوله: (أإله مع الله)؟ لأن اللفظين متلازمان لا فرق بينهما من حيث الواقع، وإن كان استعمال كلمة (إله) هنا قد جاء لحكمة عظيمة لأنه سألهم عن محل النزاع مباشرة والمعنى: أرب يخلق ويرزق مع الله فيستحق التأليه معه؟ ولما كان الخلق والرزق والتدبير ليس محل نزاع كثير، وإنما النزاع، فى عبادة غير الله لذلك عاجلهم باستنكار إتخاذ آلهة مع الله تعالى:

والمثال الثاني قوله تعالى :

﴿ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ ﴾(٢).

---

(١) سورة النمل الآية (٦٠).

(٢) سورة المائدة الآية (١١٧).

والمقام يقتضى أن يقول: اعبدوا الله إلهى وإلهكم، ولكن استعمل كلمة (الرب) مكان (الإله) للتلازم التام بين الكلمتين كما قلنا.

والحكمة هنا ـــ والله أعلم ـــ أن ذكر (الرب) فيه تصريح بعلة العبادة وهي ما يتضمنه الرب من معانى الخلق والرزق .. إلخ، والمعنى اعبدوا الله الذي خلقكم ورزقكم وتولاكم في سائر أموركم.

سادسا : التوحيد عقيدة شاملة :

ومما تقدم يظهر جليا (أن التوحيد) الذي أمرنا الله تعالى به إنما هو عقيدة شاملة تستوجب يقين القلب، وإسلام الوجه لله تعالى قولا وعملا، وإفراده سبحانه وتعالى وحده بالعبادة كالصلاة والدعاء. وبالطاعة في شئون الحياة أي في تشريعات الحلال والحرام.

فالتوحيد ليس قضية كلامية، أو جدلية، وإنما هو التزام شامل بدين الله تعالى في كل نواحي الحياة الانسانية.

لذلك قص علينا القرآن الكريم كيف جعل الرسل جميعا على رأس دعوتهم اجتناب ـــ الطواغيت التي تعبد من دون الله. خاصة في أمر الشرائع والأحكام قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾[1].

ولذلك جعل الرسُل جميعا مدخلهم إلى تغيير حياة أهل

---

(١) سورة النحل الآية (٣٦).

الجاهليات هو (التوحيد) لأن التوحيد يعنى رد الحكم والتشريع إلى الله تعالى في العقائد والأخلاق، والعبادات والمعاملات، فإذا فعل الناس ذلك سهل تغيير ما هم عليه من فساد وضلال.

يقول تعالى على لسان شعيب عليه السلام:
قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ (١) فالآية الكريمة ترتب على التوحيد وجوب الالتزام بشريعة الله في التجارة والتصرفات المالية.

ويقول صالح لقومه: ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾(٢)

فقد رتب النهى عن طاعة أوامر الزعماء الضالين على تقوى الله وطاعة الشرع الذي جاءهم به عليه السلام من عند الله.

ويقول تعالى لنبيه محمد ﷺ :
﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ﴾(٣).

---

(١) سورة هود الآية (٨٤).
(٢) سورة الشعراء الآية (١٥٠ ـــ ١٥٢).
(٣) سورة الأنعام الآية (١٥١).

فقد جعلت الآية الكريمة التوحيد أو النهى عن الشرك رأس الأمر فيما بعده من الأوامر والنواهي.

فتقرر إذاً اختصاص الله تعالى وحده بالطاعة في التشريع، كما اختص بالعبادة وحده، وهذا هو معنى التوحيد في شموله وسعة مدلوله.

يقول الدكتور / محمد عبد الله دراز ــ رحمه الله ــ بعد كلام طويل عن سورة البقرة.

«**الخطوة الأولى** : تقرير وحدة الخالق المعبود.

«**الخطوة الثانية** : تقرير وحدة الآمر المطاع.

وهو ركن من عقيدة التوحيد في الإسلام، فكما أن من أصل التوحيد ألاّ تتخذ في عبادتك إلها من دون الرحمن الذي بيده الخلق والرزق .. كذلك من أصل التوحيد ألاّ تجعل لغيره حُكْماً في سائر تصرفاتك، بل تعتقد ألاّ حكم إلاّ له، وأن بيده وحده الأمر والنهي، والحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، ومن استحل حرامه، أو حرم حلاله فقد كفر [١].

سابعا : أساليب القرآن في الحديث عن الوحدانية والتوحيد:

جاءت أساليب القرآن في هذا الباب على غاية التفنن والإبداع، تلطفا

---

(١) راجع هذا البحث القيم في كتاب النبأ العظيم ص ٢١٧ ومابعدها.

في استدعاء الناس إلى التوحيد، تأليفا لقلوبهم، ولفتا لأسماعهم وأبصارهم، وإقامة للحجة عليهم بكل الأساليب ومن ذلك:

١ ــ أسلوب الخبر المجرد بيانا للحق، واعلاما للخلق كما قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(١)، ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾(٢).

٢ ــ أسلوب الخبر المؤكد :

والمؤكدات التي جاء بها القرآن في شأن الوحدانية والتوحيد كثيرة متنوعة ومنها:

(ا) التأكيد بإنّ.

(ب) التأكيد باللام.

(جـ) التأكيد بالقسم.

ومثالها جميعا قوله تعالى ﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾(٣).

(د) التأكيد بأساليب القصر:

كأسلوب النفى والاستثناء. (لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠)(٤).

وأسلوب القصر (بإنما) ﴿ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾(٥)

---

(١) سورة الفاتحة الاية (١).

(٢) سورة البقرة الاية (١٦٣).

(٣) سورة الصافات الآية (١ ــ ٥).

(٤) سورة طه الآية (١٤).

(٥) سورة الأنعام الآية (١٩).

وأسلوب القصر بالتقديم والتأخير ﴿إياك نعبد﴾ فتقديم المفعول (إياك) أفاد قصر العبادة على الله تعالى وحده.

وأسلوب القصر بتعريف طرفي الجملة ﴿ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[1] فتعريف الخبر (ربى) أفاد أنه مقصور على المبتدأ، أي الربوبية مقصورة على الله تعالى:

٣ ـ أسلوب الطلب كالاستفهام التقريرى، أو الانكارى قال تعالى: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[3].

ومن هذا النوع الطلبى فعل الأمر مثل: ﴿قل هو الله أحد﴾ فإن نظرت إلى أول الجملة كانت انشائية طلبية لصدارة فعل الأمر (قل) وإن نظرت إلى مضمون الجملة أو مقول القول كانت خبرية، وفي الحالين هي إثبات للوحدانية، وأمر بالتوحيد على أبلغ الوجوه وأوفاها ولذلك كانت السورة المصدرة بهذه الآية الكريمة تعدل ثلث القرآن كما جاء في الحديث الصحيح.[4]

أسلوب الأمثال :

وهو باب في القرآن الكريم، يقصد به تقرير المعانى في نفس السامع، وتصويرها

---

(١) سورة الشورى الآية (١٠).

(٢) سورة يوسف الآية (٣٩).

(٣) سورة النمل الآية (٦٣).

(٤) انظر صحيح البخاري جـ٣، ص ٢٣٠ فضائل القرآن.

في صورة محسوسة ملموسة عن طريق التشبيه، أو الاستعارة أو غيرهما من أساليب البيان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[1].

فقد ضرب الله تعالى مثلا للذين يستنصرون بآلهة غير الله، صورهم فيه بأنهم يستنصرون بأضعف شيء، وكأنهم العنكبوت في بيتها الهش الذي تمزقه الريح، وتقتحمه الحشرات ويعبث به الصبيان فلا يغني عن أهله شيئا.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

فهذان مثلان: للمشرك في تخبطه وحيرته، وللموحد في راحته وسلامته، ولايستويان أبدا كما لا يستوى عبد مملوك يسومه سادته سوء العذاب، وعبد مملوك لمالك واحد لايشق عليه بكثرة الأوامر واختلاف المذاهب.

٥ ـــ أسلوب المحاورة :

وهو الذي يورد فيه الحديث عن التوحيد من خلال حوار يجري بين طرفين أو أكثر فيتقرر في النفس أكثر من الخبر المجرد.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾[3].

---

(١) سورة العنكبوت الآية (٤١ ـــ ٤٣).
(٢) سورة الزمر الآية (٢٩).
(٣) سورة مريم الآية (٤١،٤٢).

٦ ـ أسلوب القصة:

وهو أسلوب من أوسع أساليب القرآن في التوحيد وغيره، وقد عنى القرآن الكريم بهذا الأسلوب، وأكثر منه لما للقصة من تأثير في النفوس وسهولة في الحفظ، وانتشار وذيوع بين الناس وأوضح مثال لذلك قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه وأصنامهم وتحطيمه لها، وتقريره للتوحيد من خلال المشاهد المتتابعة التي جرت بينه وبين قومه كما قص الله علينا ذلك في عديد من سور القرآن الكريم كالشعراء، والصافات، والأنبياء ومنها: أنه بعد أن حطم الأصنام سألوه عليه السلام فسخر منهم، وأحالهم إلى الأصنام فرجعوا إلى أنفسهم يتلاومون ثم كان ما قصه القرآن الكريم ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾(١).

وفي هذا تقرير للتوحيد بأبلغ أسلوب وأقواه، ونفى للشرك على أتم وجه وأوفاه، فضلاً عما فيه من تحقير للاصنام، وسخرية بالغة بعبّادها، الذين ألغوا عقولهم، وخروا عليها صما وعميانا.

ثامنا : الاستدلال القرآني :

الدليل هو ما يتوصل به إلى معرفة صحة الشيء وصدقه، وإثبات هذه الصِّحّة بطريق من طرق الإثبات.

ولقد جاء القرآن الكريم يقرر مبادىء وتعاليم، ويقيم عليها دلائل صدقها وصحتها ويحث الناس علي طلب الدليل، وفهم البراهين.

---

(١) انظر سورة الأنبياء من الآية (٥١ ــ ٧٠).

وقد استوعب القرآن الكريم الاستدلال على صحة عقيدة الوحدانية وأنها الحق المبين وأن كل شريك أو معبود مع الله تعالى هو كذب وافتراء، بل كلها أصنام وأوهام لاحق فيها، بل لا حقيقة لها في باب الألوهية كما قال تعالى:

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ (٢٠) أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ (٢٢) إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴾(١).

والمعنى أن هذه التي تسمونها آلهة ليس لها من حقيقة الألوهية أدنى نصيب وإنما هي أسماء على غير حقائق كالغول، والعنقاء وغيرهما من الأشياء المتوهمة، ولذلك يقول القرآن متحديا المشركين:

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ ﴾(٢)

والمعنى: إن الله تعالى رقيب وعليم بكل شيء، وقد جعل له المشركون شركاء لا حقيقة لهم وإنما عبدوها بظنون من القول، وأوهام من الفكر باطلة.

ويقول تعالى منددا بالمشركين الذين يعبدون الأوهام المطلقة، تحت هذه الأسماء المخترعة ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾(٣).

---

(١) سورة النجم الآية (١٩ — ٢٣).

(٢) سورة الرعد الآية (٣٣).

(٣) سورة يونس الآية (١٨).

لذلك لم يترك القرآن دليلا يصلح لخطاب البشر الا أورده، على أتم الوجوه حتى لنقول إنه لم يسق الدليل على صحة الوحدانية أو وجوب التوحيد فقط، وإنما أوجب على الناس أن يتدبروا هذه الأدلة، وأن يفهموها ويحصّلوها ــ ولو إجمالا ــ حتى يكونوا على بينة في أعظم حقائق الوجود، وحتى يكون إيمانهم على غاية الاستقرار، ولذلك نوّع الأدلة في هذا تنويعا عجيبا حتى تناسب جميع الناس على اختلاف مستوياتهم وعصورهم.

أنواع الأدلة القرآنية :

وسنتحدث عن ثلاثة أنواع منها على سبيل الايجاز:

النوع الأول : الأدلة الحسية :

وهو الذي يستخدم فيه القرآن الكريم الكائنات للتدليل على وجود الله تعالى ووحدانيته، وسعة قدرته وعظيم حكمته.

والقرآن الكريم يتخذ كل شيء في الكون دليلا له، خاصة وجود الكون من العدم وانتظامه على قوانين مطردة، ونواميس محكمة، وقيامه على غاية التدبير، والتكامل بين أجزائه والعناية بما فيه من عجائب الأشياء والاحياء..

وفي كل هذا يتجه القرآن الكريم إلى الانسان مخاطبا قلبه وفكره، ومطالبا أن يتأمل بحسه هذه الموجودات، لينتقل من ملاحظتها في أوضاعها المختلفة إلى ما وراءها وليدرك من هذه المقدمات الحسية البدهية نتائجها القاطعة، فيعلم أن لهذا الكون ربا، موجدا، وإلها واحدا مطلق القدرة والإرادة، واسع العلم والحكمة.

وبذلك يدور الدليل بين السمع والبصر، والفكر والنظر، والمقدمات البدهية القريبة، والنتائج السهلة المسلّمة.

وهذا النوع على سهولته ويسره هو أقوى أنواع الأدلة، وأقربها إلى القلوب والنفوس وأعظمها في التأثير والاقناع، لدلالته على المطلوب بذاته ومن أقصر سبيل، بخلاف أدله الفلاسفة والمتكلمين التي تدل على المطلوب دلالة ناقصة، وتحتاج مقدماتها إلى برهنة ــ واستدلال في الغالب، بل قد تحتاج النتائج نفسها إلى دليل آخر خارج عنها، مما يعقد الاستدلال، لطول مقدماته، وكثرة وسائطه، وصعوبة طرقه، على أكثر الناس وذلك كاستدلالهم بحدوث العالم على أن له محدثا، ويستدلون على حدوث العالم، بتقسيمة إلى جواهر وأعراض، ثم يثبتون حدوث كل منها بمقدمات طويلة، وكل هذا ينتهى إلى أن للعالم محدثا، وهذه نتيجة ناقصة لأنها لم توصلنا إلى من هو المحدث؟ وهذا يحتاج إلى دليل آخر لإثباته.

ولكن القرآن العظيم يطوى هذا الشتات، ويضع الانسان أمام حقائق الكون مباشرة ليوقن بنفسه أن الذى أبدع هذا الكون ونظمه إله واحد، هو الله رب العالمين، الذي صدّق المرسلين فيما بلغوه عنه جل شأنه.

ولذلك يحض سبحانه وتعالى عباده علي النظر في الكون جملة:
﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾[1] ويأمر سبحانه بالنظر في دقائق هذا الكون:
﴿ قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[2].

ويلفت حواسهم وقلوبهم إلى عجائب هذا الكون الكلية، والجزئية :
﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا

---

(١) سورة الأعراف الآية (١٨٥).
(٢) سورة يونس الآية (١٠١).

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾[1].

والآيات في هذا النوع كثيرة جدا، ومن أراد المزيد فليقرأ عجائب هذا الاستدلال في سورة الرحمن، والواقعة، والملك، والمرسلات، والنبأ، والنازعات، وعبس، والغاشية، والشمس، وغير ذلك في القرآن المجيد.

النوع الثاني : الأدلة النفسية :

وهي التى تعتمد في انتزاع الدليل على الوحدانية من داخل الإنسان لا من خارجه، ومن أعماق شعوره الداخلى، ووجدانه الباطنى، لا من مدركات حواسه المعروفة.

وهذا الدليل بالغ الأهمية للانسان، وفي قضية الإيمان بالذات حتى يخاطبه من خارجه ومن داخله جميعا، فتمتلىء نفسه يقينا لا يتسرب إليه ريب ولا قلق.

وكم من إنسان امتلأ عقله بالمعارف، والأرقام، وفنون الاحصاء، وامتلأت حواسه بعجائب هذا الكون ولكنه يمضى متبلد الاحساس بسبب تعطل وجدانه الداخلى كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[2].

---

(١) سورة ق: الآية (٦ ــ ١٠).

(٢) سورة الحج الآية (٤٦).

ومن هنا اهتم القرآن العظيم ببيان هذا الدليل النفسى، وساق الآيات تذكيرا للناس بهذا الجانب الفذ الذي أهملوه وعطلوه، وطمروه تحت ركام من الشبهات والشهوات التي رانت على قلوبهم فأظلمتها وأماتتها.

يخبرنا الله تعالى أن المشركين الذين يعطّلون التوحيد، ويشركون مع الله آلهة أخرى في كل شئون حياتهم، ويجادلون غاية الجدل دفاعا وحمية عن أوثانهم — يخبرنا الله تعالى أن هؤلاء يحملون في أعماق نفوسهم دليل الوحدانية، ويمضون صما وعميانا عنه في الرخاء، حتى إذا مستهم شدة جائحة انتفض الدليل في صدورهم حيًّا نابضاً حين لا تغنى الأصنام أو الأوهام عن أصحابها شيئا هم في أشد الحاجة إليه.

وفى ذلك يقول تعالى :
﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾(1).

ويسألهم القرآن سؤال تقرير عن حقيقة يعلمونها وإن كابروا فيها، ثم يكررها لهم زيادة في التقرير والتأكيد فيقول:
﴿ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾(2).

وينتزع لهم القرآن من حياتهم صورة واقعية حية، تعتمد على هذا المعنى الذي تتجه فيه النفوس إلى مالك القوى والقدر اتجاه شعور وفطرة، وخضوع ودعاء، وتنسى ما عداه سبحانه حين تكتنفها الأخطار الماحقة:

---

(1) سورة الاسراء الآية (٦٧).
(2) سورة الأنعام الآية (٤٠، ٤١).

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾(١).

النوع الثالث : الأدلة العقلية :

وهي الأدلة التي تعتمد على عمليات نظرية فكرية، كترتيب المقدمات واستخراج نتائجها حسب ضوابط وقوانين وراء بداهة الحس، ومشاعر النفس، وإن كان الإدراك في الجميع راجعا إلى العقل: والأدلة العقلية أوسع مدى من أشكال المنطق اليوناني، وضروبه المنتجه، لذلك لم يتقيد القرآن العظيم بهذا النمط الفكرى، وإنما جاء على نمط خاص في الاستدلال العقلى هو ضرب من إعجازه.

وقد استخرج العلماء منه أنواعا كثيرة منها:

١ ــ الدليل البدهى :

وهو الذي يقوم على استخدام الحقائق المشهورة، والبديهات المستقرة في ابتناء الدليل عليها فيذعن الخصم للدليل اذعانا إن كان منصفا.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ﴾(٢).

فحيث تقرر أن الولد لايكون من غير أم، فقد بنى القرآن على هذه الحقيقة المسلّمة دليل بطلان ما نسبوه إليه من الولد، لأنه ليس له صاحبة فمن أين يأتى الولد؟.

---

(١) سورة يونس الآية (٢٢).

(٢) سورة الأنعام الآية (١٠١).

والدليل كما نرى سهل واضح يشبه الدليل الحسى في كونه يدل على المطلوب مباشرة ولا يحتاج إلى مقدمات تنظم على وجه مخصوص، ولابد من دليل على النظرى منها، وغير ذلك من التعقيدات التي تصرف الذهن عن المطلوب الأصلى بكثرة الوسائط، والأشتغال بالمقدمات والاستدلال عليها ثم على نتائجها أحيانا.

٢ ـ دليل التمانع : وهو مأخوذ من قوله تعالى:
﴿ لَوْكَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[١].

وتقرير هذا الدليل أن يقال:
لو كان للعالم صانعان لكان تدبيرهما لايجرى على نظام، ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما.

وذلك لأنه لو أراد أحدهم إحياء جسم وأراد الآخر إماتته فحيئذ :
إما أن تنفذ إرادتهما معا فيتناقض لاجتماع الضدين.

وإما ألا تنفذ إرادتهما معا فيؤدى إلى عجزهما، أولا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدى إلى عجزه والإله لايكون عاجزا فبطل ما أدى إليه وهو افتراض التعدد، وثبت نقيضه وهو (الوحدانية) الموجبه لاعتقاد (التوحيد).

٣ ـ دليل التسليم :
وهو الذي يسلّم فيه بوقوع المستحيل تسليما جدليا، ثم يستدل على عدم فائدة هذا المحال على تقدير وقوعه ومثاله قوله تعالى:

---

(١) سورة الأنبياء الآية (٢٢).

﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[1].

ومعنى الآية الكريمة :

ليس معه تعالى من إله، ولو سلم جدلا أن معه إلها لزم من ذلك التسليم ذهاب كل إله من الاثنين بما خلق، واستعلاء بعضهم على بعض، فلا يتم في العالم أمر، ولا ينفذ حكم ولاتنتظم أحواله، والواقع المشاهد خلاف ذلك، ففرض إلهين فصاعدا محال لما يلزم عليه من المحال[2].

الشرك ظنون وأوهام :

وفي ختام هذا الاستدلال على صحة التوحيد، يبرز القرآن العظيم وجها آخر من وجوه الاستدلال، حين يطالب المشركين ويتحداهم أن يقيموا دليلا واحدا ــ من أى نوع ــ على صحة عقيدتهم فلا يستطيعون، بل لا يملكون الا التعلق بالظنون والأوهام، والاحتجاج بفعل آبائهم الذين قال عنهم القرآن: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[3].

ومن هذا التحدى الشامل قوله تعالى:

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾[4].

---

(١) سورة المؤمنون الآية (٩١).

(٢) راجع كتاب الاتقان في علوم القرآن للسيوطي (النوع الثامن والستين) جـ٢ ص٣٦ ومابعدها، وفيه تفصيلات عديدة من هذه الأدلة.

(٣) سورة البقرة الآية (١٧٠)

(٤) سورة الاحقاف الآية (٤).

أي إن الآلهة التي تعبدونها لم تخلق شيئا في الكون، وليس عليها دليل من كتب الله المنزلة، ولا بقيةٍ من أثر علمى صحيح، وان ادعيتم شيئا من ذلك فأثبتوه إن كنتم صادقين. ولما كانوا عاجزين عن ذلك بين القرآن الكريم حقيقة عقائدهم، وأنها مجرد ظنون فاسدة قال تعالى:

﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾(١).

ويقول عن أصنامهم :
﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾(٢).

فالحمد لله الذي جاءنا بهذا الهدى، وعلمنا الحق الذي قامت على صحته أدلة الحس والنفس، والعقل والنقل، ليزداد الذين آمنوا إيمانا، وليكونوا على غاية اليقين بوحدانية رب العالمين، وبأن دينه هو الحق المبين، والصراط المستقيم(٣).

الموضوع الثاني : الملائكة المكرمون.

سنتحدث في هذا الموضوع عن أهم أوصاف الملائكة، ووظائفهم في ضوء القرآن الكريم.

والإيمان بالملائكة من أركان العقيدة قال الله تعالى في صفة عقيدة المؤمنين

---

(١) سورةس آل عمران الآية (١٥٤).
(٢) سورة النجم الآية (٢٣).
(٣) الوحدانية والتوحيد في ضوء القرآن للدكتور عبد الستار السعيد.

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾(1).

وقد بين الله ضلال من يكفر بالملائكة بقوله تعالى: ﴿ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾(2).

ولقد جاء الحديث مستفيضاً عن الملائكة في القرآن الكريم في مناسبات متعددة، في نحو خمس وسبعين آية من نحو ثلاث وثلاثين سورة.

وجاء في كثير من أحاديث الرسول ﷺ التنصيص على أن الإيمان بالملائكة جزء من أركان العقيدة الإسلامية، كما في حديث جبريل المشهور ومنه «فأخبرني عن الإيمان، قال: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»(3).

فمن أنكر وجود الملائكة فهو منكر لكلام الله ورسوله، كافر لا محالة، إذ لا مجال للتأويل، فالنصوص واضحة صريحة قاطعة، والعلم بوجود الملائكة مما هو معلوم من الدين بالضرورة عند جميع المسلمين.

ـ خَلْقُ الملائكة :

لا نستطيع أن نعرف من حقيقة الملائكة إلا ما جاءنا عن رسول الله ﷺ، لأننا بحسب العادة لا نتصل بهم عن طريق الحس اتصالاً يفيد العلم اليقيني،

---

(1) سورة البقرة الآية (٢٨٥).

(2) سورة النساء الآية (١٣٦).

(3) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان جـ١ ص٣٧.

حيث نكشف حقيقتهم ونحدّ تكوينهم، وحسبنا في العقيدة أن نقتصر على ماوردت به النصوص دون أن نجرى وراء التكهنات، فطبيعة خلقهم لايعلمها إلا الله، قال تعالى في ذم المشركين الذين يقولون في الملائكة ما لايعلمون ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾[1]

أما مادة خلقهم التى خلقوا منها.

فقد ثبت في صحيح مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ «خلقت الملائكة من نور وخلق الجانّ من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»[2].

ـــ متى خلقوا ؟

لا ندرى متى خلقوا، فالله تعالى لم يخبرنا بذلك، ولكننا نعلم أن خلقهم سابق على خلق آدم أبي البشر، فقد أخبرنا الله أنه أعلم الملائكة بأنه سيجعل في الأرض خليفة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[3].

والمراد بالخليفة آدم عليه السلام وأمرهم بالسجود له حين خلقه ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾[4].

ومن أبرز خصائص الملائكة أنهم عباد مكرمون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

---

(١) سورة الزخرف الآية (١٩).
(٢) صحيح مسلم جـ٤ ص٢٢٩٤.
(٣) سورة البقرة الآية (٣٠)
(٤) سورة الحجر الآية (٢٩)

ـ عظَمُ خلْقهم :

قال تعالى في وصف ملائكة النار: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ﴾[1].

ويمكن أن نجمل الحديث عن الملائكة في النقاط التالية:

١ ــ **الملائكة قادرون** على [التّمثّل] بأمثال الأشياء و[التّشكل] بالأشكال الجسمانية.

كما في قصة نزول جبريل عليه السلام على مريم، وقد انتبذت من أهلها مكانا شرقيا، وتمثله لها بشراً سوياً، قال الله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴾[2].

وكما في قصة ضيف إبراهيم عليه السلام كما ورد في سورة الذاريات قال تعالى: ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴾[3] إلخ.

---

(١) سورة التحريم الآية (٦).
(٢) سورة مريم الآية (١٦ ــ ١٩).
(٣) سورة الذاريات الآية (٢٤،٢٥).

٢ ـــ **للملائكة قدرات خارقة** بما وضع الله فيهم من القدرات العجيبة فمنهم، من يحمل عرش الرحمن كما قال تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوۡمَئِذٖ وَاهِيَةٞ وَٱلۡمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرۡجَآئِهَاۚ وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ﴾(١)، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾(٢) ومنهم من ينفخ نفخة يصعق لها من في السموات والأرض إلا من شاء الله. قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾(٣).

٣ ـــ **للملائكة أجنحة** : كما أخبر الله بذلك في سورة فاطر فقال تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾(٤).

٤ ـــ **جمال الملائكة** :خلقهم الله على صور جميلة كريمة قال تعالى في جبريل: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ﴾(٥).

قال ابن عباس [ذو مرة] ذو منظر حسن، وقال قتادة: ذو خلْق طويل حسن، وقيل ذو قوّة .. ولا منافاة بين القولين، فهو قوى وحسن المنظر.

وقد تقرر عند الناس وصف الملائكة بالجمال كما تقرر عندهم

---

(١) سورة الحاقة الآية (١٦،١٧).
(٢) سورة غافر الآية (٧).
(٣) سورة الزمر الآية (٦٨).
(٤) سورة فاطر الآية (١).
(٥) سورة النجم الآية (٥،٦).

وصف الشياطين بالقبح، ولذلك تراهم يشبهون الجميل من البشر بالملك، انظر إلى ما قالته النسوة في حق يوسف الصديق عندما رأينه: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾(١).

٥ ــ **لايوصفون بالذكورة والأنوثة:** من أسباب ضلال بنى آدم في حديثهم عن عوالم الغيب أن بعضهم يحاول إخضاع هذه العوالم لمقاييسه البشرية الدنيوية، فنرى البعض منهم يكتب في بعض الصحف ويستغرب من أن جبريل كان يأتي الرسول ﷺ بعد ثوان من توجيه السؤال إلى الرسول ﷺ يحتاج إلى جواب من الله، فكيف يأتي بهذه السرعة الخارقة، والضوء يحتاج إلى ملايين السنوات الضوئية ليصل إلى بعض نجوم السماء؟.

ومادرى هذا المسكين أن مثله كمثل بعوضة تحاول أن تقيس سرعة الطائرة بمقياسها الخاص، لو تفكر في الأمر لعلم أن عالم الملائكة له مقاييس تختلف تماماً عن مقاييسنا نحن البشر.

ولقد ضل في هذا المجال مشركو العرب الذين كانوا يزعمون أن الملائكة إناثا، واختلطت هذه المقولة المجافية للحقيقة عندهم بخرافة أعظم وأكبر، إذ زعموا أن هؤلاء الإناث بنات الله، وناقشهم القرآن الكريم في هاتين القضيتين، فبين أنهم ــ فيما ذهبوا إليه ــ لم يعتمدوا على دليل صحيح، وأن هذا القول قول متهافت، ومن عجبٍ أنهم ينسبون لله البنات وهم يكرهون البنات، وعندما يبشر أحدهم بأنه رزق بنتا يظل وجهه مسوداً وهو كظيم، وقد يتوارى من الناس خجلاً من سوء ما بشر به.

---

(١) سورة يوسف الآية (٣١).

وقد يتعدى هذا المألوف طوره فيدس هذه المولودة في التراب، ومع ذلك كله ينسبون لله الولد، ويزعمون أنهم إناث وهكذا تنشأ الخرافة وتتفرع في عقول الذين لا يتصلون بالنور الإلهي[1].

استمع إلى الآيات التالية تحكى هذه الخرافة وتناقش أصحابها: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2].

وقد جعل الله قولهم هذا شهادة سيحاسبهم عليها، فإن من أعظم الذنوب القول على الله بغير علم: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾[3].

٦ ــ **لا يأكلون ولا يشربون**: فقد أخبرنا الله تعالى أن الملائكة جاؤا إلى إبراهيم عليه السلام في صورة بشر فقدم إليهم الطعام فلم تمتد أيديهم إليه فأوجس منهم خيفة، فكشفوا له عن حقيقتهم فزال خوفه واستغرابه قال تعالى ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾[4].

---

(١) انظر عالم الملائكة الأبرار للشيخ عمر سليمان الأشقر ص١٤.

(٢) سورة الصافات الآية (١٤٩ ــ ١٥٧).

(٣) سورة الزخرف الآية (١٩).

(٤) سورة الذاريات الآية (٢٤ ــ ٢٨).

وقال في آية أخرى ﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴾(١).

٧ ــ **لايملّون ولايتعبون** : فالملائكة الكرام يقومون بعبادة الله وطاعته وتنفيذ أوامره، بلا كلل ولا ملل، ولا يدركهم ما يدرك البشر من ذلك، قال تعالى في وصف الملائكة ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾(٢).

ومعنى لايفترون : لايضعفون، وفي الآية الأخرى ﴿ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ﴾(٣).

٨ ــ **عــددهم** : الملائكة خلق كثير لايعلم عددهم إلا الذي خلقهم ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾(٤).

٩ ــ **أصناف الملائكة ووظائفهم**: وقد دلت النصوص الشرعية على أن الملائكة أصناف، كما ثبت أن لكل منهم وظائف وفيما يلي طائفة من ذلك:

(ا) أكابر الملائكة ، ومنهم جبريل وميكائيل «ميكال» قال الله تعالى في التنويه بهما ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴾(٥).

---

(١) سورة هود الآية (٧٠).
(٢) سورة الأنبياء الآية (٢٠).
(٣) سورة فصلت الآية (٣٨).
(٤) سورة المدثر الآية (٣١).
(٥) سورة البقرة الآية (٩٨).

أما جبريل عليه السلام فهو صاحب الوحي إلى الأنبياء والرسل عليهم السلام قال تعالى منوهاً بوظيفته هذه وأمانته فيها ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾(1).

كما بين تعالى أفضليته إذ شرفه فخصه بالذكر، وقدمه في الترتيب على سائر الملائكة في القرآن الكريم، وجعله ناصراً لرسوله في معرض تهديد نساء الرسول إذ تظاهرن عليه فقال تعالى: فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ(2) وسماه الله روح القدس [أي خلاصة الطهارة وأصلها وسرها] وذلك تكريماً له فقال تعالى وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ(3).

ومدحه الله بست صفات في معرض تبليغه نص القرآن لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه فقال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾(4).

فهو : رسول، وفي ذلك اصطفاء له بهذه المهمة من بين الملائكة، وهو كريم، وفي ذلك تشريف عظيم له، وهو : ذو قوة، وهو: مكين عند الله، أي: ذو مكانة عاليه، وهو مطاع بين الملائكة وهذا يدل على رياسته، وهو أمين في تبليغ رسالات ربه القولية والعملية.

أما ميكائيل [ميكال] فقد ورد أنه صاحب أرزاق العباد الموكل بها،

(1) سورة الشعراء الآية (١٩٢ ــ ١٩٤).
(2) سورة التحريم الآية (٤).
(3) سورة البقرة الآية (٨٧).
(4) سورة التكوير الآيات (١٩ ــ ٢١).

قال الحافظ ابن كثير في كتابه [البداية والنهاية] ميكائيل موكل بالقطر والنبات اللذين يخلق منهما الأرزاق في هذه الديار، وله أعوان يفعلون مايأمرهم به بأمر ربه[1].

ومن جملة أكابر الملائكة الذين وردت أخبارهم (إسرافيل وعزرائيل).

أما إسرافيل : فقد ورد أنه صاحب الصور[2]، الذي ينفخ فيه بأمر الله النفخة الأولى فيهلك من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله استثناءهم من الموت بهذه النفخة، لأن الله يتولى قبض أرواحهم بدون وساطة نفخة الصور، ثم ينفخ فيه النفخة الثانية للبعث إلى الحياة بعد الموت.

قال تعالى في بيان ذلك: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾[3].

أما عزرائيل : فهو ملك الموت كما جاء في بعض الأخبار المأثورة، والظاهر أنه رئيس ملائكة الموت، ولم يصرح بذكر اسمه في القرآن الكريم ولا في الأحاديث الصحاح، ولكن جاءت تسميته في بعض الآثار بعزرائيل[4].

---

(١) البداية والنهاية جـ١ ص٥٠.
(٢) انظر البداية والنهاية لابن كثير جـ١ ص٤٩.
(٣) سورة الزمر الآية (٦٨).
(٤) انظر البداية والنهاية لابن كثير جـ١ ص٥٠.

وقد صرح القرآن بوجود ملك للموت فقال تعالى: ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾(1).

(ب): حملة العرش: قال تعالى ﴿ وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾(2).

(جـ): الحافّون من حول العرش: قال تعالى: ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾(3).

(د): ملائكة الجنة: قال تعالى في وصف أهل الجنة: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾(4).

(هـ): ومنهم من يمدّ الله بهم المجاهدين في سبيله، وتثبيتهم بهم كما قال تعالى: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴾(5).

وقال تعالى: ﴿ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي

---

(1) سورة السجدة الآية (١١).

(2) سورة الحاقة الآية (١٦، ١٧).

(3) سورة الزمر الآية (٧٥).

(4) سورة الرعد الآية (٢٣، ٢٤).

(5) سورة الأنفال الآية (٩).

فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾(١).

(و): ملائكة النار: واسمهم الزبانية، وقد وصف الله سقر مبينا أن المشرفين على العذاب فيها تسعة عشر من الملائكة فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ﴾(٢) وقال في تسمية ملائكة التعذيب بالزبانية مهدداً بهم الكافر المتعنّت ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴾(٣).

ورئيس ملائكة النار وخازنها اسمه [مالك] والدليل على ذلك قوله تعالى حكاية لما يقوله أهل النار وهم مقيمون في العذاب ﴿وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴾(٤).

(ز): الملائكة الموكلون ببنى آدم: وهؤلاء أصناف، ولكل صنف منهم وظائف وفيما يلي طائفة منهم وردت بهم النصوص.

١ ــ فمنهم الموكلون بنفخ الأرواح في الأجنة، وكتابة مستقبل أعمالها وآجالها وأرزاقها وسعادتها أو شقاوتها ففى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً نطفة، ثم يكون علقة مثل

(١) سورة الأنفال الآية (١٢).
(٢) سورة المدثر الآية (٢٧ ــ ٣١).
(٣) سورة العلق الآية (١٥ ــ ١٨).
(٤) سورة الزخرف الآية (٧٧).

ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً بأربع كلمات: فيكتب عمله وأجله ورزقه وشقى أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح. إلى آخر الحديث»(١).

٢ ـــ منهم الملائكة الموكلون بمراقبة أعمال المكلفين، وحفظها، وتسجيلها وكتابتها في صحف الأعمال، وعندهم القدرة على علم جميع ما يفعله الناس من خير وشر، فيحصون إحصاءاً تاماً دونما غفلة عن شيء منه أو نسيان. ولكل انسان موكلان من الملائكة بمراقبة أعماله وتسجيلها، وهؤلاء الملائكة الملازمون لنا هم معنا ولكنهم غائبون عن إحساسنا فنحن نؤمن بهم كما ثبت في نصوص الشريعة دون أن نزيد على ذلك شيئاً من تخيلاتنا، مالم يرد به نص شرعي ثابت، فلا نبحث في كيفية كتابتهم ولا في الصحف الخاصة بهم لتسجيل أقوالنا وأفعالنا، ولا في الصحف التي يستخدمونها، كما لانبحث في كيفية ملازمتهم لنا لأنها أمور من الغيب تتناسب مع أوضاع الملائكة وأحوالهم المغيبة عن مجالات إحساساتنا المادية.

وقد أثبت القرآن الكريم هذا الصنف من الملائكة فقال تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾(٣).

---

(١) انظر صحيح البخاري بحاشية السندي جـ٢ وصحيح مسلم كتاب القدر جـ٤ ص٢٠٣٦.

(٢) سورة ق الآية (١٧، ١٨).

(٣) سورة الانفطار الآية (٩ ـــ ١٢).

٣ ــ ومنهم المعقبات الحفظة الذين يحفظون الناس بأمر الله من شر كل ذى شر خفى أو ظاهر فلا يصيب الإنسان شيء منها إلا إذا كان فيه قضاء وقدر من الله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾(١). وقال تعالى مشيراً إلى هذا الصنف من الملائكة ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾(٢).

٤ ــ ومنهم ملائكة الموت الموكلون بقبض الأرواح: وقد جاء التعبير عن هذا الصنف من الملائكة في القرآن الكريم بأنهم رسل الله تعالى للقيام بهذه الوظيفة فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ﴾(٣).

كما جاء التعبير عن الموكل بالإماتة في القرآن أيضاً بأنه ملك الموت فقال تعالى: ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ تُرۡجَعُونَ﴾(٤).

وقد تقدم بأن رئيس هذا الصنف من الملائكة عزرائيل كما ورد في الأثر(٥).

وقد قسم الله ملائكة الموت إلى قسمين: النازعات، والناشطات، قال المفسرون النازعات: الملائكة التي تنزع أرواح الكافرين بشدة وعنف

---

(١) سورة التوبة الآية (٥١).
(٢) سورة الرعد الآية (١١).
(٣) سورة الانعام الآية (٦١).
(٤) سورة السجدة الآية (١١).
(٥) انظر ص ٢٠٨ من هذا الكتاب.

وتعذيب، والناشطات الملائكة التى تأخذ أرواح المؤمنين برفق ولين قال تعالى: ﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ۝١ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ﴾[1].

٥ ــ الملائكة الموكلون بأمور أخرى في هذا العالم الدنيوي وقد يكون من هذا الصنف: الصافات والزاجرات، والتاليات ذكراً والذاريات والحاملات وقراً، والجاريات يسراً، والمقسمات أمراً، إذا فسّرت بأنها زمرٌ من الملائكة، كما أورد ذلك طائفة من المفسرين[2] في قوله تعالى: ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ۝١ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ۝٢ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ۝٣﴾[3].

وقال تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا ۝١ فَٱلۡحَٰمِلَٰتِ وِقۡرٗا ۝٢ فَٱلۡجَٰرِيَٰتِ يُسۡرٗا ۝٣ فَٱلۡمُقَسِّمَٰتِ أَمۡرًا ﴾[4] والمقسمات أمراً هي الملائكة[5].

تلخيص عام عن الملائكة :

من خلال ما سبق من نصوص واستدلالات نستطيع أن نأخذ وصفاً جامعاً للملائكة حسب مادلت عليه النصوص الشرعية، فالملائكة مخلوقات غيبية عنا ذات أجسام نورانية لطيفة، لا نراهم في الحالات العادية، وهم قادرون على التشكل بالأشكال الجسمانية المختلفة المرئية لنا، ذوو قدرات خارقة، لا حصر لهم، مقربون إلى الله، طائعون، لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون مايؤمرون، ولا يتناكحون ولا يتناسلون، ولا يأكلون ولا يشربون، إنما هم عباد مكرمون يحملون رسالات ربهم في العالمين، ويؤدون

---

(١) سورة النازعات الآية (١،٢).
(٢) انظر تفسير بن جرير الطبري جـ٢٣ ص٣٣.
(٣) سورة الصافات الآية (١ ــ ٣).
(٤) سورة الذاريات الآية (١ ــ ٤).
(٥) انظر تفسير الطبري جـ٢٦ ص١٨٧.

وظائفهم في الأكوان بحسب مجرى الأقدار، على مراد الله العزيز الجبار..[1].

الموضوع الثالث : الأنبياء والمرسلون :

الإيمان بالأنبياء والمرسلين ركن من أركان العقيدة : كما هو معلوم، وقد نص القرآن الكريم على عقيدة الرسل والمؤمنين جميعاً فقال تعالى ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴾[2].

وجاء في الأحاديث الصحيحة أن النبي ﷺ عندما سئل عن الإيمان قال «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله .. إلى آخر الحديث» .

فعقيدة الإيمان بالله لاتنفك عن الإيمان برسله. لأن من مقتضى الإيمان بالله تصديق المؤيدين بتأييد الله لهم بالبراهين والمعجزات. ثم إن الإيمان بواحد من الرسل لاينفك عن الإيمان بجميع الأنبياء والرسل الصادقين، فموجب الإيمان في الكلِّ واحدٌ:

- **معنى النبّوة لغة** : مأخوذة من النبأ، أي الخبر قال تعالى: ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾[3].

أو من النَّبَاوَة : وهي الشيء المرتفع[4] يقال نبأ الشيء إذا ارتفع.

---

(١) انظر العقيدة الإسلامية وأسسها للدكتور عبد الرحمن حبنكة الميداني جـ٢ من ص ٦ ــ ٢٢، وكتاب عالم الملائكة الأبرار لعمر سليمان الأشقر ص ١٠ ــ ٥٦.

(٢) سورة البقرة الآية (٢٨٥).

(٣) سورة النبأ الآية (١،٢).

(٤) انظر النهاية في غريب الحديث لابن الأثير جـ٥، ص ٤.

وفي الاصطلاح الشرعى: اصطفاء الله عبداً من عباده بالوحى إليه.

ــ **معنى الرسالة** : في اللغة هي التوجيه بأمرٍ مّا، فالرسول هو الذي يتابع أخبار الذي بعثه.

وفي الاصطلاح الشرعى: هي تكليف الله نبياً من أنبيائه بتبليغ شريعته للناس.

ــ **الفرق بين النبي والرسول** :

النبي هو : انسان من البشر أوحى الله تعالى إليه بشرع، ولكنه لم يكلف بالتبليغ.

أما الرسول فهو : انسان من البشر أوحى الله إليه بشرع، وأمره بتبليغه، فالرسالة إذاً أعلى مرتبة من النبوة، لأن كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا[1].

ــ **بداية الرسل** : آدم عليه السلام هو أبو البشر، وهو مكلف باتباع منهج الله والاهتداء بهديه، وقد أودع الله عنده من المعلومات ما ينير له ولأولاده الطريق ويهديهم الصراط المستقيم ويقيم لهم الحياة على منهاج واضح سليم، وقد حصل الجدل في وجود آدم عليه السلام حتّى من الملائكة: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[2].

---

(١) النهاية في غريب الحديث لابن الأثير جـ٥، ص ٤.

(٢) سورة البقرة الآية (٣٠).

وقد تفوق آدم عليه السلام على الملائكة بما أودع الله عنده من أصول المعلومات فقال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[1].

وسؤال الملائكة لم يكن من قبيل الاعتراض على حكمة الله في وجود آدم أو الحسد لآدم وذريته كما حصل من إبليس لعنه الله، بل سؤال الملائكة من قبيل الاسترشاد والتأمل في خلق الله وبدائع صنعه، ولهذا سلموا لأمر الله وحكمته وأرجعوا الأمر لله وحده ﴿قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[2].

وللتدليل على تفوق آدم عليه السلام في علمه على الملائكة أمره الله بإظهار ذلك بقوله ﴿قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾[3].

وقد خلق الله تعالى آدم عليه السلام وجعل فطرته سويّة يعبد الله ولا يشرك به شيئاً، واستمر الأمر على ذلك ردحاً من الزمن وعقيدة التوحيد صافية نقية، حتى حدث الشرك في بنى آدم وانحرف بعضهم عن فطرة الله التي فطر الناس عليها من الإيمان به وتوحيده واتباع شرعه وهداياته.

فاقتضت حكمة الله أن يجدد للناس دينهم الخالص ويبعث فيهم من يهديهم صراطه المستقيم ويعيدهم إلى دين الفطرة وهو التوحيد فكانت رسالة نوح عليه

---

(١) سورة البقرة الآية (٣١).
(٢) سورة البقرة الآية (٣٢).
(٣) سورة البقرة الآية (٣٣).

السلام، فهو أول الرسل بعد حدوث الشرك في بنى آدم. والله تعالى يقرر هذه الحقيقة بقوله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[1].

وقد ورد في الحديث عن ابن عباس رضى الله عنهما قال «كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين»[2].

ومعنى هذا أن آدم عليه السلام وأولاده قبل زمن نوح عليه السلام كانوا على التوحيد والفطرة السويّة، قال ابن كثير رحمه الله وهذا يرد قول من زعم من أهل التواريخ وغيرهم من أهل الكتاب أن [قابيل] وبنيه عبدوا النار[3].

واعلم أن أول الرسل نوح عليه السلام كما ثبت في حديث الشفاعة[4]، والأوليّة هنا نسبية، أي أول رسول إلى أهل الأرض بعد حدوث الشرك في بني آدم، وليست أولية مطلقة فإن آدم عليه السلام نبي رسول.

فقد روى ابن حبان في صحيحه عن أبي ذر قال: قلت يارسول كم الأنبياء؟

---

(١) سورة البقرة الآية (٢١٣).

(٢) هذا الأثر رواه الحاكم في المستدرك جـ٢، ص ٥٤٦ ــ ٥٤٧ وقال: هذا حديث صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى، وذكر الحافظ بن كثير في البداية جـ١، ص ١١٠ أنه في صحيح البخارى ولكننى فتشت عنه فلم أجده فالله أعلم.

(٣) البداية والنهاية جـ١، ص ١١٠.

(٤) انظر صحيح البخارى بحاشية السندى جـ٤، ص ٢٧٩.

قال «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً» قلت يارسول الله كم الرسل منهم؟ قال «ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير» قلت يارسول الله من كان أولهم؟ قال: آدم، قلت يارسول الله نبي مرسل؟ قال: نعم، خلقه الله بيده ثم نفخ فيه من روحه ثم سواه قبلاً»(١).

وجاء في ذكر وفاة آدم ووصيته إلى ابنه شيث عليه السلام من حديث أبي ذر عن رسول الله ﷺ «إن الله أنزل مائة صحيفة وأربع صحف، على شيث خمسين صحيفة»(٢).

فآدم وشيث وإدريس عليهم السلام أنبياء رسل، وكلهم قبل نوح عليه السلام، قال تعالى في حق إدريس عليه السلام ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ۝٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾(٣).

ولكن رسالاتهم تأكيد لدين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، ورسالاتهم محدودة بقدر ما يحتاجه البشر آن ذاك من الهداية والتوجيه، فلما حدث الشرك وظهرت الوثنية أرسل الله نوحاً عليه السلام إلى قومه بالإنذار والتخويف من عذاب الله كما قال تعالى ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾(٤).

وبدأت الخصومة بين الأنبياء وأممهم في تقرير العقيدة، وهي الدين الخالص لله رب العالمين.

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير جـ١، ص ٨١.
(٢) قصص الأنبياء لابن كثير جـ١، ص ٨٤.
(٣) سورة مريم الآية (٥٦،٥٧).
(٤) سورة نوح الآية (١).

وأيد الله رسله بالبينات والحجج الدامغات والبراهين الساطعات، فكانت بعثة الأنبياء رحمة للإنسانية تنير لهم الطريق وتهديهم صراط الله المستقيم، إن من واجبنا أن ننظر إلى النبوة والأنبياء من خلال القرآن الكريم، وبمنظار القرآن، ونستعرض كتاب الله الحكيم لنعرف مداها وآفاقها الواسعة، وأعماقها الغائرة وجذورها العميقة في الحياة الإنسانية، وسيطرتها على العقول والنفوس، والأخلاق والميول، وتأثيرها في تكوين السّير، وتشكيل المجتمعات وقيادتها للمدنيات، بل تأسيسها لحضارة خاصة متميزة في كل شيء[١].

ــ الحكمة من إرسال الرسل :

من رحمة الله بعباده .. ومن جميل لطفه بهم وإحسانه إليهم أن بعث إليهم الأنبياء والمرسلين مبشرين ومنذرين، ليكونوا منارات للهدى وأعلاماً للفضيلة، ونجوماً زاهرة في سماء الإنسانية، تضيء للعالم طريق الخير، وترشدهم إلى السعادة، وتنقذهم من براثن الشرك والوثنية، وتسمو بهم إلى مدارج العز والكمال.

وقد جرت سنة الله في خلقه ألاّ يعاقب أمة قبل أن يبعث إليها رسولاً يدعوهم إلى الخير والبر، وينهاها عن السوء والشر، وذلك حتى لا يدع لأحد من البشر عذراً، ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[٢] ولئلا يقول الناس يوم القيامة ﴿ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ﴾[٣] أو يتخذوا منها ذريعة لعدم الإيمان، أو حجة على الله تعالى في عدم استحقاقهم للعذاب ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾[٤].

(١) انظر النبوة والأنبياء لأبي الحسن الندوى، ص ٧.

(٢) سورة الأسراء الآية (١٥).

(٣) سورة المائدة الآية (١٩).

(٤) سورة طه الآية (١٣٤).

وقال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[1]

فكانت حكمة الله ورحمته بعباده أن يقيم لهم موازين الحق والعدل ويفتح أعينهم على الهدى والرشاد، وينصب لهم الدلائل والبراهين حتى تقوم الحجة وتتضح المحجّة.

ـ وظائف الأنبياء والرسل :

وهي كثيرة ولكننا نوجز منها مايلي:

أولاً دعوة الخلق جميعاً إلى عبادة الله وحده وترك ما يعبد من دونه، وهذه هي الوظيفة الأساسية للرسل كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾[2] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾[3]

ثانياً تبليغ رسالات الله إلى البشر، وقد مدح الله أنبياءه بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾[4].

وقال في حق سيد الأنبياء محمد ﷺ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ

---

(١) سورة النساء الآية (١٦٥).
(٢) سورو الأنبياء الآية (٢٥).
(٣) سورة النحل الآية (٣٦).
(٤) سورة الأحزاب الآية (٣٩).

﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾(1).

ثالثاً هداية الناس، وإرشادهم إلى الصراط المستقيم قال تعالى في شأن موسى عليه السلام ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾(2).

وقال عن نبينا محمد ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾(3).

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(4).

رابعاً ليكونوا قدوة حسنة وأسوة صالحة للبشر قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾(5).

وقال تعالى بعد ذكر مجموعة من الأنبياء ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾(6).

خامساً التذكير بالنشأة والمصير، وتعريف الناس بما بعد الموت من شدائد وأهوال: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ

---

(1) سورة المائدة الآية (٦٧).
(2) سورة إبراهيم الآية (٥).
(3) سورة الأحزاب الآية (٤٥،٤٦).
(4) سورة الشورى الآية (٥٢).
(5) سورة الأحزاب الآية (٢١).
(6) سورة الأنعام الآية (٩٠).

ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾[1].

سادسا تحويل اهتمام الناس من الحياة الفانية إلى الحياة الباقية، وهي الدار الآخرة: وليس معنى هذا أن يتركوا أسباب العيش، وما جعله الله قواماً لحياتهم الدنيا فإن الإسلام جاء بمطالب الروح والجسد معاً، ولكن المراد من هذا صرف أنظار المؤمنين إلى أن هذه الحياة محددة مؤقتة ستزول وتفنى، وتبقى الدار الآخرة هي دار القرار، فلمثل هذا فليعمل العاملون، وليتسابق في الدرجات العلى في الآخرة المتسابقون.

وقد وردت نصوص كثيرة تبين هذا المعنى قال تعالى ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾[3].

سابعاً وأخيراً لئلا يبقى للناس على الله حجة بعد الرسل[4] كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾[5].

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٣٠، ١٣١).
(٢) سورة العنكبوت الآية (٦٤).
(٣) سورة الحديد الآية (٢٠).
(٤) النبوة والأنبياء لمحمد على الصابونى، بتصرف.
(٥) سورة النساء الآية (١٦٥).

هذه أهم وظائف الرسل عليهم الصلاة والسلام متمثلة في تبليغ رسالات الله وقيادة البشرية إلى المثل العليا، ودلالتها على الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة.

ـ صفات الأنبياء :

إذا تتبعنا القرآن الكريم، واستعرضنا آياته التي تتحدث عن الأنبياء والرسل الكرام نجد فيها الذكر العاطر والثناء الحسن لهؤلاء الصفوة المختارة من عباد الله الصالحين، الذين أكرمهم الله بالنبوة واصطفاهم لحمل الرسالة، واختارهم من بين سائر الخلق ليكونوا حملة الهداية والإصلاح، وقادة ركب الإنسانية إلى السعادة .. فهم الصفوة المختارة من خلق الله وهم المثل العُليا للبشرية.

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾[(١)]

وكل نبى يكون من علية قومه نسبا وشرفاً، كما في صحيح البخارى وغيره «فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها»[(٢)].

والأنبياء عليهم الصلاة والسلام ـــ وإن كانوا من البشر ـــ يأكلون ويشربون، ويصحون ويمرضون، وينكحون النساء، ويمشون في الأسواق، وتعتريهم العوارض التي تمر على البشر من ضعف وشيخوخة وموت .. إلا أنهم يمتازون بخصائص، ويتصفون بأوصاف عظيمة جليلة، هي بالنسبة لهم من ألزم اللوازم، ومن أهم الضروريات، وهذه الصفات نلخصها فيما يلى:

---

(١) سورة الأنبياء الآية (٧٣).

(٢) صحيح البخارى جـ١، ص ٨ بدء الوحى.

أولاً الصدق : وهذه الصفة ملازمة للنبوة، وهي وإن كانت ضرورية للبشر، إلا أنها بالنسبة لدعوة الأنبياء صفة لازمة.

ولهذا يقول الله تعالى في حق النبي الكريم ﷺ ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (٤٧) وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1].

ثانياً الأمانة : وهي أن يكون أمينا على الوحي يؤديه دون زيادة أو نقص أو تحريف أو تبديل :

فالأنبياء مؤتمنون على الوحى وقد وصفهم الله بإبلاغ هذا الوحى ﴿الذين يبلغون رسالات الله﴾ وقال كل نبي لقومه ﴿إنى لكم ناصح أمين﴾ وقال عن نبينا محمد ﷺ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[2].

ثالثاً التبليغ : وهذه صفة ملازمة للرسالة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾[3].

فكل رسول مكلف بالتبليغ، وقد بلغوا رسالات الله، وكل نبي بلغ قومه، ومنهم نوح وصالح وهود، وشعيب، وغيرهم ممن أهلك الله أقوامهم لعدم استجابتهم للدعوة وكل من هؤلاء يقول لقومه ﴿لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم﴾.

رابعاً الفطانة : وهي الذكاء والنباهة، فلم يبعث أحد من الأنبياء إلا وكان

---

(١) سورة الحاقة الآية (٤٤،٤٨).
(٢) سورة النجم الآية (٣،٤).
(٣) سورة المائدة الآية (٦٧).

على جانب عظيم من النباهة والذكاء، مع كمال العقل والرشد ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾(١).

وإذا كان البشر يعتريهم النقص وتضعف قواهم العقلية وربما وصل بعضهم إلى حالة [الخرف] عند بلوغ سن الشيخوخة .. فإن الأنبياء الكرام يظلون في القمة العليا من رجاحة العقل وقوة التفكير مهما أمتدت أعمارهم، لأن الله أحاطهم بعنايته وحفظهم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

خامساً السلامة من العيوب المنفّرة : فإنه لايمكن أن تكون فيهم عيوب خلقية أو خلقية، تنفّر الناس من الاجتماع بهم أو اتباعهم والسماع لدعوتهم، كما أن الأمراض المنفرة كالبرص والجذام والتشويه الجسدى لايكون في أحد من الأنبياء عليهم السلام، وما روى عن [أيوب عليه السلام] من أنه مرض واشتد به المرض حتى تعفّن جسده وأصبح الدود يخرج من بدنه حتى عافه الجليس وأفرد في ناحية من البلد ولم يبق أحد من الناس يحنو عليه، فإن هذا من الأباطيل والأكاذيب التي نقلت عن (الإسرائيليات) ولايصح تصديقها أو الاعتقاد بها، لأنها تتنافى مع صفات الأنبياء، ومدار هذه الروايات على وهب بن منبه وهو ينقل كثيراً من أخبار بنى إسرائيل دون تمحيص وقد أشار ابن كثير في تفسيره إلى رواية وهب بن منبه في قصة بلاء أيوب عليه السلام، وقال: «وفيها غرابة»(٢).

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٢٤).

(٢) تفسير ابن كثير جـ٣، ص ١٨٨.

وقال محمد جمال الدين القاسمي في تفسيره عند ذكر بلاء أيوب عليه السلام ما نصه: «وقد روى المفسرون ههنا في بلاء أيوب روايات مختلفات، بأسانيد واهيات، لايقام لها عند أئمة الأثر وزن، ولا تعار من الثقة أدنى نظر، نعم يوجد في التورات سفر (لأيوب) فيه من شرح ضره، بفقد كل مقتنياته ومواشيه وآل بيته، وبنزول مرض شديد به، عدم معه الراحة ولذة الحياة، غرائب إلا أنها مما لايوثق بها جميعها، لما داخلها من المزيج، وتوسع بها في الدخيل، حتى اختلط الحابل بالنابل، وإن كان يؤخذ من مجموعها بلاء فادح ومرض مدهش، ولو علم الله خيراً في أكثر مما أجمله في تنزيله الحكيم، لتفضل علينا بتفصيله، ولذا يوقف عند إجماله فيما أجمل، وتفصيله فيما فصل .. اهـ[1].

والقرآن الكريم لم يذكر لنا نوع الضر الذي أصابه وإنما ذكر لنا أنه أصابه الضر، فدعا ربه ــ بعد أن اشتد الكرب والضر ــ فكشف الله عنه ما أصابه من كرب وبلاء، قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ﴾[2].

وقال تعالى في سورة (ص) ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾[3].

وإنما نسب ما جاءه من الضر إلى الشيطان، لأن الشيطان كان

---

(١) محاسن التأويل جـ١١، ص ٤٢٩٨.
(٢) سورة الأنبياء الآية (٨٣، ٨٤).
(٣) سورة ص الآية (٤١).

يوسوس إليه، ليتخلى عن صبره ورضاه بما قدر الله عليه من الضر والبلاء، ولكنه سد على الشيطان جميع المنافذ وصبر على البلاء واحتسب ذلك عند الله، لهذا قال تعالى عنه ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾[1].

وظاهر الآيات أن الضر الذي أصابه كان في جسمه وأهله، وهذا النوع من الضر يلحق البشر ويلحق الأنبياء، فإن المرض يعترى الأنبياء كما يعتريهم الموت، وليس في ذلك شيئ ينقص من قدرهم أو يزرى بمقامهم.

سادساً العصمة : سميت العصمة عصمة، لأنها تمنع من أرتكاب المعصية.

وأما في الشرع : فالعصمة هي : حفظ الله لأنبيائه ورسله عن الوقوع في الذنوب والمعاصى، وارتكاب المنكرات والمحرمات .. فالعصمة ثابتة للأنبياء عن جميع الصغائر والكبائر عمداً.

والصحيح الذي عليه المعول من أقوال العلماء هو: أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم معصومون عن المعاصى [الصغائر والكبائر] بعد النبوة باتفاق، وأما قبل النبوة فيحتمل أن تقع منهم بعض المخالفات اليسيرة التى لاتخل بالمروءة ولاتقدح بالكرامة والشرف[2].

---

(١) سورة ص الآية (٤٤).

(٢) انظر تفسير القرطبى وكلامه عن عصمة الأنبياء جـ١، ص ٣٠٨.

ـ عدد الأنبياء والرسل :

لانعرف عدداً معينا لجميع الرسل بطريق القطع، لأن الله تعالى قص على نبيه بعض الرسل والبعض الآخر لم يقصص أخبارهم عليه كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾[1].

ولكن ورد في بعض الآثار عن النبي ﷺ أن الأنبياء مائة واربعة وعشرون ألفاً وفي رواية مائة وعشرون الفاً، أما الرسل فهم قلة، وقد ورد أيضاً: أنهم ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً وهذه الأحاديث ذكرها ابن حبان في صحيحه والإمام أحمد في مسنده[2].

ويجب الإيمان بالأنبياء والرسل إجمالاً، كما يجب الإيمان بمن ذكر اسمه منهم في القرآن تفصيلاً، وعدد الأنبياء والرسل الذين ذكروا في القرآن الكريم خمسة وعشرون وهم على الترتيب:

١ ـ آدم ٢ ـ إدريس ٣ ـ نوح ٤ ـ هود ٥ ـ صالح ٦ ـ إبراهيم
٧ ـ لوط ٨ ـ إسماعيل ٩ ـ إسحاق ١٠ ـ يعقوب ١١ ـ يوسف
١٢ ـ شعيب ١٣ ـ موسى ١٤ ـ هارون ١٥ ـ داود ١٦ ـ سليمان
١٧ ـ أيوب ١٨ ـ ذو الكفل ١٩ ـ يونس ٢٠ ـ إلياس ٢١ ـ اليسع
٢٢ ـ زكريا ٢٣ ـ يحيى ٢٤ ـ عيسى ٢٥ ـ محمد ـ عليهم جميعاً الصلاة والسلام.

وقد ورد ذكر ثمانية عشر منهم في سورة واحدة، هي سورة الأنعام في قوله

---

(١) سورة غافر الآية ٧٨.
(٢) انظر مسند الإمام أحمد جـ٥، ص ٢٦٦، وقصص الأنبياء لابن كثير جـ١، ص ٨١.

تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[1].

والسبعة الباقون ورد ذكرهم في آيات متفرقة من كتاب الله تعالى وقد أشير إلى أسماء هؤلاء الرسل في بيتين من الشعر تسهيلاً للحفظ وهما:

في تلك حجتنا منهم ثمانيةٌ — من بعد عشر ويبقى سبعةٌ وهموا
إدريسُ، هودٌ، شعيبٌ صالح، وكذا — ذو الكفل، آدم، بالمختار قد ختموا

كما نظم أسماء الرسل مرتبة حسب إرسالهم الشيخ محمد الدمنهوري المتوفى سنة ١٢٨٨هـ فقال:

ألا إن إيماناً برسْلٍ تحتّما — وهم آدم، إدريس، نوحٌ، على الولا
وهودٌ، وصالحُ، لوطٌ، مع إبراهم أتى — كذا نجله اسماعيل، إسحاق، فضّلا
ويعقوب، يوسف، ثم يتلو شعيبهم، — وهارون، مَعْ موسى، وداود، ذو العلا
سليمان، أيّوبٌ، وذو الكفل، يونسٌ — وإلياس، أيضاً واليسعْ، ذاك فاعقلا
كذا زكريا، ثم يحيى، غلامه — وعيسى، وطه، خاتماً قد تكملا
وقد تم نظمى جمع رسْلٍ مرتباً — لهم حسْب إرسالٍ كما قاله الملا[2]

---

(١) سورة الأنعام الآية (٨٣،٨٦).

(٢) انظر مجموع المتون، ص ٤٥.

الفارق الأساسي بين الأنبياء والمرسلين، والحكماء والمصلحين:

إن أول وأهم ما يمتاز به معشر الأنبياء، أن العلم الذي ينشرونه بين الناس، والعقيدة التي يدعون إليها، والدعوة التي يقومون بها؛ لاتنبع من ذكائهم، أو حميتهم، أو تألمهم بالوضع المزرى الذي يعيشون فيه، أو من شعورهم الدقيق الحساس، وقلبهم الرقيق الفياض، أو تجاربهم الواسعة الحكيمة، لاشيء من ذلك، إنما مصدره الوحي والرسالة التي يُصْطَفون لها، ويكرمون بها، فلا يقاسون أبداً على الحكماء أو الزعماء، أو المصلحين وجميع أصناف القادة الذين جربتهم البشرية وتاريخ الإصلاح والكفاح الطويل، والذين هم نتيجة بيئتهم، وغرس حكمتهم، وصدى محيطهم، ورد فعْلٍ لما كان يجيش به مجتمعهم من فساد وفوضى؛ والقول الفصل في ذلك قول القرآن على لسان سيد الرسل ﷺ: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[1] وقول الله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[2] وقال: ﴿ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓا۟ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾[3]، وقوله بعدما ذكر من بعد الرسول عن البيئة التي حدثت فيها هذه الحوادث والوقائع التي يحكيها لقومه: وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ[4]، ويقول القرآن عن طبيعة الرسالة التي يختار لها الرسل، وعن مبدئها ومصدرها: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾[5].

---

(١) سورة يونس الآية (١٦).
(٢) سورة الشورى الآية (٥٢).
(٣) سورة القصص الآية (٨٦).
(٤) سورة القصص الآية (٤٦).
(٥) سورة النحل الآية (٢).

لذلك لايخضع الرسول لعوامل نفسية داخلية أو حوادث وقتية خارجية، ولايدير رسالته حيث دارت الأحوال والأوضاع، وشاء المجتمع، وقد قال الله تعالى عن رسوله الكريم: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾(١)، ولايستطيع أن يحدث تغييراً أو تبديلا أو تحويراً أو تعديلا في رسالته وأحكام الله، وقد قال الله لرسوله: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ۖ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾(٢) ونفى الله عنه المداهنة وعصمه عنها فقال: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾(٣) وقد أنذره بالعقاب الأليم المخزى إذا تجنى على الله أو قال مالم يقله، أو زاد أو نقص شيئاً من وحيه وكلامه فقال: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝٤٣ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾(٤)، وقد أمره بتبليغ الرسالة بنصها وفصها، وبرمتها وجملتها، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾(٥).

وهذه هي السمة الفاصلة الأساسية المميزة بين الأنبياء ــ صلوات الله عليهم ــ وبين القادة والزعماء، والذين تكون رسالتهم وكفاحهم وحى بيئتهم وثقافتهم ومشاعرهم، واستجابة للقلق الذي يساور المجتمع، ويساور النفوس الواعية، والذين يلاحظون دائماً البيئة والمجتمع والظروف والأحوال، ويراعون المصلحة والسياسة،

---

(١) سورة النجم الآية (٣،٤).
(٢) سورة يونس الآية (١٥).
(٣) سورة القلم الآية (٩).
(٤) سورة الحاقة الآية (٤٣،٤٧).
(٥) سورة المائدة الآية (٦٧).

ويخضعون لها في كثير من الأحوال، فيتنازلون عن أشياء كثيرة، وقد يتساومون مع الأحزاب ويتبادلون معها المنافع، ومبدأ كثير منهم الذي يأخذون به: «درْ مع الدهر كيف دار».

الحكمة والتيسير في دعوة الأنبياء وفي التشريع :

وليس معنى ذلك أن الأنبياء لايراعون الحكمة والمصلحة مطلقاً، ولايراعون طبائع الناس واستعدادهم ولا يتحرون لدعوتهم المكان الصالح والزمان الصالح، ونشاط النفوس وإقبال القلوب، ولايراعون التدريج والتيسير، كلا! إن كل ذلك مما تقتضيه طبيعة الدين السمحة، وحكمة الله البالغة، وفطرة الأنبياء الحكيمة، ونطقت به الآثار، وشهدت به الحوادث وزخر به تاريخ التشريع وسيرة الرسول، وقد قال القرآن: ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾[1]، وقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾[2]، وقال: يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ [3]، وقال: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[4].. وقد كان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه بالتيسير والتبشير، وقد قال رسول الله ﷺ لمعاذ وأبي موسى الأشعري لما بعثهما إلى اليمن: «يسرا ولا تعسرا، وبشر ولا تنفرا»[5]، قال لأصحابه: «إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين»[6]، وقد كان يرجئ تطبيق شيء فيه مصلحة جزئية لأجل مصلحة كلية هي أعظم وأهم منها، فقال لعائشة رضي الله عنها:

---

(١) سورة الاسراء الآية (١٠٦).

(٢) سورة الفرقان الآية (٣٢).

(٣) سورة البقرة الآية (١٨٥).

(٤) سورة الحج الآية (٧٨).

(٥) صحيح البخارى جـ٣، ص ٧٢.

(٦) صحيح البخارى جـ١، ص ٢٥.

لولا حداثة قومك بالكفر لنقضت البيت ثم لبنيته على أساس إبراهيم عليه السلام»[1]، وقال ابن مسعود رضى الله عنه: «كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام، كراهة السآمة علينا»[2] وعن جابر بن عبد الله: «كان معاذ بن جبل يصلى مع النبي ﷺ، ثم يرجع فيؤم قومه، فصلى العشاء، فقرأ بالبقرة، فانصرف الرجل، فكان معاذ ينال منه، فبلغ النبي ﷺ فقال: «فتان فتان فتان» ثلاث مرات[3]، وعن ابن مسعود قال: قال رجل يارسول الله: إني لأ تأخر عن الصلاة في الفجر مما يطيل بنا فلان فيها، فغضب رسول الله ﷺ ما رأيته غضب في موعظة كان أشد غضباً منه يومئذ، ثم قال: «يأيهاالناس إن منكم منفرين، فمن أم منكم الناس فليتجوز، فإن خلفه الضعيف والكبير وذا الحاجة»[4] والنصوص في ذلك والشواهد أكثر من أن تحصى[5]، وهذا كله مستفيض متواتر من سيرته ﷺ، مفروض في سيرة الأنبياء السابقين، للحكمة التي وصفهم الله بها: ﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾[6]، و﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ﴾[7].

ولكن كل هذا التيسير والتدريج ومراعاة الحكمة والمصلحة والنظر إلى استعداد النفوس، إنما هو في التعليم والتربية وفي المسائل الجزئية، ومما ليس من العقائد ومبادىء الدين في شيء، أما ما كان من العقائد والمبادىء والفرائض والنصوص،

---

(١) صحيح البخارى جـ١، ص ٢٧٦.
(٢) صحيح البخاري جـ١، ص ٢٤.
(٣) صحيح البخاري جـ١، ص ١٢٩.
(٤) صحيح البخاري جـ١، ص ١٣٠.
(٥) إقرأ الفصل النفيس: باب التيسير في حجة الله البالغة لشيخ الإسلام ولي الله بن عبد الرحيم الدهلوى جـ١، ص ٢٣٣.
(٦) سورة ص الآية (٢٠).
(٧) سورة الأنعام الآية (٨٩).

وما يفرق بين الإيمان والكفر والتوحيد والشرك، وكان من شعائر الإسلام وحدود الله، فالأنبياء عليهم السلام ـــ على اختلاف عصورهم ـــ أصلب فيه من الحديد، وأثبت عليه من الجبال، لايعرفون تنازلا ولا هوادة، ولا يرضون مساومة[1].

هذه لمحة موجزة عن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، وقد جعلهم الله رحمة للإنسانية وهداية خير ورشد على امتداد رحلة البشر، وقد ختم الله الرسل والرسالات بسيدنا محمد ﷺ ورسالته الجامعة الخالدة، فالحمد لله على ما أكمل به من الدين وأتم به من النعمة.

(١) انظر النبوة والأنبياء في ضوء القرآن لأبي الحسن الندوى، ص ٣٤ ـــ ٣٩.

الموضوع الرابع : الكتب المنزلة.

والإيمان بالكتب المنزلة، أصل من أصول الإيمان نزلت بذلك الآيات وتظافرت النصوص من الكتاب والسنة على وجوب الإيمان بالكتب التي أنزلها الله على أنبيائه جملةً فيما أجمل، وتفصيلاً فيما فصل، فأركان العقيدة الإسلامية الإيمانية ستة، كما هو معلوم، ومنها، الإيمان بكتب الله المنزلة على أنبيائه، وهي كما يلي:

أولاً : «القرآن الكريم» :

وسنجعل القرآن الكريم أساساً للحديث عن الكتب السماوية السابقة لكونه الكتاب المنزل المصون الذي سلم من التحريف والتغيير، فهو محفوظ بحفظ الله له ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴾[1].

وكون القرآن الكريم منزّل من عند الله على سيدنا محمد ﷺ حقيقة مسلمة عند كل منصف من المسلمين وغيرهم، وقد ثبت ذلك بالدليل العقلى والنقلى.

أما الدليل العقلى : فهو ما تضمنه من وجوه الإعجاز، بحيث لا تتطاول القدرات الإنسانية مجتمعة أو مفترقة إلى الإتيان بمثله، مهما تعاقبت العصور وتوالت الدهور.

وإن الإعجاز بجميع صوره وأشكاله كامنٌ في كتاب الله إلى قيام الساعة، وليس أدل على ذلك من حاجة الإنسانية المتجددة يوماً بعد يوم إلى مايدعو إليه من قيم ومبادئ تتفق مع الفطرة الإنسانية السوّية، وربما نظر كثير من الباحثين إلى القرآن الكريم من زاوية الإعجاز العلمي فوجدوا فيه العجب العجاب بما يبشر بتحول كبير في مسيرة الإنسانية عندما تبلغها الدعوة القرآنية على حقيقتها، ويوجد الدعاة المؤهلون للدعوة للانتشار في الآفاق بهذا النور الإلهى.

---

(١) سورة الحجر الآية (٩).

فهذا البقاء والترقي والسمو في كل زمان مع السلامة من التناقظ والاختلاف من أكبر الأدلة العقلية على أنه من عند الله.

أما الدليل النقلى : فهو ما ثبت بالتواتر القطعى الدلالة كابراً عن كابر إلى رسول الله محمد ﷺ، وما ثبت في آيات القرآن نفسه بأنه من عند الله وليس من كلام محمد ﷺ كما قال تعالى:﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾[1].

وقال تعالى : ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾[2].

وقد عمت هذه الحقيقة المجتمع الإسلامي في كل عصر ومصر حتى صارت من العقائد المعلومة من الدين بالضرورة التي من أنكرها كفر، فنحن نؤمن بالقرآن كله إجمالاً، كما نؤمن به تفصيلاً، فنؤمن بكل آية من آياته المثبتة فيه، على أنها من عند الله تعالى، نقلت إلينا بالتواتر القطعى الذي لا يترك عذراً لمرتاب.

وقد أخبرنا القرآن بأخباره القاطعة أن الله تعالى قد أنزل قبل القرآن كتبا سماوية يصدق القرآن بها على ما كانت عليه يوم أنزلتْ، لا على ما هي عليه الآن بعد أن حرّفت. قال تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[3] فنحن بالتسليم المطلق نؤمن بكل كتاب أنزله الله سواء عرفنا اسمه أو لم نعرفه، وسواء عرفنا الرسول الذي أنزل عليه أو لم نعرف، وهذا هو معنى الإيمان الإجمالى

---

(١) سورة غافر الآية (١،٢).

(٢) سورة الشعراء الآية (١٩٢،١٩٤).

(٣) سورة المائدة الآية (٤٨).

بالكتب، وإيماننا بها تصديق لخبر الله في القرآن الكريم الذي ثبت عندنا بطريق القطع أنه من عند الله.

كما نؤمن تفصيلاً بالكتب والصحف التي نوه القرآن بها بشيء من التفصيل، وبالقدر الذي فصله القرآن لانزيد على ذلك ولا ننقص.

أما ما أخبرنا عنه القرآن الكريم من الكتب السماوية بشئ من التفصيل، فيتلخص في أربعة، منها ما كان على شكل صحف معدودة، ومنها ما أخذ شكل كتب كبيرة لها شأن، وهي مايلي:

الأول : (**صحف إبراهيم عليه السلام**) وهي أول ما أنزل الله من كتب مما لدينا به علم يقيني.

وقد أخبرنا القرآن الكريم بأخباره الصريحة عن الصحف الأولى، وذكر منها صحف إبراهيم عليه السلام كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾(١).

ولكن هذه الصحف مفقودة، فلا يعرف منها شئ بطريق يقيني إلا ما تضمنه القرآن الكريم من الحديث عن دعوة إبراهيم عليه السلام وتقريره لأصول الدين وفق الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، ومما ورد في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام ما قصه الله تعالى في سورة النجم بقوله ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ

(١) سورة الأعلى الآية (١٩).

﴿ ... مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ
وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴾ إلى قوله ﴿ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴾(١).

ونحن نؤمن إيماناً جازماً بأن الله تعالى أنزل على إبراهيم عليه السلام صحفاً ومنها ما قصه الله في كتابه العزيز.

ثانياً : «التـوراة» :

وهو الكتاب الذي أنزله الله على موسى عليه السلام، وهو ثاني ما أنزل الله من كتبٍ مما لدينا به علم يقيني:

وتتضمن التوراة ــ على الأرجح ــ الصحف التي أنزلت على موسى عليه السلام، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الصحف بقوله ﴿ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴾(٣).

كما يتضمن الألواح التي جاء بها موسى بعد مناجاته لربه في جانب الطور كما قال تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ ﴾(٤).

ولفظ (التوراة) لفظ عبراني معناه (التعليم أو الشريعة).

والقرآن الكريم جاء مصدقاً للكتب السماوية السابقة ومهيمنا عليها، ومنها

---

(١) سورة النجم الآية (٣٦،٥٤).
(٢) سورة الأعلى الآية (١٩).
(٣) سورة النجم الآية (٣٦).
(٤) سورة الأعراف الآية (١٤٥).

التوراة والأنجيل قال تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾[1].

فالإيمان (بالتوراة) التي أنزلها الله على موسى أصل من أصول الإيمان، لأنها من كتب الله المنزلة التي ذكرها القرآن الكريم وأمرنا بالإيمان بها.

وقد تحدث القرآن الكريم عن بعض ماجاء في التوراة، فنحن نؤمن بأنه مما تضمنته التوراة لأنه جاءنا به علم يقيني قاطع وهو القرآن الكريم ومن ذلك الأمور التالية :

١ ـ مجموعة من الأحكام والشرائع الربانية التي شرعها الله لبني إسرائيل، يشهد لذلك قول الله تعالى خطابا للرسول ﷺ ﴿ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝٤٣ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ ﴾[2].

وقد ذكر القرآن الكريم نماذج من الأحكام الشرعية التي وردت في التوراة، فمن ذلك ما أشار إليه في قوله تعالى في معرض الحديث عن التوراة ﴿ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝٤٥ ﴾[3].

(١) سورة آل عمران الآية (١، ٤).
(٢) سورة المائدة الآية (٤٣، ٤٤).
(٣) سورة المائدة الآية (٤٥).

فقد تضمنت هذه الآية أن من أحكام التوراة التي كتبها الله فيها على بني إسرائيل هذه الجملة من أحكام الجنايات، وهي تتعلق بشرعية القصاص، وأحكام القصاص من الأحكام الثابتة المستمرة التي لم تنسخ برسالة محمد ﷺ، بل أثبتها القرآن، وشرع القصاص، وبين أنه حياة وأمنٌ واستقرارٌ للمجتمعات فقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ۗ﴾(٢).

٢ ـ من جملة ما تضمنته التوراة البشارة بمحمد ﷺ وذكر بعض صفاته، يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(٣).

٣ ـ من جملة ما تضمنته التوراة صفة أصحاب محمد ﷺ يشهد لذلك قول الله تعالى ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا

---

(١) سورة البقرة الآية (١٧٩).

(٢) سورة البقرة الآية (١٧٨).

(٣) سورة الأعراف الآية (١٥٧).

﴿سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ﴾[1].

٤ ــ ومن جملة ما تضمنته التوراة الحث على الجهاد بالنفس والمال، يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[2] فهذه الآية تنص على أن الجهاد في سبيل الله بالنفس والمال مما حثت عليه (التوراة) بني إسرائيل.

ولذلك فنحن نؤمن إيماناً جازماً بأن التوراة الأصل كتابٌ ربّاني أنزله الله على موسى عليه السلام.

ما هي التوراة التي صدق بها القرآن الكريم؟

التوراة التي صدق بها القرآن الكريم هي الأصول الأولى التي أنزلها الله تعالى على موسى عليه السلام، أما (التوراة) الحالية الموجودة عند أهل الكتاب، فليس لها سند متصل يصحح نسبتها إلى موسى عليه السلام، كما دخل إليها التحريف والتبديل من غير تمييز بين الأصل والمحرّف، لذلك لايصح أن يوثق بها، وسنتحدث في ختام هذا الموضوع عن تحريف أهل الكتاب للكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل كما نص القرآن الكريم على ذلك.

ثالثاً: «الــزبور»:

وهو الكتاب الذي أنزله الله تعالى على داود عليه السلام.

---

(١) سورة الفتح الآية (٢٩).

(٢) سورة التوبة الآية (١١١).

والزبور : لغة، هو الكتاب المزبور[1]، أي المكتوب وجمعه زُبُر كرسول ورُسُل، وكل كتاب يسمى زبوراً، قال تعالى: وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ [2] أي مسجل في كتب الملائكة[3] وصحفهم، ثم غلب الزبور على صحف داود عليه السلام كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾[4].

فهذه الآية تنص على أن الله تعالى قد أنزل على داود كتاباً سماوياً اسمه «الزبور» وقال تعالى ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[5].

والزبور : يقال فيه ما قيل في التوراة، فالقرآن صدّق بما أنزل على داود عليه السلام، لا مادخل فيه من التحريف من عمل اليهود.

رابعاً : «الإنجيـــل» :

وهو الكتاب الذي أنزله الله تعالى على عيسى عليه السلام وقد ورد ذكره في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، ومنها قوله تعالى ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾[6].

---

(١) انظر ترتيب القاموس المحيط جـ٢، ص ٤٣٠.

(٢) سورة القمر الآية (٥٢).

(٣) انظر تفسير ابن كثير جـ٤، ص ٢٦٨.

(٤) سورة النساء الآية (١٦٣).

(٥) سورة الأنبياء الآية (١٠٥).

(٦) سورة المائدة الآية (٤٦، ٤٧).

ما هو الإنجيل الذي صدق به القرآن؟

الإنجيل الذي صدق به القرآن الكريم إنما هو الكتاب الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام بأصوله الصحيحة الأولى، أما الأناجيل الحالية الموجودة عند أهل الكتاب فلا يعرف لها سند متصل يصحح نسبتها إلى عيسى عليه السلام، ومعظمها لايصح بحال من الأحوال نسبته إليه، وأحسن ما يقال في هذه الأناجيل أنها مصنفات تاريخية حول سيرة المسيح وبعض وصاياه ومواعظه ومعجزاته، ولكن فيها الكثير من الأغلاط والمتناقضات والتحريف كما سنوضح جانباً من ذلك في نهاية هذا المبحث.

وقد تحدث القرآن الكريم عن بعض ما جاء في الإنجيل، فنحن نؤمن بأنه مما تضمنه الإنجيل، لأنه جاءنا بطريق صحيح وهو القرآن الكريم.

ومن ذلك الأمور التالية :

١ ـــ تضمن الإنجيل الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام الهدى والنور والتصديق بالتوراة والموعظة للمتقين.

كما في الآية السابقة وهي قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾[1].

٢ ـــ تضمن الإنجيل الذي نزل على عيسى عليه السلام مجموعة من الأحكام

---

(١) سورة المائدة الآية (٤٦).

والشرائع الربانية ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾(١).

ويظهر أن الأحكام الموجودة في الإنجيل بعضها مكمل وبعضها معدل للأحكام الموجودة في التوراة، يدل على ذلك المهام التي جاء بها عيسى عليه السلام، ومنها أن يحل لبني إسرائيل بعض الذي حرم عليهم، قال تعالى في حكاية كلام عيسى لقومه: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾(٢).

٣ ــ تضمن الأنجيل البشارة بمحمد ﷺ كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾(٣).

٤ ــ ماتضمنه الإنجيل من صفة أصحاب محمد ﷺ، يشهد لذلك قول الله تعالى في معرض الحديث عن أصحاب محمد ﷺ ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ﴾(٤) وغير ذلك مما اشتمل عليه الإنجيل مما ذكر في القرآن، مثل الجهاد.

---

(١) سورة المائدة الآية (٤٧).

(٢) سورة آل عمران الآية (٥٠).

(٣) سورة الصف الآية (٦).

(٤) سورة الفتح الآية (٢٩).

موقف العقيدة الإسلامية من كتب العهدين [القديم والجديد].

عرفنا فيما سبق موقف العقيدة الإسلامية من الكتب الربانية التي أنزلها الله على رسله وأن الإيمان بها من أركان العقيدة الإسلامية .. أما موقف العقيدة الإسلامية من كتب العهدين القديم والجديد التي يزعم أهل الكتاب أنها هي الأصول الصحيحة «للتوراة والإنجيل» فيمكن تلخيصها فيما يلى:

١ ـــ لايصح الاعتقاد بأى كتاب من كتب العهدين القديم والجديد على أنه كتاب من عند الله، لأنها تفقد وسائل صحة النسبة إلى الله، وفق المنهج العلمى المعتمد عقلاً وشرعاً.

٢ ـــ إن مضمون كل نص من نصوص كتب أهل الكتاب الحالية سواء كان خبراً تأريخياً أو حقيقة علمية أو حكماً شرعياً، إن صدقه القرآن أو صدقته السنة الصحيحة فهو مقبول عندنا يقيناً، وإن كذبه القرآن أو كذبته السنة فهو مردود عندنا يقيناً، وإن سكت القرآن أو سكتت السنة عن تصديقه أو تكذيبه فإننا نسكت عنه فلا نصدق ولا نكذب لاحتمال الصدق والكذب فيه(١)، إلا إذا دلت دلائل العقل أو دلائل الواقع على تصديقه أو تكذيبه فإننا نتبع حكم هذه الدلائل من تصديق أو تكذيب. وفيما سكتت الشريعة الإسلامية عن تصديقه أو تكذيبه ينطبق عليه الحديثان النبويان التاليان :

قول النبي ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم»(٢).

---

(١) انظر مقدمة تفسير ابن كثير جـ١، ص ٤.

(٢) صحيح البخاري : جـ٢، ص ١٠٩.

قول النبي ﷺ: «لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شئ فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسى بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني»(١).

وأما قوله ﷺ «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»(٢) فإن المراد بذلك ــ والله أعلم ــ الأخبار والقصص التي لم يرد بطلانها في القرآن أو السنة الصحيحة، فلا مانع من الأستشهاد بها في مجال الأخبار والقصص، دون العقائد والأحكام الشرعية، لأن العقائد والأحكام لاتثبت إلا بطريق صحيح وليس لدينا علم يقينى بصحتها في الجملة.

٣ ــ من الثابت عندنا في العقيدة الإسلامية أن أهل الكتاب حرفوا في كتبهم، فبدلوا بعض نصوصها، وأخفوا طائفة منها، ونسوا حظاً مما ذكروا به.

وفيما يلي لمحة عن التحريف في كتب أهل الكتاب:
ولقد أخذ التحريف في كتب أهل الكتاب مظهرين:

الأول : التحريف المعنوى، وذلك بتغيير مدلولات الألفاظ وترجمتها إلى ما يوافق تحريفهم.
الثاني : التحريف اللفظي، ويكون هذا التحريف اللفظى بأحد ثلاثة وجوه، بالتبديل، أو الزيادة، أو النقصان.

وقد وصف القرآن الكريم أهل الكتاب من يهود ونصارى بأنهم يحرفون الكلم

(١) مسند الإمام أحمد جـ٣، ص ٣٣٨.
(٢) صحيح البخارى جـ٢، ص ٢٥٨.

عن مواضعه، وبأنهم نسوا حظاً مما ذكروا به، وبأنهم يبدون من كتبهم شيئاً ويخفون كثيراً، قال تعالى في الكلام على بني إسرائيل ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(١).

وقال في الكلام على النصارى بعد الآية السابقة وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ (٢)

وقال تعالى مخاطباً أهل الكتاب عامة: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴾(٣).

وقد تتبع المحققون في كتب أهل الكتاب فوجدوا فيها الشئ الكثير من التحريفات التي يشهد العقل بداهة أنها تحريف لاشك في ذلك، وكشفوا جملة كثيرة من المتناقضات والأغلاط التي ملئت بها هذه الكتب المحرفة.

وقد أورد الشيخ رحمة الله الهندى في كتابه إظهار الحق مائة شاهد على التحريف اللفظى والمعنوى في كتب العهدين القديم والجديد(٤).

---

(١) سورة المائدة الآية (١٣).
(٢) سورة المائدة الآية (١٤).
(٣) سورة المائدة الآية (١٥).
(٤) انظر إظهار الحق جـ١ من ص ٣٣٨ ـــ ٤٣٢.

ومن البدهي أن المضللين من أهل الكتاب إذْ سهل عليهم الكذب على الله في أصل العقيدة فقالت طائفة من اليهود: عزير ابن الله، وقال بعض النصارى: إن الله هو المسيح ابن مريم، وقال بعضهم إن الله ثالث ثلاثة، وقال بعضهم: إن المسيح هو ابن الله، وقال بعضهم: إن عيسى وأمه إلهان من دون الله، إلى غير ذلك من أقوال باطلة خالفوا فيها أصول العقل والدين والكتب السماوية.

وإن هؤلاء إذ سهل عليهم كل ذلك في أصول العقيدة فلابد أن يكون الكذب عندهم فيما وراء ذلك من أحكام ونصوص وأخبار أهون وأسهل، متى كان لهم في الكذب منافع وشهوات ومصالح دنيوية[1].

وخلاصة القول أن الإيمان بكتب الله المنزلة على أنبيائه عليهم السلام ركن من أركان العقيدة الإسلامية، فنؤمن بما أنزل الله على أنبيائه إيماناً مطلقا، وأما الكتب التي بأيدى اليهود والنصارى حاليا، فقد علمنا يقينا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أنهم غيروا وبدّلوا فيها فمصدر حكمنا عليها بالقبول أو الرد هو القرآن والسنة كما تقدم تفصيل ذلك والله أعلم.

الموضوع الخامس : الإخــلاص.

مادة (خَلَصَ) الخاء، واللام، والصاد، أصل واحد مطّرد، وهوتنقية الشئ وتهذيبه، يقولون: خَلّصْتُه من كذا، وخَلَصَ هو.

وخُلاصة السمن : ما ألقئ فيه من تمر أو سويق ليخلص به[2]. من اللبن والشوائب.

ويقول صاحب / المصباح المنير / الفيّومي المتوفى سنة ٧٧٠هـ

(١) انظر هذا المبحث بتفصيلات أكثر في كتاب العقيدة الإسلامية، لعبد الرحمن جنكه جـ٢ ص ٢٥٧، وما بعدها.

(٢) معجم مقاييس اللغة : لابن فارس جـ٢، ص٢٠٨.

(خَلَصَ) الشئ من التلف خلوصا من باب (قَعَدَ) وخَلاصاً وَمَخْلَصاً، سَلِمَ ونجا.

وخَلَصَ الماء من الكدر صفا وخلّصْتُه بالتثقيل ميّزته من غيره.

وخُلاصةُ الشئ بالضم ماصفا منه مأخوذ من خلاصة السمن، وهو ما يلقى فيه تمر أو سويق ليخلص به من بقا اللبن، وأخلص لله العمل.

وسورة الإخلاص إذا اطلقت ﴿قل هو الله أحد﴾ وسورتا الإخلاص ﴿قل هو الله أحد﴾، ﴿وقل ياأيها الكافرون﴾(١).

ويقول الزمخشري في كتابه أساس البلاغة : مادة (خَلَصَ).
خَلَصَ الشئ خلوصاً ، فهو خالص.
وخلّصتُه : صفّيتُه.

ومن المجاز : أخلص له المودةَ ، وأخلص لله دينَه .. وخَلَصَ من الورطة خلاصاً: سلم منها سلامة الشئ الذي يصفو من كدره .. وخَلَصَ من القوم : اعتزلهم .. وخَلَصَ إليهم : وصلَ : انتهى.

وكلمة الإخلاص : وردت في القرآن الكريم على **أربعة أوجه** : حسب الاستقراء، وإن كان الذين بحثوا في الوجوه والأشباه والنظائر لم يذكروا هذا. مثل ابن الجوزى المتوفى ٥٩٧هـ في كتابه القيّم [نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر] وابن

---

(١) المصباح المنير ص ٢٤٢ مادة خلص.

العماد المتوفى ٨٨٧هـ في كتابه [كشف السرائر في معنى الوجوه والاشباه والنظائر] والفقيه الدامغاني في القرن العاشر الهجرى في كتابه [إصلاح الوجوه والنظائر] [وتحصيل نظائر القرآن] للحكيم الترمذى الذي توفى تقريبا في (٣٢٠هـ).

وهذه الأوجه الأربعة كما يلي :

١ ــ الإخلاص بمعنى الاصطفاء : قال تعالى ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾(١) أي : اصطفيناهم وجعلناهم لنا خالصين(٢)، فأفردناهم بمفردة من خصال الخير: فكأن الأصطفاء المذكور في هذه الآية مفسر للآية التي قبلها، ومنه قول الشاعر:

لك المرباع منها والصفايا
وحكمك والنشيطةُ والفضول

وقال الأصمعى الصفايا .. ما يصطفيه الرئيس لنفسه دون أصحابه مثل [الْفَرسِ](٣).

٢ ــ الإخلاص بمعنى الخلوص من الشوائب : قال تعالى ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾(٤)، وروى أبو صالح عن ابن عباس قال : إذا استقر العلفُ في الكرش، طحنه، فصار أسفلَه فرثا، وأعلاه دماً وأوسُطه لبنا، والكبدُ مسلطة على هذه

(١) سورة ص الآية (٤٦،٤٧).
(٢) انظر زاد المسير لابن الجوزى جـ٧، ص ١٤٦.
(٣) المصباح المنير ص ٤٦٨.
(٤) سورة النحل الآية ٦٦.

الأصناف الثلاثة فيجرى الدم في العروق، واللبن في الضرع، ويبقى الفرث في الكرش[1].

والمعنى (لبنا خالصا) أي صافيا من حمرة الدم وقذارة الفرث: ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾[2] أي الصافي من شوائب الشرك والبدع والمعاصي.

٣ ــ الإخلاص بمعنى الاختصاص أو الخصوصية:

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِيٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3]، أي خاصة بك دون غيرك.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾[4] أي أجعله خالصا لي لايشركني فيه أحد.

ومنه قوله تعالى: قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ[5] أي خاصة بكم دون غيركم .. ومنه قوله تعالى: وَقَالُوا۟ مَا فِي بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا[6] أي

---

(١) انظر زاد المسير جـ٤، ص ٤٦٣، ٤٦٤.
(٢) سورة الزمر الآية (٣).
(٣) سورة الأحزاب الآية (٥٠).
(٤) سورة يوسف الآية (٥٤).
(٥) سورة البقرة الآية (٩٤).
(٦) سورة الأنعام الآية (١٣٩).

خاص بالذكور دون الإناث. ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾(١) أي خاصة بهم دون المشركين .. ومن هنا نعلم أن الدنيا مزرعة الآخرة، وأن متعلق هذه الخصوصية الإيمان في هذه الحياة الدنيا.

٤ ــ **والإخلاص بمعنى التوحيد** : وبمعنى التطهير على بعض القراءات. والإخلاص بمعنى التوحيد هو الغالب في آيات الإخلاص في القرآن ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾(٢) أي موحّدون.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٣).

ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾(٤).

ومنه قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ

(١) سورة الأعراف الآية (٣٢).
(٢) سورة البقرة الآية (١٣٩).
(٣) سورة النساء الآية (١٤٥، ١٤٦).
(٤) سورة الأعراف الآية (٢٩).

بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾[1]، ومثله قوله تعالى في سورة العنكبوت ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾[2].

وفي سورة لقمان ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾[3]

ومنه في سورة غافر فَٱدْعُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ [4]، وفي سورة غافر أيضا هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ [5] وفي سورة البيّنة ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾[6].

ومن مجئ آيات الإخلاص بمعنى التطهير على بعض القراءات.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾[7]، قرأ ابن كثير وأبو عمرو بن العلاء وعبد الله بن عامر بكسر اللام والمعنى الذين أخلصوا دينهم لله .. وهذا يرجع للمعنى الأول. وقرأ عاصم وحمزة والكسائى بفتح اللام أرادوا: من الذين أخلصهم الله من الأسواء والفواحش بمعنى طهرهم وحماهم منها[8].

---

(١) سورة يونس الآية (٢٢).

(٢) سورة العنكبوت الآية (٦٥).

(٣) سورة لقمان الآية (٣٢).

(٤) سورة غافر الآية (١٤).

(٥) سورة غافر الآية (٦٥).

(٦) سورة البينة الآية (٥).

(٧) سورة يوسف الآية ٢٤.

(٨) انظر زاد المسير جـ٤، ص ٢١٠.

وفي سورة الصافات ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾(١).

معنى الإخلاص : في الاصطلاح الشرعى :

أن يقصد الإنسانُ بقوله وعمله وجهاده وجه الله تعالى وابتغاء مرضاته.

دعوة الإسلام إليه: لقد دعا الإسلام إلى الإخلاص ورغب فيه فقال تعالى ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(٢) وقد أمر الله تعالى به فقال ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾(٣) وجعل قبول الأعمال رهناً به ووقفاً عليه.

روى ابن أبي حاتم عن طاووس أن رجلاً قال: يارسول الله إنى أقفُ المواقف، أريد وجه الله، وأحبُ أن يرى موطنى! فلم يردّ عليه رسول الله ﷺ شيئاً حتى نزلت هذه الآية ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾(٤).

والإخلاص دليل كمال الإيمان :

فقد ورد أن رسول الله ﷺ قال «من أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله فقد أستكمل الإيمان»(٥)، والله ينظر إلى القلوب ولا ينظر إلى المظاهر والأشكال. ففي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال

(١) سورة الصافات آيات (٤٠، ٧٤، ١٢٨).

(٢) سورة الأنعام الآية (١٦٢).

(٣) سورة البينة الآية (٥).

(٤) سورة الكهف الآية (١١٠). وانظر تفسير ابن جرير الطبرى جـ١٦، ص ٤٠.

(٥) رواه أبو داود في سننه جـ٤، ص ٢٢٠.
وانظر مسند الإمام أحمد جـ٣، ص ٤٣٨.

«إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»[١] وجاء في بعض الآثار، فأروا اللهمن أنفسكم خيراً.

متى يكون العمل خيراً؟

لا يعتد بالعمل في أبواب الخير إلا إذا كان عن نية طيبة خالصة لوجه الله .. فتكون وجهة الإنسان في الحياة إرادة الخير لنفسه وللناس جميعاً.

وفي الحديث الصحيح عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ مانوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ماهاجر إليه»[٢] رواه البخارى ومسلم.

قيمة الإخلاص : في الفرد والمجتمع :

والإخلاص، والنية الطيبة تبلغ بالإنسان الذروة من السمو والرفعة، وتنزله منازل الأبرار يقول رسول الله ﷺ «طوبى للمخلصين»[٣] الخ.

والإخلاص في العمل نجاة لما يتعرض له المرء من محن ومخاطر، يشهد لذلك حديث الثلاثة النفر الذين آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار، فدعوا الله بصالح أعمالهم ففرج الله عنهم وانزاحت الصخرة فخرجوا[٤].

---

(١) صحيح مسلم جـ٤، ص ١٩٨٧.
(٢) انظر صحيح البخاري جـ١، ص ٦ وصحيح مسلم جـ٣، ص ١٥١٥.
(٣) رواه البيهقي عن ثوبان.
(٤) انظر صحيح البخاري جـ٢، ص ٣٥.

والاتصاف بصفة الإخلاص والصدق يكسب الفرد النجاح والظفر.

والجماعة التي تتألف من أفراد مخلصين تتجه إلى الخير وتتنزه عن الدنايا وتترفع عن الشهوات الهابطة، وتسير إلى غاياتها تظللها المحبة ويعمها الأمن والسلام.

ولقد كان التحلي بحلية الإخلاص سببا في تطهير أنفس الصحابة من الرياء والنفاق والكذب .. فاندفعوا إلى غاياتهم الكبرى ينشدون إقامة العدل والحق ويبتغون وجه الله وإعلاء كلمته فمكّن الله لهم في الأرض وجعلهم قادة الدنيا وسادة العالم، ومن رحمة الله بعباده وفضله عليهم أن الأعذار التي تحول بين المرأ وبين ممارسة الأعمال الصالحة، لا تُنقص من مكانته عند اللهمادام مخلصا : فقد روى موسى بن أنس بن مالك عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال «لقد تركتم بالمدينة أقواماً ماسرتم مسيراً ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم من واد إلا وهم معكم فيه، قالوا: يارسول الله، وكيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال حبسهم العذر»[1].

وفي حديث عائشة رضى الله عنها أن النبي ﷺ قال: «ما من إمرئ تكون له صلاة بليل يغلبه عليها نوم، إلا كتب له أجر صلاته، وكان نومه عليه صدقة»[2].

وعن سهل بن حُنيف أن النبي ﷺ قال: «من سأل الله الشهادة بصدق، بلّغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»[3].

---

(١) رواه أبو داود في سننه جـ٣، ص ١٢.
(٢) سنن أبي داود جـ٢، ص ٣٤.
(٣) رواه الدارمى في مسنده كتاب الجهاد جـ٢، ص ٢٠٥ رواه أبو داود بلفظ آخر في كتاب الجهاد باب (٤٠) جـ٣، ص ٢١.

ومن نواقض الإخلاص : الرياء وسؤ النية :

وهو مرض يهبط بصاحبه إلى أسفل الدركات لأنه صفة من صفات المنافقين الذين لا يثبتون على مبدأ ولا يتقيدون بعقيدة صالحة.

والرياء نوع من الشرك الذي يحبط العمل أو يجرح كماله.

الإعجاب بثناء الناس لاينافي الإخلاص :

إذا عمل المرء العمل وأخلص فيه ثم اطلع عليه الناس دون قصد منه، وأعجبه ثناؤهم عليه وحمدهم له فهذا لايحبط العمل ولاينافي الإخلاص روى الترمذي عن أبي هريرة أن رجلاً قال يارسول الله الرجل يعمل العمل فَيُسِرُّه فإذا اطِّلِعَ عليه أعجبه ذلك؟ فقال رسول الله ﷺ له أجران : «أجر السّر ، وأجر العلانية»[1] بل قد يكون ثناء الناس من المبشرات المعجّلة له في الدنيا. فعن أبي ذر رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ قال «أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير فيحمده الناس عليه؟ قال ﷺ تلك عاجل بشرى المؤمن» رواه مسلم[2].

اتقاء الرياء :

عن أبي موسى الأشعرى قال خطبنا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال «ياأيها الناس : اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل فقال رجل وكيف نتقيه؟ قال: قولوا : اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئاً نعلمه، ونستغفرك لما لانعلمه»[3] رواه أحمد، هذا هو الإخلاص ، وإنما استطردنا في إيضاح جوانب الإخلاص ونواقضه بما ورد في السنة، لأن السنة موضحة ومبينة ما أجمل في آيات القرآن الكريم ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4].

---

(١) سنن الترمذى جـ٧، ص ١١٥ الزهد.

(٢) صحيح مسلم جـ٤، ص ٢٠٣٤.

(٣) مسند الإمام أحمد جـ٤، ص ٤٠٣.

(٤) سورة النحل الآية (٤٤).

الموضوع السادس : الإيمان بالغيب وأثره في حياة المجتمع.

الغيب في اللغة : ماغاب واستتر عن الأعين:

قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة : الغين والياء والباء أصل صحيح، يدل على تستّر الشئ عن العيون، ثم يقاس من ذلك الغيب : ماغاب مما لايعلمه إلا الله، إلى أن قال «ووقعنا في غَيْبةٍ وغيابة، أي هابطة من الأرض يغاب فيها، قال تعالى في قصة يوسف عليه السلام ﴿وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾(1) .. والغِيْبةُ : الوقيعة في الناس من هذا، لأنها لا تقال إلا عن غَيْبة»(2).

وفي الاصطلاح الشرعي : هو ما اختص الله بعلمه، أو أطلع عليه بعض عباده دون بعض من أمور الوحى. والغيب أنواع ثلاثة:

١ ــ نوع استأثر الله بعلمه ومن ذلك أمر الروح، وقيام الساعة، كما قال تعالى ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾(3) وقوله ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾(4) وقال تعالى ﴿وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو﴾(5).

٢ ــ نوع قد يطلع الله عليه من شاء من عباده كالملائكة والرسل كما قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾(6).

---

(1) سورة يوسف الآية (١٠).
(2) معجم مقاييس اللغة مادة (غَيَبَ).
(3) سورة النمل الآية (٦٥).
(4) سورة الإسراء الآية (٨٥).
(5) سورة الأنعام الآية (٥٩).
(6) سورة الجن الآية (٢٦، ٢٧).

٣ ـ نوع قد يعلم عن طريق الوسائل والكشوف العلمية المتطورة كمعرفة بعض الكواكب وبعض المكروبات الدقيقة وغيرها مما لايدرك إلا بوسائل متطورة.

ومن أخص صفات المؤمنين التي افتتح الله بها سورة البقرة، أنهم يؤمنون بالغيب .. قال تعالى ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾(١).

ويلاحظ أن آية البقرة هي الآية الوحيدة في القرآن التي تحدثت عن الإيمان بالغيب، أما بقية آيات الغيب في القرآن فهى مقررة بأن علم الغيب عند الله، وأنه علّام الغيوب.

وقد ذكر ابن الجوزى وغيره من أصحاب كتب الأشباه والنظائر أن الغيب ورد في القرآن على أحد عشر وجهاً، كما ذكره بعض المفسرين وهي كما يلي:

الوجه الأول : الله عز وجل، والحساب، والصراط، والجنة، والنار، وهو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾(٢).

الوجه الثاني : الوحى : ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾(٣).

الوجه الثالث : حوادث القدر : ومنه قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ﴾(٤).

---

(١) سورة البقرة الآية (١،٣).
(٢) سورة البقرة الآية (٣).
(٣) سورة التكوير الآية (٢٤).
(٤) سورة الأعراف الآية (١٨٨).

الوجه الرابع : الظن : ومنه قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِٱلْغَيْبِ﴾(١)، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾(٢).

الوجه الخامس : المطر : ومنه قوله تعالى ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾(٣) يعنى المطر وخزائنه.

قلتُ : والتعميم هنا أولى لاسيما وقد ورد تفسير النبي ﷺ لهذه الآية عندما سئل عن مفاتح الغيب فقال: «مفاتح الغيب خمس : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(٤).

الوجه السادس : موت سليمان عليه السلام : ومنه قوله تعالى ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾(٥).

«قال المفسرون في هذه الآية كانت الإنس تقول : إن الجن تعلم الغيب الذي يكون في غدٍ، فوقف سليمان في

---

(٤) سورة الكهف الآية (٢٢).
(٢) سورة سبأ الآية (٥٣).
(٣) سورة الأنعام الآية (٥٩).
(٤) آخر سورة لقمان الآية (٣٤). وانظر صحيح البخارى جـ٣ كتاب التفسير ص ١٧٤ سورة لقمان.
(٥) سورة سبأ الآية (١٤).

محرابه يصلي متوكئاً على عصاه، فمات فمكث كذلك حولاً والجن تعمل تلك الأعمال الشاقة ولا تعلم بموته حتى أكلت الأَرَضُ ــ جمع أرض، وهو دوبة تأكل الخشب ــ عصا سليمان فخرّ فعلموا بموته، وعلم الإنسان أن الجن لاتعلم الغيب، وقيل أن سليمان سأل الله تعالى أن يعمى على الجن موته فأخفاه الله عنهم حولاً»(١).

والمِنْسَأة : العصا، قال الزجاج سميت منسأة لأنه ينسأ بها، أي يطرد ويزجر.

الوجه السابع : اللوح المحفوظ ومنه قوله تعالى ﴿ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴾(٢).

قال ابن عباس في رواية عنه : أعلم ماغاب عنه حتى يعلم أفي الجنة هو أو لا؟ وفي رواية أخرى : أنظر في اللوح المحفوظ؟(٣) واطّلع : مأخوذ من قولهم : اطلع الجَبَلَ إذا ارتقى إلى أعلاه(٤)، ومنه قوله تعالى ﴿ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴾(٥).

الوجه الثامن : حال الغيبه، ومنه قوله تعالى حكاية عن امرأة العزيز ﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ ﴾(٦)، وقال تعالى

---

(١) انظر زاد المسير جـ٦، ص ٤٤١.
(٢) سورة مريم الآية (٧٧،٧٨).
(٣) زاد المسير جـ٥، ص ٢٦١.
(٤) انظر فتح القدير للشوكاني جـ٣، ص ٣٤٩.
(٥) سورة الطور الآية (٤١).
(٦) سورة يوسف الآية (٥٢).

﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ ﴾[1]
أي حافظات لما غاب عنه الأزواج من ماالهم ومن أنفسهن.

الوجه التاسع : وقت نزول العذاب، ومنه قوله تعالى ﴿ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ فَلَا يُظۡهِرُ عَلَىٰ غَيۡبِهِۦٓ أَحَدًا ٢٦ إِلَّا مَنِ ٱرۡتَضَىٰ مِن رَّسُولٖ ﴾[2] يعنى وقت نزول العذاب.

قلتُ : والتعميم هنا أولى كما مر في الوجه الخامس.

الوجه العاشر : القعر، ومنه قوله تعالى ﴿ قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ﴾[3].

الوجه الحادى عشر: أسماء من يؤمن من الكفار، ومنه قوله تعالى ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطۡلِعَكُمۡ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ ﴾[4].

---

(١) سورة النساء الآية (٣٤).
(٢) سورة الجن الآية (٢٦).
(٣) سورة يوسف الآية (١٠).
(٤) سورة آل عمران الآية (١٧٩).
وانظر هذه الوجوه في نزهة الأعين النواظر لابن الجوزى جـ٢ ص ٦٧ واصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم الدامغاني ص ٣٤٤. وقد أوردتها هنا بتصرف يسير مع بعض الإضافات القليلة.

العالم غيبي ومشهود

ينقسم العالم إلى مادى مشهود، وغيبى [ميتافيزيك] أو ما يسمى بما وراء الطبيعة: وبيان ذلك، أن كل الأشياء التي اتصلت بها حواسنا هي في عرفنا أشياء مادية لأننا نشاهدها شهوداً حسيا، ولايشك بوجودها إلا فاقد الحس.

ولكن العالم مشحون بالأشياء الكثيرة العجيبة التي لم نتصل بها عن طريق حواسنا، وهي أشياء موجودة حقاً، نؤمن بوجودها وإن كانت غائبةً عنا، ونسمى هذه الأشياء بعرفنا أموراً غيبيةً، أي غائبةً عن عالم الحس فينا، وقد تكون بواقع حالها أشياء مادية من نوع آخر، ويمكن شهودها لو توفرت لدينا الحاسة المناسبة التي نتمكن بواسطتها من كشف صورها والإحساس بذواتها.

ونضرب مثلين على ذلك :

الأول : أرواحنا السارية في أجسامنا، لانسمعها ولا نلمسها ولا نراها، ومع ذلك فهي موجودة فينا حقاً، نؤمن بها ونحرص عليها كل الحرص، فهي وإن لم نحس بها ظاهراً فقد آمنا بها استدلالاً من آثارها فينا، بل علْمنا بها أمر بدهيٌّ لايحتاج إلى دليل.

والمثال الثاني : قطعتان من حديد متشابهتان تماما، وزناً، وشكلاً، ولوناً، ولمْسَاً، بحيث لانستطيع أن ندرك بحواسنا أي فرق بينهما.

أما إحداهما فمشحونة بقوةٍ مغناطيسية، وأما الأخرى فغير مشحونة بهذه القوة، ثم إذا وجّهنا حواسّنا بدقة إلى هاتين القطعتين فإننا لانستطيع أن ندرك الشحنة المغناطيسية الموجودة في إحداهما عن طريق أي منفذ من منافذ الحس فينا لكننا نجد أن المشحونة بالمغناطيس تجذب الحديد إليها بقوة، والأخرى عديمة من قوة الجذب، فندرك عن طريق الاستدلال العقلى البدهى وجود هذه القوة الزائدة في الحديد المشحونة بالمغناطيس.

فإذا كنا أدركنا بالبداهة وبالاستدلال وجود أرواحنا السارية فينا، فقد أدركنا بداهة وعن طريق الاستدلال من الآثار وجود خالق الكون العظيم و(هو الله تعالى).

وكما أننا لانستطيع أن نتخيل صورة ما، لحقيقة أرواحنا وهي أدنى مراحل عالم الغيب بالنسبة لنا، فكيف نستطيع أن نتخيل حقيقة ذات الله تعالى؟ أو نتصورها؟ ومن هنا ظل كثير من الناس في أبواب التوحيد والإيمان، لأنهم طلبوا التصور، وكان يكفيهم في هذا التّعقل، فلو وقف أحد بالباب وطرقه دون أن يتكلم أدركت بالعقل وجود شخص ما، وميّزت غالباأنه إنسان، وليس حيواناً أو طائراً أو حشرة، عن طريق العقل، ولكن كيف تعرف أنه طويل أو قصير أسود أو أبيض ذكر أو أنثى؟.

الوحى :

والوحى هو الطريق الوحيد لتعريفنا بحقائق الأشياء الداخلة في عالم الغيب:

من خلال ماسبق ندرك حقاً أن عقولنا مفتقرة في إدراك الأشياء الداخلة في عالم الغيب إلى معلومات خارجة عنها، لعلمنا أن عقولنا لاتستطيع أن تتصور أو

تتخيل، أو تتحلل وتركب، إلا في حدود الأشياء التي جاءتهاعن طريق الحس.

ومن ثم ينتقل بنا الحديث إلى التأكد من صدق خبر الذي ينقل لنا عن عالم الغيب بعد أن اتصل به، وقد علمنا أن الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام صادقون بلا مرية في جميع ما ينقلونه إلينا.

فلابد من أن نؤمن بما أخبروا به ونسلم تسليماً دون مناقشة أو اعتراض، وأن نقف عند حدود النص الذي نقله الرسول إلينا عن الوحى دون أن نزيد عليه شيئاً من التخيلات أو التصورات أو التأويلات التعسفية، فإذا انكشف لنا شئ مما كان من علم الغيب المؤقت عن طريق الكشوف العلمية الثابتة التي يتطور إليها العلم بسبب استخدام الطاقات الكونية الكامنة التي أودعها الله في هذا العالم الواسع فإن هذا لايُعدُّ مناقضةً لما اختص الله به من علم الغيب فإن من الغيب ما استأثر الله بعلمه إلى الأبد، ومنه ما يطّلع عليه بعضُ خلقه كالأنبياء والملائكة كما تقدم. ﴿عالم الغيب فلايظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول﴾. ومنه: مالاتستطيع الحواس التي في البشر أن تدركه إلا بوسائل متطورة، فإذا أدركت شيئاً من ذلك عن طريق البحث والكشوف العلمية والوسائل المتقدمة كان ذلك جزءاً من علم الله الواسع الذي علم الله به الإنسان مالم يعلم، كالوصول إلى الكواكب، ومعرفة شئ مما فيها، أو الاتصال بالجن، أو معرفة أسباب وقرب نزول المطر عن طريق الظواهر الجوية.. الخ.

وقد ذكر السيد قطب رحمه الله في تفسيره ظلال القرآن كلاماً نفيساً في هذا، فقال عند تفسيره لقوله تعالى ﴿وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام﴾ قال «والله ينزل الغيث وفق حكمته، بالقدر الذي يريده، وقد يعرف الناس بالتجارب والمقاييس قرب نزوله، ولكنهم لايقدرون على خلق الأسباب التي تنشئه، والنص يقرر أن الله

هو الذي ينزل الغيث، لأنه سبحانه هو المنشئ للأسباب الكونية التي تكوّنه والتي تنظمه فاختصاص الله في الغيث هو اختصاص القدرة لما هو ظاهر من النص.

وقد وهم الذين عدوه في المغيبات المختصة بعلم الله، وإن كان علم الله وحده هو العلم في كل أمر وشأن.

فهو وحده العلم الصحيح الكامل الشامل الدائم الذي لايلحق به زيادة ولا نقصان.

﴿ويعلم ما في الأرحام﴾ .. اختصاصٌ بالعلم كالاختصاص في أمر (الساعة) فهو سبحانه الذي يعلم وحده علم اليقين ماذا في الأرحام في كل لحظة وفي كل طور. من فيض وغيض ومن حمل حتى حين لايكون للحمل حجم ولا جرم، ونوع هذا الحمل ذكراً أم أنثى، حين لا يملك أحد أن يعرف من ذلك شيئاً في اللحظة الأولى لاتحاد الخلية والبويضة، وملامح الجنين وخواصه، وحالته، واستعداداته.، فكل أولئك مما يختص به علم الله تعالى .. انتهى[1].

ومما سبق تتلخص لدينا الحقائق التالية:

(أ) أن القرآن الكريم قسّم العالم إلى قسمين :
عالم الغيب وعالم الشهادة.

وقد ذكر الله تعالى في مواضع متعددة من القرآن الكريم فقال تعالى ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2].

---

(١) في ظلال القرآن جـ٥، ص ٢٧٩٨.
(٢) سورة الحشر الآية (٢٢).

وقوله تعالى ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ﴾[1].

ويلاحظ أن النصوص القرآنية تقدم الغيب على الشهادة، والحكمة في ذلك، أن الأمور المغيبة عنا لاتتناهى سعةً ومدى، أما الأمور التي يمكن لنا أن نتوصل إلى شهودها ومعرفتها فهي أمور يسيرة قليلة[2] قال تعالى ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾[3].

(ب) أن عقولنا بحسب حالتها الراهنة التي فطرت عليها مفتقرة في إدراك عالم الغيب إلى الوحى.

(جـ) أنه يجب علينا الوقوف في المغيبات عند النص المُوحَىٰ به.

أثر الإيمان بالغيب في حياة الفرد والمجتمع

إن السمة الأولى للمتقين، هي التي تجمع بين الإيمان بالغيب والقيام بالفرائض والواجبات، والإيمان بالرسل كافة وما يدعون إليه، واليقين بعد ذلك بالآخرة. وهذا هو التكامل الذي تمتاز به العقيدة الإسلامية. ﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ فلا تقوم حواجز الحس دون الاتصال بين أرواحهم والقوة الكبرى التي صدرت عنها،

---

(١) سورة الرعد الآية (٩).

(٢) انظر هذا الموضوع بتوسع في كتاب العقيدة الإسلامية للدكتور عبد الرحمن جنكة جـ١ ص ١١ ــ ٢٨.

(٣) سورة الإسراء الآية (٨٥).

وصدر عنها هذا الوجود، ولاتقوم حواجز الحس بين أرواحهم وسائر ماوراء الحس من حقائق وقوى وطاقات وخلائق وموجودات.

والإيمان بالغيب: هو العتبة التي يجتازها الإنسان، فيجتاز مرتبة الحيوان الذي لايدرك إلا ماتدركه حواسه، إلى مرتبة الإنسان الذي يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيّز الصغير المحدد الذي تدركه الحواس، أو الأجهزة التي هي امتداد للحواس، فليس من يعيش في الحيّز الصغير الذي تدركه حواسه كمن يعيش في الكون الكبير الذي تدركه بديهته وبصيرته. ويمكن أن نلّخص آثار الإيمان بالغيب في الفرد والمجتمع فيما يلي:

١ ــ أنه الصفة الأولى من صفات المتقين التي افتتح الله بها سورة البقرة، وستظهر هذه الآثار بإسعاد الفرد والمجتمع ممن يؤمن بالغيب في حياته الأولى والآخرة.

٢ ــ صيانة الطاقة الفكرية المحدودة المجال عن التبدد والتمزق والانشغال بما لم تخلق له، وما لم توهب القدرة للإحاطة به.

٣ ــ طمأنينة النفس واستقرارها وعدم تعريضه نفسه وعقله للبلبلة والاضطراب والضلال عند محاولة تفسير الغيب وأسرار الكون من خلال التصورات المحدودة.

٤ ــ إن في النفس الإنسانية جانباً لايملأه إلا الإيمان مهما بلغ الإنسان تقدماً في جانب الحضارة المادية، فالسعادة هي في طمأنينة النفس واستقرارها، وليست في حضارتها المادية المجردة، فا(لسويد) مثلاً من أرقى دول العالم

حضارة ولكننا نجد نسبة الانتحار فيها من أعلى النسب في العالم كما تدل عليه بعض الإحصاءات المتخصصة.

٥ ــ أن الإيمان بالغيب يبعث على العمل والنشاط في جميع أوجه الحياة، فيسعى المؤمن لإقامة موازين العدل في الأرض، ويصبر على متاعب الحياة طلبا لما عند الله من الأجر والثواب في الدار الآخرة.

هذه لمحة سريعة عن الإيمان بالغيب وأثره في حياة الفرد والمجتمع.

الموضوع السابع : البعث والجزاء.

قبل أن أتحدث عن البعث الذي هو الاحياء بعد الموت يوم القيامة، سأتحدث عن معانى البعث التي وردت في القرآن الكريم كما ذكرها كثير من المفسرين، وأصحاب كتب الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، فقد ذكر العلماء أن البعث في القرآن على ستة أوجه، كما ذكره ابن الجوزى في نزهة الأعين النواظر، وهي :

الأول : الإلهام، ومنه قوله تعالى ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[١].

الثاني : الاحياء بعد الموت، ومنه قوله تعالى ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾[٢] وقوله تعالى ﴿ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ﴾[٣].

الثالث : الإيقاظ من النوم، ومنه قوله تعالى ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾[٤] وقوله تعالى ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾[٥].

---

(١) سورة المائدة الآية (٣١).

(٢) سورة البقرة الآية (٥٦).

(٣) سورة البقرة الآية (٢٥٩).

(٤) سورة الأنعام الآية (٦٠).

(٥) سورة الكهف الآية (١٢).

الرابع : التسليط، ومنه قوله تعالى في بنى إسرائيل ﴿ بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ ﴾[(١)].

الخامس : الإرسال، ومنه قوله تعالى ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾[(٢)] وقوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾[(٣)].

السادس : النّصْبُ، ومنه قوله تعالى ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ[(٤)] أي انصب لنا، وقوله تعالى إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا[(٥)]، وقال تعالى ﴿ فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾[(٦)].

والبعث والجزاء من الموضوعات المهمة التي شغلت الفكر الإنساني منذ القدم، وتصارعت فيها الأفكار بين السلب والإيجاب، والبشرية بما هو مرتكز في فطرتها من حب البقاء تقاوم فكرة العدم المحض، لأنها تحس بالحسرة الصارخة عندما تختنق فيها بواعث الأمل باستمرار هذه الحياة الدنيا، فهي ترى مظاهر الموت على قدم وساق حيث تسلب الحياة من هذه الأجساد ثم لاتلبث الأجساد أن تتحول إلى رفات ثم تتحلل إلى ذرات، فإذا كان مصير الإنسانية إلى هذا الفناء الرهيب فما أبشعها من حياة محوطة بالمخاطر بين لحظة وأخرى، إنها رحلة تشدها الأحاسيس والمدارك إلى حفرة رهيبة في نهاية المطاف فتصبح فيه الأجساد رمة عفنة ينهشها الدود من كل مكان.

وقد جاءت الأديان السماوية مبشرة بحياة أخرى بعد الموت وجعلت مصير كل إنسان مرتهناً بما قدمت يداه في الحياة الدنيا، وبذلك عاد للإنسانية نوع من

---

(١) سورة الإسراء الآية (٥).
(٢) سورة البقرة الآية (١٢٩).
(٣) سورة الجمعة الآية (٢).
(٤) سورة البقرة الآية (٢٤٦).
(٥) سورة البقرة الآية (٢٤٧).
(٦) سورة النساء الآية (٣٥).

الطمأنينة إذا هي آمنت بربها وما جاءت به رسله، وقدمت عملاً صالحاً تسعد به في حياتها الأخرى.

وإذا كانت جميع الأديان السماوية تدعو للإيمان بالحياة الأخرى والبعث بعد الموت، فقد كانت الأديان السابقة تكل المؤمن إلى إيمانه الذي يفترض عليه التصديق بكل ما جاءت به رسل الله عليهم الصلاة والسلام من أنباء الغيب الذي لايعلمه إلا الله تعالى، وختمت تلك الرسالات برسالة الإسلام الخالدة وهي الرسالة العالمية وليس بعدها رسالة تبين للناس ما يختلفون فيه وما يستجد من حياتهم العقلية والحضارية، فلابد من أن تكون وافية بمطالب الروح والجسد في تعاليمها وهداياتها، ولابد من أن تكون براهينها قائمة على ما جاءت به من مبادئ وقيم، لأن الجدل مرتكز في بني الإنسان جبلة وطبعاً (وكان الإنسان أكثر شيئ جدلاً)، ولما كان الإقناع بحياة أخرى بعد الموت من الأمور التي تشغل الفكر الإنساني فقد جاء القرآن الكريم وافياً بالأدلة والبراهين القاطعة على البعث والجزاء وعرض ذلك في نماذج حية، وضمنها شبه المنكرين للبعث، ولم يتركها تمر دون مناقشة لها بالمنطق الصحيح وإبطال الشبه والملابسات بالبراهين العقلية التي تزيل فكرة الفناء الأبدي وتعيد للإنسانية طمأنينتها وتدفعها للعمل، وتحيي فيها آمال التسابق في الدرجات العلا في حياة أفضل.

منكرو البعث من الطبائعيين والماديين :

وقبل أن نتحدث عن منهج القرآن الكريم في إثبات البعث والجزاء. نريد أن نعرف أن الإنكار ممتد في الأمم الماضية عبر القرون والأعصار، وأن الفلاسفة الطبيعيين أنكروا ذلك، ونريد أن نعرف بوجه عام الشبهات التي يستمسك بها كل منكر للبعث، وليس لدينا بالنسبة للأمم الماضية سجل تاريخي أصدق من القرآن الكريم، وقد حدثنا القرآن عن صدور الإنكار والاستبعاد من تلك الأمم المكذبة

لرسلها فقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[2].

ووجه الاستدلال من هذه الآيات على تكذيب الأمم السابقة بالبعث، أن السياق من أول السورة يتعلق بالمكذبين بالبعث من قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿أإذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد﴾ إلى قوله: ﴿وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود .. الآيات﴾، ثم قال: ﴿أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد﴾ وإن كان اللفظ يدل على مطلق التكذيب من الأمم المذكورة لرسلها إلا أن التكذيب بالبعث يدخل في ذلك دخولاً أولياً لارتباطه بسياق الآيات التي قبله والتي بعده، فالمنكرون للبعث هم الكفرة المنكرون لوجود الله، والفلاسفة الذين يطلق عليهم الإمام الغزالي «الطبيعيّون» وهم الماديون الذين لايؤمنون بما وراء المادة فيقولون «بطن تدفع وأرض تبلع وما يهلكنا إلا الدهر».

والطبيعيون كما يقول الغزالي «قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات وأكثروا الخوض في علم التشريح لأعضاء الحيوانات فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى وبدائع حكمته ما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم مطلع على غايات الأمور ومقاصدها ولا يطالع علم التشريح وعجائب منافع

---

(١) سورة المؤمنون الآية (٨١،٨٣).
(٢) سورة ق الآيات (١٢،١٥).

الأعضاء مطالع إلا يحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير المباني لبنية الحيوان لاسيما الإنسان، إلا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة، ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان به، فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضاً وأنها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم ثم إذا انعدم فلا يعقل إعادة المعدوم كما زعموا، فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود فجحدوا الآخرة وأنكروا الجنة والنار والحشر والنشر والقيامة والحساب فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ولا للمعصية عقاب فانحل عنهم اللجام وانهمكوا في الشهوات انهماك الأنعام»[١].

وكلام الغزالي وارد على الطبيعيين من الفلاسفة القدماء، لأنه قسم الفلاسفة إلى ثلاثة أقسام: الدهريون، والطبيعيون، والإلٰهيون.

فالدهريون : هم الذين جحدوا وجود الصانع المدبر، وهؤلاء هم الزنادقة.
والطبيعيون : «اعترفوا بالصانع لما رأوا في عجائب الطبيعة من تناسب محكم لايمكن أن يكون وليد المصادفة، ولكنهم رأوا أن النفس تابعة للبدن ولذلك تفنى بفنائه» ولايمكن أن تعود.
الإلٰهيون : وهم المتأخرون منهم مثل «سقراط» و«أفلاطون» و«أرسطاطاليس».

قال الغزالي: «وهم بجملتهم ردوا على الصنفين الأولين الدهرية والطبيعية وأوردوا في الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾[٢] بتقاتلهم»[٣].

---

(١) المنقذ من الضلال الغزالي ص ٧٦ ــ ٧٧.

(٢) سورة الأحزاب الآية (٢٥).

(٣) انظر المنقذ من الضلال ص ٧٦ ــ ٧٧.

أما الطبيعيون من العرب فإنه لم يكن عندهم في إنكار البعث منطق جدلي فلسفى، وليس لديهم من دليل سوى الاستبعاد والإنكار، ولهذا يقول قائلهم :

حيـــاة ثم مـــوت ثم نشـــــر
حـــديث خـرافــة يـــاأم عمـــرو[1]

وقال الآخر في رثاء أهل بدر من المشركين :

فمـــاذا بالقلـــيب قلـــيب بـــدر
من الشّيـــزى تكلـــل بالسنـــام
يخبـرنـــا الـــرسول لســوف نحيـــا
وكيـــف حيـــاة أصـــداء وهـــام[2]

واعلم أن مسألة البعث مسألة بالغة الصعوبة لدى كل متشكك فيما جاءت به الرسل عليهم الصلاة والسلام، لأنه لابد من أن ينضم إلى أدلة البعث الإيمانُ بما أخبرت به الرسل، فإن مجرد الإستدلال العقلي وإن دل على ذلك أو قال بإمكانه فهو لايكفى لاقتحام تلك المنطقة الغيبية ومعرفة ما تنطوي عليه مظاهر الحشر والنشر والحساب والجنة والنار، فلابد من الرجوع إلى ماجاءت به الرسل وبذلك تقوم الأدلة العقلية على إمكان البعث وتحقق وقوعه.

والقرآن الكريم وهو كتاب الله الذي ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه﴾ يرد على جميع المنكرين للبعث مهما اختلفت بيئاتهم أو تنوعت أساليبهم يرد عليهم بمنطق الحجة والبرهان، ويقيم البراهين الحسية والعقلية على المعاد.

---

(١) الملل والنحل للشهرستاني جـ٢، ص ٢٣٧.
(٢) السيرة النبوية لابن كثير جـ٢، ص ٥٣٦.

منهج القرآن في استدلاله على إمكان البعث وتحقق وقوعه :

ولقد نهج القرآن الكريم في استدلاله على إمكان البعث، وتحقق وقوعه منهجاً قويماً يجمع بين ما فطرت عليه النفوس من الإيمان، بما تشاهد وتحس ويقع منها تحت تأثير السمع والبصر، وبين ما تقرره العقول السليمة ولايتنافى مع الفطر المستقيمة، وتلك طريقة تميز بها القرآن الكريم مما لاتجده في كتب الحكمة النظرية.

وكان منهج القرآن في استدلاله على البعث كما يلي :

أولاً : الاستدلال على البعث بمن أماتهم الله ثم أحياهم، كما أخبر الله تعالى عن ذلك ومنهم :

١ ــ قوم موسى قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[١].

وقيل إن الذين أخذتهم الصاعقة هم السبعون الذين اختارهم موسى، ذلك أنهم لما أسمعهم كلام الله تعالى قالوا بعد ذلك (لن نؤمن لك) والإيمان بالأنبياء واجب بعد ظهور معجزاتهم فأرسل الله إليهم ناراً من السماء فأحرقتهم ثم دعا موسى ربه فأحياهم كما قال تعالى: ﴿ثم بعثناكم من بعد موتكم﴾[٢].

٢ ــ المضروب بعضو من أعضاء البقرة كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَٰٔتُمْ فِيهَا وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[٣].

(١) سورة البقرة الآية (٥٥،٥٦).
(٢) انظر تفسير القرطبي جـ١، ص ٤٠٣.
(٣) سورة البقرة الآية (٧٢،٧٣).

قيل إن المقتول ضرب بعضو من أعضاء تلك البقرة التى أمرهم الله أن يذبحوها كما قال موسى لهم (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) فلما ضرب به حَيِيَ وأخبر بقاتله ثم عاد ميتاً كما كان[١].

٣ ـ الذين أخبر الله عنهم بقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾[٢]، وهؤلاء قوم من بنى إسرائيل وقع فيهم الوباء ففروا هاربين، قال ابن عباس: «كانوا أربعة آلاف خرجوا فراراً من الطاعون وقالوا نأتي أرضاً ليس بها موت فأماتهم الله تعالى فمر بهم نبي فدعا الله فأحياهم»[٣].

٤ ـ ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٤].

والذي مر على القرية هو «عزير» عليه السلام قال ابن كثير في تفسيره «وهذا هو القول المشهور»، والقرية المشهورة هي بيت المقدس مر عليها عزير بعد تخريب بختنصّر لها وقتل أهلها»[٥].

---

(١) انظر تفسير القرطبى جـ١، ص ٤٥٧.

(٢) سورة البقرة الآية (٢٤٣).

(٣) انظر القرطبي جـ٣، ص ٢٣٠.

(٤) سورة البقرة الآية (٢٥٩).

(٥) انظر تفسير ابن كثير جـ١، ص ٣١٤.

٥ ـــ سؤال إبراهيم عليه السلام عن كيفية إحياء الموتى، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[(١)].

وقد ذكر المفسرون لسؤال إبراهيم عليه السلام هذا أسباباً منها: أنه لما قال لنمرود (ربي الذي يحيي ويميت) أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة.

أما قوله تعالى: ﴿فصرهن إليك﴾ فقد روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: أوثقهن فلمّا أوثقهنّ ذبحهن، ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن ثم قطعهن ونتف ريشهن ومزّقهن وخلط بعضهن ببعض ثم جزأهن أجزاء، وجعل على كل جبل منهن جزءاً، قيل أربعة أربعة وقيل سبعة قال ابن عباس وأخذ رؤسهن بيده ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهن فدعاهن كما أمره الله عز وجل، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش، والدم إلى الدم واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض، حتى قام كل طائر على حدته وأتينه يمشين سعياً ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها، وجعل كل طائر يجئ ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم عليه السلام فإذا قدم له غير رأسه يأباه فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته»[(٢)].

٦ ـــ ما أخبر الله به عن عيسى عليه السلام من أنه كان يحيي الموتي بإذن الله

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٠).

(٢) انظر تفسير ابن كثير جـ١، ص ٣١٥.

كما قال تعالى: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ ﴾(1).

٧ ــ ما أخبر الله من قصة أصحاب الكهف.

وهذه الأدلة المتقدمة أدلة مادية حسية، وقعت كلها لتدل على إحياء الموتى بعد مماتهم وهذا برهان قطعي على القدرة الإلٰهية وقد أخبر الله ورسله عن وقوع البعث والحشر فوجب القطع بذلك لأنه أخبر به من ثبت صدقه عمن ثبتت قدرته.

ثانياً: الاستدلال على البعث بالنشأة الأولى، ومن الآيات الدالة على ذلك ما يلي:

١ ــ قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾(2).

في هذه الآيات دليلان على إمكان البعث، أحدهما دليل في الأنفس والآخر دليل في الآفاق، فأما الدليل الذي في الأنفس فهو ما اشتمل عليه صدر الآية وهو متعلق بالنشأة الأولى، وأما الدليل الآفاقي فهو قوله تعالى: ﴿ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴾ وهو

---

(١) سورة آل عمران الآية (٤٩).

(٢) سورة الحج الآية (٥،٧).

الاستدلال بخلق النبات على إمكان البعث كما سيأتي، وإنما أوردنا الاستدلالين لترتب النتائج الخمس المذكورة بعدهما عليهما، وقد اشتمل الدليلان على مقدمات صحيحة على إمكان البعث، والدليلان هما:

(أ) الاستدلال بخلقة الحيوان أولاً وهو موافق لما أجمله الله في قوله: ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾ وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ (١) فكأنه سبحانه وتعالى قال: إن كنتم في ريب مما وعدناكم من البعث فتذكروا في خلقتكم الأولى لتعلموا أن القادر على خلقكم أولا قادر على خلقكم ثانياً(٢).

(ب) الاستدلال بحال خلقه النبات على ذلك وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وترى الأرض هامدة﴾..إلخ، ثم إنه سبحانه لما قرر هذين الدليلين رتب عليهما ما هو المطلوب والنتيجة، وذكر أموراً خمسة:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ذلك بأن الله هو الحق﴾ والحق هو الموجود الثابت فكأنه سبحانه بين أن هذه الوجوه دالة على وجود الصانع، وحاصلها راجع إلى أن حدوث هذه الأعراض المتنافية وتواردها على الأجسام دليل على وجود الصانع.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وأنه يحيي الموتى﴾ فهذا تنبيه على أنه لما لم يستبعد من الإلٰه إيجاد هذه الأشياء فكيف يستبعد منه إعادة الأموات؟.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وأنه على كل شيئ قدير﴾ يعني أن الذي يصح منه إيجاد هذه الأشياء لابد من أن يكون واجب الاتصاف لذاته بالقدرة ومن كان كذلك

(١) سورة الإسراء الآية (٥١).
(٢) الفخر الرازي جـ٢٣، ص ٧.

كان قادراً على جميع الممكنات، ومن كان كذلك فإنه لابد أن يكون قادراً على الإعادة.

٤ ـــ قوله تعالى: ﴿وأن الساعة آتية لاريب فيها﴾ والمعنى أنه لما أقام الدلائل على أن الإعادة في نفسها ممكنة وأنه تعالى قادر على كل الممكنات وجب القطع بكونه قادراً على الإعادة في نفسها، وإذا ثبت الإمكان وأخبر الصادق عن وقوعه وجب القطع بوقوعه[١].

٥ ـــ قوله تعالى: ﴿وأن الله يبعث من في القبور﴾ لأنه خبر ممن ثبت صدقه عمن ثبتت قدرته فوجب القطع بوقوعه أيضاً.

قال الفخر الرازي : «واعلم أن تحرير هذه الدلالة على الوجه النظري أن يقال الإعادة في نفسها ممكنة والصادق أخبر عن وقوعها فلابد من القطع بوقوعها»[٢].

٢ ـــ قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴾[٣].

قال مجاهد وعكرمة وعروة بن الزبير والسدي وقتادة جاء أبي بن خلف لعنه الله إلى رسول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يفته ويذروه في الهواء وهو يقول : يامحمد أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال رسول الله ﷺ «نعم يميتك الله تعالى ثم يبعثك ثم يحشرك إلى النار» ونزلت هذه الآيات من آخر يس.

(١) الفخر الرازي مع بعض التصرف جـ٢٣، ص ٩ ـــ ١٠.
(٢) جـ٢٣، ص ١٠.
(٣) سورة يس الآية (٧٨،٧٩).

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إن العاص بن وائل أخذ عظماً من البطحاء ففتته بيده ثم قال لرسول الله ﷺ أيحيى هذه الله بعدما ترى فقال رسول الله ﷺ «نعم يميتك الله ثم يحييك ثم يدخلك جهنم» قال : ونزلت الآيات من آخر يس.

وسواء كانت هذه الآيات قد نزلت في أبي بن خلف أو العاص أو فيهما فهي عامة في كل من أنكر البعث، ذكره ابن كثير(١).

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية في قول الله تعالى حكاية عن منكر البعث ﴿من يحيي العظام وهي رميم﴾ قال إنه قياس حذفت إحدى مقدمتيه لظهورها، والأخرى سالبة كلية قرن معها دليها وهو المثل المضروب الذي ذكره بقوله: ﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم﴾ وهذا الاستفهام إنكار متضمن للنفي أي لا أحد يحيي العظام وهي رميم فإن كونها رميماً يمنع عنده إحياءها لمصيرها إلى حال اليبس والبرودة المنافية للحياة التي مبناها على الحرارة والرطوبة، ولتفرق أجزائها واختلاطها بغيرها، ولنحو ذلك من الشبهات.

والتقدير : هذه العظام رميم ولا أحد يحيي العظام وهي رميم فلا أحد يحييها، ولكن هذه السّالبة كاذبة ومضمونها امتناع الإحياء، فبين سبحانه إمكانه من وجوه ببيان إمكان ما هو أبعد من ذلك وقدرته عليه فقال: ﴿يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾ وقد أنشأها من التراب، ثم قال ﴿وهو بكل خلق عليم﴾ليبين علمه بما تفرق من الأجزاء أو استحال(٢).

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٣، ص ٥٨١.

(٢) دره تعارض العقل والنقل جـ١، ص ٣٣ مطبعة دار الكتب ١٩٧١.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدٗا ۞ قُل كُونُواْ حِجَارَةً أَوۡ حَدِيدًا أَوۡ خَلۡقٗا مِّمَّا يَكۡبُرُ فِي صُدُورِكُمۡۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ فَسَيُنۡغِضُونَ إِلَيۡكَ رُءُوسَهُمۡ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَۖ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبٗا﴾[1].

إن شبهات المنكرين للبعث تكاد تكون متجانسة لأنها تدور حول استبعاد جمع الأجزاء بعد تفرقها وإعادة الحياة إليها بعد فنائها وهذه الشبه لاتكون إلا بالقدح في كمال علم الله المحيط بكل شيئ وكمال قدرته على كل شيئ، وقد قام البرهان على كمال العلم والقدرة لله تعالى، فلا وجه للاستبعاد والاستغراب بعد ذلك، وفي قوله تعالى: ﴿قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم﴾ يعنى به أنكم مهما تفرقتم وعلى أية حالة كنتم فالله قادر على بعثكم وإعادتكم حتى لو تحولتم إلى حجارة أو حديد فالله قادر على إعادة الحياة إليكم مرة أخرى، مع أن المنافاة بين الحجرية والحديدية وبين قبول الحياة أشد من المنافاة بين العظمة وبين قبول الحياة، وذلك أن العظم قد كان جزءاً من بدن الحي، أما الحجارة والحديد فما كانا البتة موصوفين بالحياة.

وفي قوله: ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ ﴾ استدلال بالنشأة الأولى على الثانية وهذا هو الشاهد من الآية، أما قولهم (متى هو؟) فهو سؤال فاسد كما ذكره الرازي، لأنهم حكموا بامتناع الحشر والنشر بناء على الشبهة التي حكيناها، ثم إن الله تعالى بين بالبرهان الباهر كونه ممكناً في نفسه، فقولهم متى هو؟ كلام لاتعلق له بالبحث الأول فإنه متى ثبت بالدليل العقلي كونه ممكن الوجود في نفسه وجب الاعتراف بإمكانه،فأما أنه متى يوجد فذاك لايمكن إثباته

---

(١) سورة الإسراء الآية (٤٩، ٥١).

من طريق العقل بل إنما يمكن إثباته بالدلائل السمعية فإن أخبر الله تعالى عن ذلك الوقت المعين عُرِف وإلا فلا سبيل إلى معرفته[1].

٤ ــ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[2] في هذه الآية استدلال على البعث بالقياس الأولوي، وفي قوله ﴿وهو أهون عليه﴾ ضرب مثل لأنه لايوجد بالنسبة لله تعالى شيئ هو أسهل وشيئ هو أصعب وإنما المقدورات عندنا نحن متفاوتة في العسر واليسر باختلاف القدرة التي تزيد وتنقص في حقنا، ولما كان إيجاد شيئ لا من شيئ مستحيلاً منا، وإيجاد شيئ من شيئ ممكناً استعار كلمة أفعل، وضرب ذلك مثلاً، ولما استحال في حقه العجز والضعف عن إيجاد شيئ لا من شيئ قال: ﴿وله المثل الأعلى﴾ وذلك مطرد في سائر صفاته سبحانه من العلم والقدرة والحياة والرحمة والرضى والغضب، وكل صفة وصف بها الإنسان من ذلك فإن لله تعالى من ذلك مايليق بجلاله وعظمته وللمخلوق مايليق بعجزه وضعفه.

٥ ــ قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾[3].

بهذا المنطق الصحيح والبرهان القاطع يرد القرآن الكريم على ذلك المنكر ويجادله في أسلوب هادئ محكم فيلزمه الحجة الواضحة في أقل من نصف سطر، وفي الآية كما ترى استدلال على المعاد بالنشأة الأولى.

ثالثاً : الاستدلال على إمكان البعث بخلق الأكوان، مثل السموات والأرض، فإن خلقها أعظم من خلق الإنسان، ومن الآيات الدالة عليه مايلي:

(١) انظر الفخر الرازي جـ٢٠، ص٢٢٦.

(٢) سورة الروم الآية (٢٧).

(٣) سورة مريم الآية (٦٦،٦٧).

١ ــ قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمٗا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ خَلۡقٗا جَدِيدًا ٩٨ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۡ وَجَعَلَ لَهُمۡ أَجَلٗا لَّا رَيۡبَ فِيهِ﴾(١).

٢ ــ قوله تعالى: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾(٢).

٣ ــ وقال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾(٣).

وجميع الآيات السابقة وما في معناها من الآيات أكبر برهان على قدرة الله المطلقة التي لا تقيد بقيود ولا تنتهي عند حدود، فإن تلك الآيات الكونية مما هو معروف ببداهة العقول أن خلقها أعظم من إعادة خلق الإنسان.

رابعاً : الاستدلال على إمكان البعث بخلق النباتات المختلفة: ومن الآيات ما يلي:

١ ــ قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾(٤).

---

(١) سورة الإسراء الآية (٩٨،٩٩).
(٢) سورة يس الآية (٨١).
(٣) سورة الأحقاف الآية (٣٣).
(٤) سورة الأعراف الآية (٥٧).

٢ ـــ قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾(١).

٣ ـــ قوله تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴾(٢).

٤ ـــ قوله تعالى: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ ﴾(٣).

وفي هذه الآيات السابقة استدلال بتبدل أحوال النباتات من حياة إلى موت فحياة، وسلب خاصية النشوء والنماء في بعض النباتات فتهمد وتتفتت ثم تسقى بالماء فتعود إليها تلك الخاصية، فلو كان مستحيلاً إعادة الحياة إلى الإنسان مرة أخرى لما عادت الحياة إلى النباتات المختلفة بعد موتها لأن المشابهة واضحة في القدرة الإلٰهية في إعادة الحياتين سيرتهما الأولى، ولهذا لفت القرآن الكريم أنظار المنكرين إلى التبصر في الموجودات الحسية واستنتاج العظات والعبر منها ليعود للنفس إيمانها فتسعد بالطمأنينة والاستقرار، وقد تقدمت المشابهة بين إعادة الحياة إلى النبات بالمطر وإعادة بناء الأجساد وإنباتها بالمطر الذي يجعله الله عند البعث وهو مطر كمني الرجال فتنبت منه الأجساد.

(١) سورة فاطر الآية (٩).
(٢) سورة فصلت الآية (٣٩).
(٣) سورة الرعد الآية (٥).

وفي قوله تعالى: ﴿وإن تعجب فعجب قولهم﴾..الآية إشارة إلى أن العجب يكون من إنكارهم لا من البعث، ومعناه: إن كان لك عجب من شيئ فمن إنكارهم البعث، فاعجب لأن العجب ما ندر وجوده وخفي سببه، وليس البعث مما ندر، وهم يشاهدون إحياء الأرض بعد موتها، واكتساء الأشجار بعد عريها، وعود النهار بعد زواله، والليل بعد ذهابه، وإخراج الحي من الميت والميت من الحي، ولا مما خفي سببه فإن الله سبحانه هو الفاعل لذلك والمخترع له والقادر عليه وحكمته إظهار ما استتر عن خلقه من تدبيره، وما النشأة الثانية بأعجب من الأولى(١).

خامساً : الاستدلال على إمكان البعث بحصول أحد المتضادين، فإن الإحياء بعد الموت لايستنكر من حيث أنه يحصل الضد بعد حصول الضد، إلا أن ذلك غير مستنكر في قدرة الله تعالى لأنه لمّا جاز حصول الموت عقيب الحياة فكيف يستبعد حصول الحياة مرة أخرى بعد الموت؟ فإن حكم الضدين واحد قال تعالى مقرراً لهذا المعنى: ﴿ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾(٢).

سادساً : الاستدلال على البعث والإعادة بإخراج النار من الشجر الأخضر:

١ ــ قال تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴾(٣).

٢ ــ قال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴾(٤).

(١) انظر استخراج الجدال من القرآن الكريم لابن الحنبلى مخطوطة ص ١٤.

(٢) سورة الواقعة الآية (٦٠).

(٣) سورة يس الآية (٨٠).

(٤) سورة الواقعة الآية (٧١،٧٢).

وفي الآيتين السابقتين استدلال بتوليد النار مع حرها ويبسها من الشجر الأخضر مع برده ورطوبته.

قال الفخر الرازي في قوله تعالى: ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً﴾الآية «ووجهه هو أن الإنسان مشتمل على جسم يحس به حياة سارية فيه وهي كحرارة جارية فيه، فإن استبعدتم وجود حرارة وحياة فيه فلا تستبعدوه فإن النار في الشجر الأخضر الذي يقطر منه الماء أعجب وأغرب، وأنتم تحضرون حيث منه توقدون، وإن استبعدتم خلق جسمه فخلق السموات والأرض أكبر من خلق أنفسكم فلا تستبعدوه فإن الله خلق السموات والأرض»[1]، وفي هذا عبرة عظيمة فإن الله تعالى جمع في الشجر الأخضر بين الماء والنار والخشب فلا الماء يطفئ النار ولا النار تحرق الخشب.

وفي قوله تعالى: ﴿أفرأيتم النار التي تورون﴾الآيات، إما أن يراد من شجرة النار الشجرة التي تورى النار منها بالزند والزندة كالمرخ والعفارّ، أو يراد بها الشجرة التي تصلح لإيقاد النار كالحطب فإنها لو لم تكن لم يسهل إيقاد النار، ووجه دلالة النار على البعث أن النار تكمن في الشجر والحجر ثم تظهر بالقدح وتشب بالنفخ، فالحجر، والشجر كالقبر والقدح والنفخ كالنفخة في الصور.

وقد تحدث فلاسفة الإسلام عن إمكان البعث وأبرزوا ذلك في دراساتهم النظرية، ولكنهم يجدون بغيتهم في القرآن الكريم بأوجز عبارة وأحكم برهان، ولا غرابة إذا رأينا الفيلسوف الكندي متأثراً بتلك البراهين في دراسته للتفسير من الناحية النظرية.

---

(١) تفسير الرازي جـ٢٦، ص ١١٠.

فقد تحدث عن الآيات التي في آخر سورة يس كما نقله عنه الأستاذ أبو ريدة حيث قال في تفسير الكندى لهذه الآيات «أن فيه يبرز فيلسوفنا الأصول النظرية التي تتضمنها هذه الآيات من جهة، ويستخرج النتائج التي تلزم عنها من جهة أخرى»، وهي:

١ ــ وجود الشيئ من جديد بعد كونه وتحلله السابقين ممكن بدليل مشاهدة وجوده بالفعل مرة لاسيما أن جمع المتفرق أسهل من إيجاده وإبداعه عن عدم وإن كان لايوجد بالنسبة لله شيئ هو أسهل وشيئ هو أصعب، هذا الدليل موجود في الآيات في كلمات قليلة: ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم﴾.

٢ ــ ظهور الشيئ من نقيضه كظهور النار من الشجر الأخضر ممكن واقع تحت الحس، وإذن يمكن أن تدب الحياة في الجسد المتحلل الهامد مرة أخرى، وذلك أيضاً على أساس المبدأ الأكبر وهو: أن الشيئ يمكن أن يوجد من العدم المطلق بفعل المبدع الحق، هذا الدليل موجود في آية ﴿الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون﴾ وقد انتفع به الأشعري في إمكان البعث.

٣ ــ خلق الإنسان أو إحياؤه بعد الموت أيسر من خلق العالم الأكبر بعد أن لم يكن وهذا هو مضمون آية ﴿أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلىٰ وهو الخلاق العليم﴾.

٤ ــ الخلق والفعل مطلقاً مهما عظم المخلوق لايحتاج من جانب الله المبدع لا إلى مادة ولا إلى زمان خلافاً لفعل البشر الذي لايتم إلا في زمان ويحتاج إلى مادة

تكون موضوع الفعل وهذا معنى آية ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾.

وهذه الآية في رأي الكندي إجابة عما في قلوب الكفار من النكير بسبب ظنهم أن الفعل الإلٰهي المتجلي في خلق العالم الكبير يحتاج إلى زمان يناسب عظمته قياساً منهم لفعل الله على فعل البشر، لأن فعل البشر لما هو أعظم يحتاج إلى مدة زمانية أطول فجاءت الآية حاسمة في بيان نوع الفعل الإلٰهي وأنه إبداع بالإرادة الخالقة والقدرة المطلقة لايحتاج إلى مادة ولا إلى امتداد زماني.

فأي بشر ــ كما يقول الكندي ــ يقدر بفلسفة البشر أن يجمع في قول بقدر حروف هذه الآيات ما جمع الله جل وتعالى إلى رسوله ﷺ فيها من إيضاح أن العظام تحيى بعد أن تصير رميماً، وأن قدرته تخلق مثل السموات والأرض، وأن الشيئ يكون من نقيضة، كلّت عن ذلك الألسن المنطقية المتحايلة وقصرت عن مثله نهايات البشر وحجبت عنه العقول الجزئية[١].

سابعاً : الاستدلال على إمكان البعث بأن اختلاف الناس في الدنيا لايرتفع «واختلاف المختلفين في الحق لا يوجب انقلاب الحق في نفسه» فوجب أن يكون هنا معاد ينحسم فيه النزاع ولايكون ذلك إلا بين يدي الحي القيوم، قال تعالى: ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَٰذِبِينَ ﴾[٢].

(١) رسائل الكندى ص ٥٧ ــ ٥٨.
(٢) سورة النحل الآية (٣٨،٣٩).

وقد أورد السيوطي في الإتقان قول ابن السيد في الآيتين السابقتين «وتقريرهما أن اختلاف المختلفين في الحق لايوجب انقلاب الحق في نفسه وإنما تختلف الطرق الموصلة إليه، والحق في نفسه واحد فلما ثبت أن ها هنا حقيقة موجودة لا محالة وكان لاسبيل لنا في حياتنا إلى الوقوف عليها وقوفاً يوجب الائتلاف ويرفع عنا الاختلاف إذ كان الاختلاف مركوزاً في فطرنا وكان لايمكن ارتفاعه وزواله إلا بارتفاع هذه الجبلة ونقلها إلى صورة غيرها صح ضرورة أن لنا حياة أخرى غير هذه الحياة، فيها يرتفع الخلاف والعناد، وهذه هي الحالة التي وعد الله بالمصير إليها فقال: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾[1] أي حقد فقد صار الخلاف الموجود كما ترى أوضح دليل على كون البعث الذي ينكره المنكرون»[2].

فكل خصومة لابد لها من منتهى في موقف ينقطع فيه الجدال بالباطل ويذهب فيه عنفوان المكابرة والعناد وهذا الشعور الوجداني هو الذي يشعر به كل مظلوم وينتظر ساعة الفصل العادلة إذ لم يحصل على إنصافه في الدنيا «وعند الله تجتمع الخصوم».

ثامناً : الاستدلال على البعث بأن حكمة الله وعدله يقتضيان البعث والجزاء.

فإن الله تعالى لم يخلق الناس عبثاً ولن يتركهم سدى قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾[3].

وقال تعالى: أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ [4]، فعدل الله

---

(١) سورة الأعراف الآية (٤٣).
(٢) الأتقان للسيوطي جـ٤، ص ٥٤.
(٣) سورة القيامة الآية (٣٦).
(٤) سورة المؤمنون الآية (١١٥).

وحكمته وإحقاقه الحق وإبطاله الباطل وإعطاؤه كلّ ذي حق حقه وتمييزه بين الخبيث والطيب والمحسن والمسيئ كل ذلك يأبى إلا أن يكون هناك يوم آخر بعد نهاية الدنيا ينال فيه كل إنسان جزاءه وما يستحقه من الثواب والعقاب على ما قدم من خير أو شر.

فإننا نرى أناساً يفارقون الدنيا وهم ظالمون لم يُقتص منهم، ونرى أناساً آخرين يفارقون الدنيا مظلومين لم ترد إليهم مظالمهم، ونرى أشراراً في الدنيا منعمين ونرى أخياراً فيها معذبين فإذا ذهب كل إنسان بما فعل إن ظالماً أو مظلوماً محظوظاً أو مهضوماً كان ذلك خدشاً في عظمة الألوهية وعدلها وقضائها، فلابد إذن من يوم يحضر الجميع فيه بين يدى الله ليقتص من الظالم للمظلوم ولينال كل من المحسن والمسيئ جزاءه كما قال تعالى: **وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ** (١).

وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾(٢) ولهذه المعانى قال بعض الحكماء «ثبت أن الله عز وجل حكيم والحكيم لاينقض ما بنى إلا لحكمة أتم من حكمة النقض ولايجوز أن تكون أنقص ولا مماثلة على مالا يخفى»(٣).

تاسعاً : الاستدلال على البعث بحصول اليقظة بعد النوم، فإن النوم أخو الموت واليقظة شبيهة بالحياة بعد الموت.

---

(١) سورة الأنبياء الآية (٤٧).

(٢) سورة الجاثية الآية (٢١).

(٣) استخراج الجدال من القرآن ص ١٤.

قال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ثم ذكر عقبه أمر الموت والبعث فقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾[1]، قال تعالى في آية أخرى ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

والمراد منه الاستدلال بحصول هذه الأحوال على صحة البعث والحشر والنشر كما ذكره الرازى وغيره[3].

هذه لمحة موجزة عن إمكان البعث وتحقق حصوله في ضوء القرآن الكريم.

أما عن مظاهر الحشر والنشر والحساب والجزاء، وما أعد الله لأوليائه في الجنة، وما أعد للكافرين في النار، فإن هذه موضوعات واسعة تحدثت عن هذه الموضوعات مئات الآيات من القرآن الكريم، ويمكن أن نجمل بعض الموضوعات فيمايلي:

(أ) أسماء اليوم الآخر :

ورد في القرآن الكريم تسمية اليوم الآخر بعدة أسماء أخذاً مما يجرى فيه ومنها مايلى:

---

(١) سورة الأنعام الآية (٦٠،٦٢).

(٢) سورة الزمر الآية (٤٢).

(٣) انظر تفسير الرازي جـ١٧، ص ١٨.

١ ــ **يوم البعث** : لأن فيه البعث إلى الحياة الجسدية بعد الموت قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(١).

٢ ــ **يوم الخروج** : لأن فيه خروج الناس من قبورهم إلى الحياة الأخرى كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾(٢).

٣ ــ **يوم الفصل** : لأن فيه الفصل بين الناس بالعدل، قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾(٣).

وهكذا يسمى يوم القيامة، ويوم الدين، ويوم الحشر، ويوم الحساب، ويوم الوعيد، ويوم الخلود، إلى غير ذلك من الأسماء التي وردت في القرآن الكريم ملاحظٌ فيها التسمية باليوم أخذاً من الظرف الزمانى المرافق لهذه الحياة الثانية. وقد جاءت أسماء أخرى ملاحظٌ فيها التسمية بالدار أخذاً من الظرف المكانى المستلزم لهذه الحياة المادية الثانية وفيها: الدار الآخرة، ودار القرار، ودار الخلد.

كما وردت أسماء أخرى ملاحظٌ فيها معنى تحقق وقوع ذلك اليوم، أو ملاحظٌ فيها ما يجرى فيه من أحداث جسيمة، ومن هذه الأسماء، الواقعة، والحاقة، والقارعة، والغاشية، والطامة، والآزفة. إلى غير ذلك من الأسماء التي وردت في القرآن الكريم لليوم الآخر.

---

(١) سورة الروم الآية (٥٦).
(٢) سورة ق الآية (٤٢).
(٣) سورة الدخان الآية (٤٠).

(ب) قيـام السـاعة :

أخبر الله تعالى بأنها ستحدث نفختان في الصور.

النفخة الأولى : وهي نفخة الإماتة العامة وعندها تكون ساعة إنهاء النظام القائم في الحياة الأولى، وقد جاء التعبير عن وقت هذا الانهاء بالساعة، ويمكن حمل قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾[1].

على ما يحدث في الكون من هول عند النفخة الأولى.

النفخة الثانية : وهي نفخة البعث إلى الحياة بعد الموت، وقد جاء التعبير عن الوقت الذي يحدث فيه البعث العام إلى الحياة بعد الموت أيضا فقال تعالى ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾[2].

ويدل على حدوث هاتين النفختين قوله تعالى ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾[3].

قال ابن عباس: الراجفة النفخة الأولى، والرادفة، النفخة الثانية[4]، وقال تعالى

---

(١) سورة الحج الآية (١،٢).

(٢) سورة الروم الآية (٥٥).

(٣) سورة النازعات الآية (٦،٧).

(٤) انظر تفسير الطبرى جـ)٣، ص ٣١.

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾(١).

(جـ) : مظاهر الحشر يوم القيامة :

ومنها، تشقق الأرض عن الخلائق فيخرجون سراعاً إلى موقف الحشر، قال تعالى ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾(٢).

ومنها، تسوية أرض المحشر فتكون بارزة لا جبال فيها ولا وديان، قال تعالى ﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾(٣).

وقال تعالى ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾(٤).

ومنها، حشر جميع المخلوقات من الأنس والجن والملائكة وكل دواب الأرض وطيورها.

أما حشر الإنس والجن، فلأنهم مكلفون، وأما حشر الملائكة فليقوموا بوظائفهم وفق سنة الله في خلقه، وأما دواب الأرض وطيورها فقد جاء إثبات حشرها كما قال تعالى ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾(٥).

---

(١) سورة الزمر الآية (٦٨).
(٢) سورة ق الآية (٤٤).
(٣) سورة الكهف الآية (٤٧).
(٤) سورة طه الآية (١٠٥،١٠٧).
(٥) سورة الأنعام الآية (٣٨).

(د) العرض والسؤال والحساب والميزان :

تحدث القرآن الكريم عن عرض الخلائق على ربهم يوم القيامة فقال تعالى ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾[(١)].

وقال تعالى ﴿ وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا ﴾[(٢)].

كما تحدث عن سؤالهم عن أعمالهم، فقال تعالى ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[(٣)].

وقال تعالى في الحساب ﴿ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴾[(٤)] وقال تعالى عن الميزان ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾[(٥)].

(هـ) كتب الأعمال، وشهادة الجوارح :

تنشر يوم القيامة كتب الأعمال وهي الصحائف التي سجلت فيها أعمال كل واحد من أقوال وأفعال في الحياة الدنيا، وتشهد عليه الملائكة الكرام الكاتبين الذين قاموا بوظيفة تسجيلها في الدنيا وإظهاراً للعدل فإن هذا السجل الحافل بجميع أعمال المكلف يقرؤه يوم القيامة صاحبه وإن لم يكن يقرأ في الدنيا قال تعالى

---

(١) سورة الحاقة الآية (١٨).
(٢) سورة الكهف الآية (٤٨).
(٣) سورة الحجر الآية (٩٢،٩٣).
(٤) سورة الغاشية الآية (٢٥،٢٦).
(٥) سورة الأنبياء الآية (٤٧).

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾(١).

وتشهد الجوارح على الإنسان بما عمل في الدنيا، فإذا كذب لسانُه ختم على فمه واستنطقت جوارحه فتنطق بقدرة الله العزيز الحكيم. قال تعالى ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٢).

وقال تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾(٣).

(و) الجنة والنار :

الجنة : هي دار النعيم، وقد تحدث القرآن عنها بأنها مأوى المؤمنين بالله والمسلمين له، وأنها مراتب ودرجات تتناسب مع مستوى الإيمان والأعمال الصالحة التى قدمها الإنسان في الحياة الدنيا. فالله تعالى جعل في الجنة لأوليائه ما تقربه أعينهم مما لاعين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر كما قال تعالى ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾(٤).

أما النار : فهي مثوى الكافرين بالله، والمستكبرين عن طاعته وعبادته، وهي منازل ودركات تتناسب مع مستوى الكفر والإجرام.

---

(١) سورة الإسراء الآية (١٣، ١٤).
(٢) سورة النور الآية (٢٤).
(٣) سورة يس الآية (٦٥).
(٤) سورة السجدة الآية (١٧).

وقد قال تعالى في وصف عذاب النار ونعيم الجنة ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ ﴾(١).

الموضوع الثامن : القضاء والقـدر.

(أ) **القضاء** : بالمدّ مصدر قضى، وهو في معناه اللغوى الجامع، إتمام الشئ قولاً كان أو فعلاً أو إرادة أو غيرها. فمثال القضاء في القول قوله تعالى ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾(٢) أي أتم نهيه عن عبادة غيره.

ومثال القضاء في الفعل قوله تعالى ﴿ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ ﴾(٣) أي فأتم خلقهن في يومين.

ومثال القضاء في الإرادة قوله تعالى ﴿وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾(٤) أي إذا تمت إرادته تعالى في تكوين أمر فإنما يأمره بكن أمْرَ تخليق، فيكون ذلك المراد.

(ب) **القدر** : لغة هو تبيين كمية الشئ.

وفي الاصطلاح الشرعي للقضاء والقدر :

أن يقال : القضاء : إرادة الله الأزلية المتعلقة بالأشياء على وفق ما توجد عليه في وجودها الحادث، كإرادة الله الأزلية بخلق الإنسان في الأرض.

(١) سورة هود الآية (١٠٦،١٠٨).

(٢) سورة الإسراء الآية (٢٣).

(٣) سورة فصلت الآية (١٢).

(٤) سورة البقرة الآية (١١٧).

أما القدر، فهو إيجاد الله الأشياء على مقاديرها المحددة بالقضاء، في ذواتها وصفاتها وأفعالها وأحوالها وأزمنتها وأمكنتها وأسبابها. كإيجاد الله الإنسان فعلاً على وجه الأرض طبق ماسبق في قضائه سبحانه.

ويصح لنا أن نجعل كلمتى، القضاء والقدر، عنواناً مشتركاً، ونأخذ لهما مدلولاً واحداً مشتركاً، وهذا مايبدو من ظاهر الاستعمالات الشرعية لهما، إذ قد يجتمعان في الاستعمال، وقد ينفردان، والمدلول واحد.

فمعنى القضاء والقدر معاً : هو إرادة الله إيجاد الأشياء على وجه مخصوص ثم إيجادها فعلا على وفق المراد[1].

حكم الإيمان بالقضاء والقدر :

أما الإيمان بالقضاء والقدر فإنه ركن من أركان العقيدة الإسلامية، كما ثبت ذلك في صحيح مسلم وغيره من حديث جبريل المشهور ومنه «فأخبرني عن الإيمان قال، أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره»[2].

وقد تحدث القرآن الكريم عن القدر العام بقوله ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾[3] والمعنى أن كل شئ من الأشياء خلقه الله سبحانه ملتبسا بقدر قدّره الله وقضاء قضاه سبق في علمه مكتوب في اللوح المحفوظ قبل وقوعه[4] وقال تعالى ﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾.

---

(١) العقيدة الإسلامية لعبد الرحمن حنبكه بتصرف جـ٢، ص ٤١٥.

(٢) صحيح مسلم كتاب الإيمان جـ١، ص ٣٧.

(٣) سورة القمر الآية (٤٩).

(٤) انظر فتح القدير للشوكاني جـ٥، ص ١٢٩.

وغير ذلك مما يدخل في دائرة القضاء والقدر.

ولا نريد أن ندخل في تفاصيل مبحث القضاء والقدر ومذاهب الناس فيه كالقدرية، والجبرية والمعتزلة في مجال الجبر والاختيار أو خلق أفعال العباد، أو ما يسمى بالتخيير والتسيير، فإن هذا مبحث يطول ويكثر فيه الجدل بين أهل السنة والفرق المخالفة، ولكّن الإنسان مسيّرٌ إلى عين اختياره، وبتوضيح أكثر، فإن الإنسان، قد منحه الله إرادة حرّة يملك بها الاستطاعة على توجيهها إلى شئ معيّن ضمن أشياء كثيرة يتصورها فكره، أو تشتهيها نفسه، كما يملك استطاعة تحريك قدرته لتنفيذ بعض مراداته، دون أن يملك نتائج التنفيذ، إذْ النتائج تأتى بخلق الله تعالى، ونلاحظ أن مبدأ التكليف الرباني وتقرير الحساب والجزاء الوارد في الشرائع السماوية لم يتناول غير الإنس والجن ـــ فيما نعلم ـــ كما أخبر الله تعالى بذلك في قوله ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1] وبالبحث عن سر هذا التكليف لا نرى إلا ما خص الله به هذين النوعين من الفهم والإرادة الحرّة في دائرة ما وهبهم الله من القدرة والإرادة المحدودة..

وإرادة الإنسان ومشيئته تابعة لمشيئة الله الكونية وإرادته المطلقة، كما قال تعالى ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2].

وخلاصة القول : أن الإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان الإيمان، وأن الله تعالى كتب مقادير الأشياء قبل وقوعها كما قال تعالى ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[3].

---

(١) سورة الذاريات الآية (٥٦).

(٢) سورة التكوير الآية (٢٩).

(٣) سورة الحديد الآية (٢٢).

والإيمان بالقضاء والقدر يحمل الرضى والقناعة والطمأنينة، وإحسان التوكل على الله، حيث يعلم المؤمن أن جميع ما أصابه لم يكن ليخطأه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، ومن كان هذا شأنه لم يقع فريسة للحيرة والقلق، ولا نهباً لليأس والقنوط.

وفي هذا جواب لسؤال كبير، أوحل للغز خطير نجده في عقيدة القدر، فقيرٌ يصبر ولا يكفر، وغنّى يشكر ولايبطر، ومريض يتحمل الآلام بلا يأس، وقوى لايطغى ووجيه لايستكبر.

ثم كيف يتحول الإنسان الجزوع الهلوع المنوع إلى بار شجاع كريم، وكيف يهدأ الفكر وينعم البال وتطمئن النفس ويسلم القلب في عالم كثرت مشاغله، وتعددت مشكلاته لولا الإيمان؟ إن في النفس البشرية جانباً لايملأه إلا الإيمان والتسليم لأمر الله وشرعه..

الموضوع التاسع : الـولاء والبـراء.

الولاء والموالاة، هو التأييد والنصرة،

والولى : من ولى الأمر، فكل من ولى أمرك فهو وليّك، وذكر بعض المفسرين أن الولى في القرآن ورد على خمسة أوجه :

الأول : الرّب، ومنه قوله تعالى ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾[1].

---

(١) سورة الأنعام الآية (١٤).

وقال تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾[١] وقوله تعالى ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾[٢].

الثاني : الناصر، ومنه قوله تعالى ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ﴾[٣].

الثالث : الولد، ومنه قوله تعالى ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى﴾[٤].

الرابع : الوثن ــ وهو كل ما عبد من دون الله ــ ومنه قوله تعالى ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ﴾[٥].

الخامس : المانع، ومنه قوله تعالى ﴿ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ﴾[٦] وقوله تعالى ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾[٧].

ذكر هذه الأوجه الخمسة ابن الجوزى في كتابه نزهة الأعين النواظر[٨].

فالولاء أو الموالاة هو التأييد والنصرة كما تقدم، وهو يلازم التبرؤ من الجاهلية ويكمله، فإذا كان التبرؤ هو الخروج من الكفر والشرك والمعصية والتّميز عن الكافرين المشركين العصاة، فإن الولاء هو الدخول في الإيمان والإسلام والطاعة،

---

(١) سورة الأعراف الآية (٣).

(٢) سورة الشورى الآية (٩).

(٣) سورة الإسراء الآية (١١١).

(٤) سورة مريم الآية (٥).

(٥) سورة العنكبوت الآية (٤١).

(٦) سورة البقرة الآية (٢٥٧).

(٧) سورة المائدة الآية (٥٥).

(٨) جـ٢، ص ٢٠٨.

ونصرة الله ورسوله والمؤمنين. وهو في إضماره وإظهاره كالتبرؤ الذي يستكن في القلب نيةً ورغبةً وإخلاصا، ويظهر على اللسان والجوارح قولا ومعاملة وسلوكا، في حياة الفرد والجماعة، وذلك باجتناب الحزب الذي يقوده إبليس وجنوده من الشياطين، وأعوانه من الطواغيت ثم الدخول في حزب الله الذي يدعو إليه ويقوده رسول الله وتتكاتف فيه أيدى المؤمنين و﴿ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾(١). حتى يكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، وكالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر(٢)، كما مثل لهم الرسول الكريم ﷺ.

وطريق الموالاة لله تكون باتباع كتابه الكريم، وللرسول بالاقتداء بسنته المطهرة، وللمؤمنين بمظاهرتهم مع التذلل لهم، وخفض الجناح ولين الجانب والتكافل والتضامن، وإخلاص النصح وبذل المشورة، وتفريج كربهم ومكافأة محسنهم والتجاوز عن مسيئهم، وكف ظالمهم وإنصاف مظلومهم، وتكثير سوادهم بالهجرة إليهم وإضعاف عدوهم بالخروج من بين أظهرهم. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾(٤).

---

(١) سورة الفتح الآية (١٠).

(٢) انظر صحيح البخاري جـ٤، ص ٥٣.

(٣) سورة المائدة الآية (٥٥،٥٧).

(٤) سورة آل عمران الآية (٢٨).

والتقاة المذكورة، ماهي إلا رخصة يأخذ بها المؤمنون المطمئنون عند الحاجة الماسة الملزمة، والضرورة المجبرة الملجئة، وهي ضرورة تقدر بقدرها. وحاجة تقضى في حينها.

ومن الباطل في الفهم وفي التطبيق أن يقوم بعض المسلمين بجعل التقاة أصلا لمذهبهم يوادون به أعداء الله ويحادون أولياءه ويحسبون أنهم محسنون.

وحد الولاء والتبرؤ واضح بيِّن، وإن كان كثير من الناس يتعسف في الفهم والتطبيق، ويتجاوز الحد إلى تعطيل الدعوة .. أي دعوة العاصى لترك المعصية ودعوة الكافر والمشرك لترك الكفر، فإن معاداة هؤلاء ليست لذواتهم وإنما لما يتصفون به من كفر وشرك ومعصية، وطريق دعوتهم هو الإحسان في المقالة والمعاملة لإظهار محاسن الإسلام والترغيب إليه. قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ وَظَٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[1].

وعلى هذا فإن الكلمة اللينة والمعاملة الحسنة ومجاورة الكافرين الجاهلين ومعاشرتهم ليست مشاركة في كفرهم ولا موالاة لجاهليتهم.

وكذلك بر الوالدين المشركين وحسن معاشرة الزوجة الكتابية وكذا الصاحب في السفر والجار في الدار والشريك في التجارة والمخالط في المهنة، كل أولئك يكون التعامل معهم بالمعروف، والدفع بالتي هي أحسن، مما يظهر محاسن الإسلام ويكون وسيلة عملية للدعوة والتأليف. ولقد كان يوسف الصديق عليه السلام وزيراً لفرعون في حكم مصر فدعا إلى الله وأحسن إلى الناس.

---

(١) سورة الممتحنة الآية (٨،٩).

وقلوب العباد مفطورة على حب من أحسن إليها حتى تستمع إليه وتتأثر به وتنقاد له. ولقد أخبر تعالى عن رسوله الكريم ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1]. مما قربهم منه وجمعهم حوله: ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾[2] ولولا ذلك لكان الحال كما أخبر تعالى: ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾[3] وواجب الدعاة أن يقدموا الحق للناس بأحلى حاله وأبهى حلله، وأن يكون همهم تنمية الخير وتربية الفضيلة في نفوس الناس. فلرب كلمة قاسية غليظة أيقظت نوازع الشر وكوامن الفتنة . وأوقدت نار العداوة وحركت روح العناد وأرسلت ريح الحمية الجاهلية.

هذا .. وإن كثيراً من مسلمي اليوم في باب الولاء لفي إفراط وتفريط.

ففي حين يصل الأمر ببعض المسلمين إلى حد الامتناع عن الحضارة المدنية المادية، والإفراط في بعض المسنونات والمستحبات من الأطعمة والألبسة، يصل التفريط بآخرين إلى الذوبان في إلحاد الشرق ورذائل الغرب. وفي ظل الإفراط والتفريط تقوم القومية الجاهلية هدماً للدين وحرباً على المسلمين، وتعلن بعض الحكومات علما نيتها إرضاء لأعداء الله من الغرب أو الشرق، وتخفي كل ما هو إسلام أو تنتقصه حفاظا على تقدميتها الزائفة.

وقد سيقت المرأة المسلمة وراء المرأة الغربية في زيها وتبرجها ولهثها خلف بيوتات الأزياء ومستحضرات التجميل.

كما سيق الشباب المسلم وراء التافهين الضائعين من دعاة الهدم والضياع.

---

(١) سورة القلم الآية (٤).

(٢) سورة فصلت الآية (٣٤).

(٣) سورة آل عمران الآية (١٥٩).

وفي عالمنا الإسلامي توالت النكبات وتراكمت العقد الاجتماعية، والنكسات الاقتصادية، والهزائم العسكرية، بفعل الغزو الخارجي والهدم الداخلى. حتى وجدنا إسلاما غربيّا رأسماليا، وإسلاما شرقيّا ماركسيا، وإسلاما بلا ذاتٍ ولامضمون ولاهوية.

وأصبحت معالم الإسلام وقيم المسلمين تخلفا ورجعية، وعلامة على الغفلة والبلاهة!!(١)

أما البراء : فهو التبرؤ من الجاهلية بجميع مظاهرها من الشرك والوثنية، وهي تعنى المفاصلة بين الكفر والإيمان، بين الشرك والتوحيد، بين الحق والباطل، ودعوة القرآن للبراء من هذه المظاهر الجاهلية واضحة قال تعالى عن دعوة إبراهيم عليه السلام ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (٢) وقد افتتح الله سورة التوبة، بالبراءة من المشركين وشركهم فقال تعالى ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ﴾(٣)

وقد أعلنت هذه البراءة في موسم الحج من السنة التاسعة للهجرة واشتملت على أربعة مبادئ هي

١ ـــ أن لا يحج بعد العام مشرك.

٢ ـــ ألا يطوف بالبيت عريان.

٣ ـــ أنه لايدخل الجنة إلا نفس مؤمنة.

(١) أصول التوحيد في القرآن للدكتور محمد صالح، بتصرف.

(٢) سورة الزخرف الآية (٢٦).

(٣) سورة التوبة الآية (١،٣).

٤ ـــ من كان له عهد عند محمد ﷺ فهو إلى مدته، ومن لم يكن له عهدٌ فمدته أربعة أشهر[١]. وقد أعلن هذه المبادئ أبو بكر الصديق وعلى بن أبي طالب رضى الله عنهما.

فالتبرؤ هو : الخروج من الكفر والشرك والمعصية والتميز عن الكافرين المشركين العاصين. وبعبارة أخرى هو: الهروب من دون الله إلى دين الله كما أجمل في النفي ثم الإثبات في كلمة التوحيد ﴿لا إله إلا الله﴾ وكما فصل في سورة الكافرون: ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾.

وكما صرح به إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾[٢].

والتبرؤ من الجاهلية يبدأ من القلب، ويستقر فيه بالمفاصلة الشعورية، والعداوة والبغضاء والإعراض الباطني، ثم هو يظهر على أشده باللسان والجوارح. وفي هجر الأرض، وإعلان الحرب وإهدار الدم والمال، وقطع صلات القربى وروابط القوم والعشيرة، عندما تكون مصلحة الإسلام العليا في ذلك.

وفيما بين الحالين يظهر التبرؤ بما يناسب الحال من المداراة والمصابرة إلى تمعّر الوجه وغلظة القول والعزلة الاجتماعية والمقاطعة الاقتصادية....

---

(١) انظر تفسير بن جرير الطبرى جـ١١، ص ٦٤ أول سورة التوبة، وغيره من التفاسير.

(٢) سورة الممتحنة الآية (٤).

وحماية الدعوة وإصلاح الناس، [وكما يكون بالترغيب فإنه يكون بالترهيب، والحكمة تحدد نوع التبرؤ ودرجته. ولكل ميدان سلاحه ولكل حال سلوكه وأسلوبه. ويفهم مما قدمنا أن التبرؤ بالقلب ثابت دائم، وفي غيره مفاصلة لاتمنع المواصلة، على أن لاتصل المواصلة إلى حدود المداهنة والركون، أو المشاركة في العبادة المحضورة، أو التشبه في المظهر فإن هزيمة المظهر بداية لهزيمة المخبر أو نهاية له، ومن تشبه بقوم فهو منهم.

هذه لمحات عن الولاء والبراء في ضوء القرآن الكريم.

الموضوع العاشر : طاعة الرسول ﷺ ومايجب نحوه.

مادة طوع : الطاء والواو والعين أصل صحيح واحد، يدل على الإصحاب والإنقياد: يقال طَاعَه يَطُوعه، إذا انقاد معه ومضى لأمره، وأطاعه بمعنى طاع له. ويقال لمن وافق غيره: قد طاوعه(١).

(أ) طاعة الرسول ﷺ في حياته

وطاعة الرسول ﷺ واجبة بنص القرآن والسنة وإجماع الأمة، فقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يستفيدون أحكام الشرع من القرآن الكريم الذي يتلقونه عن الرسول ﷺ وكثيراً ما كانت تنزل الآيات القرآنية مجملة من غير تفصيل أو مطلقة من غير تقييد كالأمر بالصلاة جاء مجملاً لم يبين في القرآن عدد ركعاتها ولا هيئاتها ولا أوقاتها، وكالأمر بالزكاة جاء مطلقاً لم يقيد بالحد الأدنى الذي تجب فيه الزكاة ولم تبين مقاديرها ولاشروطها، وكثير من الأحكام التي لا يمكن

(١) معجم مقاييس اللغة جـ٣، ص ٤٣١.

تنفيذها دون الوقوف على شرح ما يتصل بها من شروط وأركان ومفسدات، فكان لابد لهم من الرجوع إلى رسول الله ﷺ لمعرفة الأحكام معرفةً تفصيلية واضحة.

وكذلك كانت لهم كثير من الحوادث التي لم يُنص عليها في القرآن فلابد من بيان حكمها عن طريق النبي ﷺ، وهو مبلغ عن ربه وأدرى بمقاصد شريعة الله وحدودها ونهجها ومراميها.

وقد أخبر الله في كتابه الكريم عن مهمة الرسول ﷺ بالنسبة للقرآن، أنه مبين له، موضحٌ لمراميه وآياته حيث يقول تعالى ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(١).

كما بين أن مهمته إيضاح الحق حين يختلف فيه الناس ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(٢).

وأوجب النزول على حكمه في كل خلاف ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾(٣)

وقد أوتي القرآن والحكمة ليُعلّم الناس أحكام دينهم فقال تعالى ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(٤).

---

(١) سورة النحل الآية (٤٤).

(٢) سورة النحل الآية (٦٤).

(٣) سورة النساء الآية (٦٥).

(٤) سورة آل عمران الآية (١٦٤).

وذهب جمهور العلماء المحققين إلى أن الحكمة شئ آخر غير القرآن، وهي ما أطلع الله رسوله ﷺ عليه من أسرار دينه وأحكام شريعته، ويُعّبر عنها العلماء بالسنّة، قال الإمام الشافعي رحمه اللهُ في الرسالة: «فذكر الله الكتاب وهو القرآن، وذكر الحكمة، فسمعتُ من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول الله ﷺ»(١).

وتفسير الحكمة هنا بأنها السنة وجيه، لأن الله تعالى عطفها على الكتاب والعطف يقتضى المغايرة، لأنها في معرض المنّة من الله علينا بتعليمنا إياها ولا يمنُّ إلا بما هو حق وصواب، فتكون الحكمةُ واجبةَ الاتباع كالقرآن، ولم يوجب علينا إلا إتباع القرآن والرسول، فتعين أن تكون الحكمة هي ما صدر عن الرسول ﷺ من أفعال وأقوال وتقريرات في معرض التشريع.

وإذا كان كذلك كان رسول الله ﷺ قد أوتى القرآن وشيئاً آخر معه يجب اتباعه فيه، وقد جاء ذلك مصرحاً في قوله تعالى في وصف الرسول ﷺ ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾(٢) ومادام اللفظ عاماً فهو شامل لما يحله ويحرمه مما مصدره القرآن، أو مصدره وحيٌ يوحيه الله إليه، وقد روي أبو داود عن المقدام بن معد يكرب عن رسول الله ﷺ قوله «ألا وأني أوتيت الكتاب ومثله معه»(٣).

ويدل على ذلك أن الله أوجب على المسلمين اتباع الرسول ﷺ فيما يأمر وينهى فقال تعالى ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾(٤).

---

(١) انظر الرسالة للإمام الشافعى ص ٧٨.

(٢) سورة الأعراف الآية (١٥٧).

(٣) سنن أبي داود جـ٤ ص ٢٠٠ كتاب السنة.

(٤) سورة الحشر الآية (٧).

وقرن طاعة الرسول بطاعته في آيات كثيرة من القرآن فقال تعالى ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾(١).

وحث على الاستجابة لما يدعو إليه فقال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾(٢) واعتبر طاعته طاعة لله واتباعه حباً لله فقال تعالى ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾(٣).

وقال تعالى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾(٤).

وحذّر من مخالفة أمره ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٥).

بل أشار إلى أن مخالفته كفر فقال تعالى ﴿قُلْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(٦).

وهذا محمول على ردّ ما جاء به النبي ﷺ وتكذيبه، فأما مجرد المعصية فلاتبلغ درجة الكفر على ما هو معروف من مذهب أهل السنة والجماعة، ولم يبح

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٣٢).
(٢) سورة الأنفال الآية (٢٤).
(٣) سورة النساء الآية (٨٠).
(٤) سورة آل عمران الآية (٣٠،٣١).
(٥) سورة النور الآية (٦٣).
(٦) سورة آل عمران الآية (٣١،٣٢).

للمؤمنين مطلقا أن يخالفوا حكمه أو أوامره ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴾[1].

واعتبر من علامات النفاق الاعراض عن تحكيم الرسول في مواطن الخلاف فقال تعالى ﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ ـــ إلى قوله ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[2] بل جعل الله من لوازم الإيمان ألا يذهب الصحابة حيث يكونون مع رسول الله ﷺ دون أن يستأذنوا منه فقال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[3].

قال ابن القيم رحمه الله: فإذا جعل الله من لوازم الإيمان أنهم لايذهبون مذهبا إذا كانوا معه إلا باستئذانه، فأولى أن يكون من لوازمه ألا يذهبوا إلى قول ولا مذهب علمي إلا بعد استئذانه، وإذنه يعرف بدلالة ماجاء به على أنه أذن فيه[4].

من هذا كله كان لابد للصحابة من الرجوع إلى رسول الله ﷺ يفسر لهم

---

(١) سورة الأحزاب الآية (٣٦).

(٢) سورة النور الآية (٤٧، ٥١).

(٣) سورة النور الآية (٦٢).

(٤) إعلام الموقعين جـ١، ص ٥٨.

أحكام القرآن ويبين لهم مشكلاته، ويحكم بينهم في المنازعات، ويفصل في الخصومات، وكان الصحابه رضوان الله عليهم يلتزمون حدود أمره ونهيه، ويتبعونه في أعماله وعباداته ومعاملاته ـــ إلا ماعلموا منه أنه خاص به ـــ فكانوا يأخذون منه أحكام الصلاة وأركانها وهيئاتها نزولاً عند أمره ﷺ «صلوا كما رأيتمونى أصلى»(١) ويأخذون عنه مناسك الحج وشعائره امتثالاً لأمره أيضا حيث قال «خذوا عنى مناسككم»(٢) وقد يغضب إذا علم أن بعض أصحابه لم يتأسَّ به فيما يفعله كما روى مالك في الموطأ عن عطاء بن يسار، أن رجلاً من الصحابة أرسل امرأته تسأل رسول الله ﷺ عن حكم تقبيل الصائم لزوجته فأخبرتها أم سلمة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يقبّل وهو صائم، فرجعت إلى زوجها فأخبرته فقال: لست مثل رسول الله، يُحل الله لرسوله مايشاء، فبلغ قوله ذلك رسول الله ﷺ فغضب وقال «إنى أتقاكم لله وأعلمكم بحدوده»(٣).

كما غضب حين أمر الصحابة بالحلق والإحلال من الإحرام في صلح الحديبيّة فلم يفعلوا إذ شق ذلك عليهم حتى بادر بنفسه فتحلل فابتدروا يقتدون به(٤).

وقد بلغ من اقتدائهم برسول الله ﷺ أن كانوا يفعلون كما يفعل ويتركون ما يترك دون أن يعلموا لذلك سبباً أو يسألوه عن علته وحكمته، فقد أخرج البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: اتخذ رسول الله ﷺ خاتماً من ذهب فاتخذ الناس خواتيم من ذهب، ثم نبذه النبي ﷺ وقال «إنى لن ألبسه أبداً» فنبذ الناس خواتيمهم(٥).

---

(١) صحيح البخارى جـ١، ص ١٧ الأذان.

(٢) مسند الإمام أحمد جـ٣، ص ٣١٨.

(٣) وأخرج هذا الحديث مسلم في صحيحه كتاب الصوم جـ٢، ص ٧٧٩ بلفظ [أما والله إنى لأتقاكم لله، وأخشاكم له].

(٤) انظر زاد المعاد جـ٣، ص ٢٩٥.

(٥) صحيح البخارى جـ٤، ص ٢٦٠ كتاب الاعتصام.

وروى عن النبي ﷺ أنه كان يصلى بأصحابه إذ خلع نعليه فوضعهما عن يساره، فلما رأى القوم ذلك ألقو نعالهم، فلما قضى صلاته قال «ماحملكم على إلقاء نعالكم؟ قالوا: رأيناك ألقيت نعليك فقال ﷺ «إن جبريل أخبرني أن فيهما قذراً»(١).

بل بلغ من امتثالهم أمر النبي ﷺ أن فعلوا ذلك حتى في شئون الدنيا، فقد روى أبو داود وابن عبد البر في [جامع بيان العلم وفضله] عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه جاء يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب فسمعه يقول [اجلسوا] فجلس بباب المسجد أي حيث سمع النبي ﷺ يقول ذلك فرآه النبي ﷺ فقال له «تعال ياعبد الله بن مسعود»(٢).

وهكذا كان الصحابة مع رسول الله ﷺ في حياته يعتبرون قوله وفعله وتقريره حكما شرعيا لايختلف في ذلك واحد منهم، وما كان الصحابة يراجعون رسول الله ﷺ في أمر إلا إذا كان فعله أو قوله اجتهاداً منه في أمر دنيوى، كما في غزوة بدر حين راجعه الحباب بن المنذر في مكان النزول، وسعد بن عبادة وسعد بن معاذ في غزوة الأحزاب، أو إذا كان اجتهاداً منه في أمر دينى قبل تقرير الله له أو نهيه عنه، كما راجعه عمر في أسارى بدر وصلح الحديبية، أو إذا كان غريبا عن عقولهم فيناقشونه لمعرفة الحكمة فقط، أو كانوا يظنون فعله خاصاً به فلايلزمون أنفسهم اتباعه، أو إذا أمرهم بأمر فظنوا أنه للإباحة وأن غير المأمور به أولى، أما ما عدا ذلك فكان منهم التسليم المطلق والاتباع التام.

---

(١) مسند الإمام أحمد جـ٣، ص ٢٠ ورواه أبو داود في سننه جـ١، ص ١٧٥.

(٢) سنن أبي داود جـ١، ص ٢٨٦.

وجوب طاعته صلى الله عليه وسلم بعد وفاته

وكما وجب على الصحابة بأمر الله في القرآن اتباع الرسول ﷺ وطاعته في حياته، وجب عليهم وعلى من بعدهم من المسلمين اتباع سنته بعد وفاته، لأن النصوص التي أوجبت طاعته عامة لم تقيد ذلك بزمن حياته، ولا بصحابته دون غيرهم، ولأن العلة جامعة بينهم وبين من بعدهم، وهي أنهم أتباعٌ لرسولٍ أمر الله باتباعه وطاعته، ولأن العلة أيضا جامعة بين حياته ووفاته، إذ كان قوله وحكمه وفعله ناشئاً عن مشرّعٍ معصوم أمر الله بامتثال أمره، فلا يختلف الحال بين أن يكون حيا أو بعد وفاته، وقد أرشد ﷺ إلى وجوب اتباع سنته حيث يغيب المسلم عنه حين بعث معاذاً إلى اليمن فقال له «كيف تقضى إذا عرض لك قضاء؟» فقال: اقضى بكتاب الله قال: فإن لم يكن في كتاب الله؟ قال فبسنة رسول الله، قال: فإن لم يكن في سنة رسول الله؟ قال اجتهد رأيى ولا آلوا، فضرب رسول الله ﷺ على صدره وقال «الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله»(١).

كما حث على وجوب العمل بسنته بعد وفاته في أحاديث كثيرة جداً بلغت حد التواتر المعنوى(٢).

فقد أخرج البخارى والحاكم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال «كل أمتى يدخلون الجنة إلا من أبى» قالوا يارسول الله ومن يأبى؟ قال «من أطاعنى دخل الجنة ومن عصانى فقد أبى»(٣) وحديث العرباض بن سارية قال صلى بنا رسول الله

---

(١) رواه أبو داود في سننه جـ٣، ص ٣٠٣ كتاب الأقضية، ورواه أحمد والترمذي وغيرهم.

(٢) منهاج الصالحين لعز الدين بليق بتصرف.

(٣) صحيح البخاري كتاب الأعتصام جـ٤، ص ٢٥٧.

ﷺ صلاة الصبح فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب فقيل يارسول الله كأنها موعظة مودع فأوصنا قال «عليكم بالسمع والطاعة وإن تأمر عليكم عبد حبشي فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فإن كل بدعة ضلالة»(١).

من أجل هذا عُني الصحابة رضوان الله عليهم بتبليغ السنة، لأنها أمانة الرسول عندهم إلى الأجيال المتلاحقة من بعدهم، وقد رغب رسول الله ﷺ في تبليغ العلم إلى من بعده بقوله «نضّر الله امرءاً سمع مقالتي فأداها كما سمعها، ورب مُبلّغٍ أوعى من سامع»(٢).

ونجمل فيما يلي نصوصاً قرآنية صريحة في وجوب طاعة النبي ﷺ كتلخيص لما سبق:

قال تعالى ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(٣).

وقال تعالى ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾(٤).

---

(١) رواه أبو داود جـ٤، ص ٢٠١ كتاب السنة، كما رواه غيره كالترمذي والإمام أحمد وابن ماجه، انظر جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر، جـ٢، ص ١٨٢.

(٢) رواه ابن ماجه في سننه جـ١، ص ٨٤ المقدمة، كما رواه أبو داود والترمذي والنسائي بألفاظ مختلفة في التقديم والتأخير.

(٣) سورة الحشر الآية (٧).

(٤) سورة الأحزاب الآية (٢١).

وقال تعالى ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(١).

وقال تعالى ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾(٢).

وقال تعالى ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٣).

وقال تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾(٤).

وقال تعالى ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴾(٥).

وقال تعالى ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾(٦).

---

(١) سورة آل عمران الآية (٣١).
(٢) سورة النساء الآية (٨٠).
(٣) سورة النور الآية (٦٣).
(٤) سورة النساء الآية (٥٩).
(٥) سورة النساء الآية (٦٥).
(٦) سورة النور الآية (٥١).

ومن خلال ما تقدم من النصوص من الكتاب والسنة نعلم يقينا وجوب طاعة النبي ﷺ، حيّا أو ميّتا، وتعظيم أمره ونهيه، واتباع سنته ومنهاجه، لأنه لاخير إلا دل الأمة عليه ولا شرّ إلا حذرها عنه ﷺ.

مايجب نحو النبي ﷺ :

الحديث عن طاعة النبي ﷺ وعن محبته وتعظيمه فرعٌ عن الإيمان به، فثبوت رسالته ﷺ قضية مسلمة عند كل مسلم، ولهذا لم نستعرض في حديثنا عنه ﷺ معجزاته وأدلة ثبوت رسالته كقوله تعالى ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[1]وكقوله تعالى ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[2].

أما مايجب نحو النبي ﷺ فهي أمور كثيرة، منها :

تعظيم أمره ونهيه، ومحبته وطاعته، واحترام ذاته الشريفة حيا وميتا.

وتحقيق شهادة أن محمداً رسول الله لاتتم إلا بطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ماعنه نهى وزجر، وأن لايعبد الله إلا بما شرع ، وقد أورد القاضي عياض في كتابه الشفا[3] بتعريف حقوق المصطفى طائفة مما يجب نحو النبي ﷺ ونجمل بعضاً منها فيما يلي:

---

(١) سورة العنكبوت الآية (٤٨).

(٢) سورة الإسراء الآية (٨٨).

(٣) الشفا جـ٢، ص ٢ وما بعدها.

١ ـ الإيمان به وتصديقه فيما أتى به: قال تعالى ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا﴾(١).

وقال تعالى ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا لِّتُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾(٢).

فالإيمان بالنبي ﷺ واجب متعين لايتم إيمان إلا به ولا يصح إسلام إلا معه قال تعالى ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾(٣).

ثم قال القاضي عياض، الإيمان به ﷺ هو تصديقُ نبوتِه ورسالةِ الله له، وتصديقه في جميع ما جاء به وما قاله، ومطابقةُ تصديق القلب بذلك شهادةَ اللسانِ بأنه رسول الله، فإذا اجتمع التصديق به بالقلب والنطق بالشهادة بذلك باللسان تم الإيمان به والتصديق له، كما ورد .. من رواية عبد الله بن عمر «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله»(٤).

وقد زاده وضوحاً في حديث جبريل إذ قال أخبرني عن الإسلام فقال النبي ﷺ «أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» وذكر أركان الإسلام، ثم سأله عن الإيمان فقال «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله» الحديث(٥) .. فقد قرر أن الإيمان به محتاج إلى العقد بالجنان والإسلام به مضْطَرّ إلى النطق باللسان، وهذه الحالة المحمودة التامة.

---

(١) سورة التغابن الآية (٨).
(٢) سورة الفتح الآية (٨،٩).
(٣) سورة الفتح الآية (١٣).
(٤) صحيح مسلم جـ١، ص ٥٣.
(٥) صحيح مسلم جـ١، ص ٣٧.

وأما الحالة المذمومة، فالشهادة باللسان دون تصديق القلب، وهذا هو النفاق: قال تعالى ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾(١) أي كاذبون في قولهم ذلك عن اعتقادهم وتصديقهم وهم لايعتقدونه، فلما لم تصدّق ذلك ضمائرهم لم ينفعهم أن يقولوا بألسنتهم ماليس في قلوبهم.

ثم قال: والفرق بين القول والعَقْدِ ما جعل في حديث جبريل: الشهادة من الإسلام، والتصديق من الإيمان.

٢ ــ وجوب طاعته، أقول: وقد ذكرنا كثيراً من نصوص الكتاب والسنة فيما تقدم مما يدل على وجوب طاعته ﷺ.

٣ ــ لزوم محبته ﷺ قال تعالى ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾(٢).

فكفى بهذا حضاً وتنبيهاً ودلالة وحُجةً على إلزام محبته ووجوب فرضها وعظم خطرها واستحقاقه لها ﷺ، إذ قرّع تعالى من كان ماله وأهله وولده أحبَّ إليه من الله ورسوله وأوعدهم بقوله «فتربصوا حتى يأتي الله بأمره» ثم فسّقهم بتمام الآية، وأعْلمهم أنهم ممن ضلّ ولم يهْده الله.

---

(١) سورة المنافقين الآية (١).

(٢) سورة التوبة الآية (٢٤).

وقال ﷺ «لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»(١).

وقال ﷺ «ثلاثٌ من كنّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما وأن يُحب المرأ لايُحبُّه إلا لله وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار»(٢).

قلتُ: وقد قال القاضى عياض وابن بطال وغيرهما، المحبة ثلاثة أقسام، محبة إجلال وإعظام كمحبة الوالد، ومحبة شفقة ورحمة كمحبة الولد، ومحبة مشاكلة واستحسان كمحبة سائر الناس، فجمع النبي ﷺ أصناف المحبة في محبته(٣).

٤ ــ ما جاء في ثواب محبته ﷺ.

روى عن أنس رضى الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: متى الساعةُ يارسول الله؟ قال : ما أعددت لها؟ قال ما أعددتُ لها من كثير صلاةٍ ولا صومٍ ولا صدقة ولكنى أحبُ الله ورسوله: قال ﷺ «أنت مع مَنْ أحْبَبْتَ»(٤).

وروى أن رجلاً كان عند النبي ﷺ ينظر إليه لايطرفُ، فقال ﷺ «مابالك»؟ قال بأبي أنت وأمى أتمتّعُ من النظر إليك، فإذا كان يومُ القيامة رفعك

---

(١) صحيح مسلم جـ١، ص ٦٧.

(٢) صحيح البخاري باب حلاوة الإيمان جـ١، ص ١٢، رواه مسلم بلفظ قريب من هذا في باب الإيمان جـ١، ص ٦٦.

(٣) تعليق محمد فؤاد عبد الباقي على صحيح مسلم جـ١، ص ٦٧.

(٤) صحيح البخاري جـ٤، ص ٧٦.

الله بتفضيله مع النبيين، وإن دخلتُ الجنة لا أراك، فأنزل الله تعالى قوله ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[1] فدعا به ﷺ فقرأها عليه.

وقد روى الطبرى وابن أبي حاتم بسند صحيح أن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا له: ما ينبغى أن نفارقك في الدنيا فإنك إذا فارقتنا رفعت فوقنا فنزلت الآية[2]، ومن فضائل محبته ﷺ أنها تخفف من شدة المعاصى وبلائها.

فقد روى البخارى عن عمر رضى الله عنه قال «كان رجل يسمىّ عبد الله، ويلقب حماراً، وكان يُضحك رسولَ الله ﷺ، وكان يشرب الخمر فيؤتى به فيقيم عليه الحدَ، فلعنه بعض الصحابة فقال ﷺ: لاتلّعنه، فإنه يُحبُ الله ورسولَه[3].

وفي هذا رد على من يكفر أهل المعاصى بذنوبهم كالخوارج والمعتزلة الذين يحكمون بخلوده في النار.

٥ ــ وجوب النصح لرسول الله ﷺ.

قال تعالى ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[4] قال اهل التفسير إذا نصحوا لله ورسوله، أي إذا كانوا مخلصين مسلمين في السر والعلانية .. وفي الحديث

---

(١) سورة النساء الآية (٦٩).

(٢) انظر زاد المسير لابن الجوزى جـ٢، ص ١٢٦.

(٣) انظر صحيح البخاري جـ٤، ص ١٧٢ كتاب الحدود.

(٤) سورة التوبة الآية (٩١).

الصحيح «الدين النصيحة الدين النصيحة الدين النصيحة قالوا لمن يارسول الله قال لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[1].

قال أبو بكر الآجُرِّيُّ وغيره : النصح له يقتضى نُصْحَيْن نصحاً في حياته، ونصحاً بعد مماته، ففي حياته نُصح أصحابه له بالنصر والمحاماة عنه ومعاداة من عاداه، والسمع والطاعة له وبذل النفوس والأموال دونه كما قال تعالى ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾[2] وقال تعالى ﴿وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾[3].

وأما نصيحة المسلمين له بعد وفاته فالتزام التوقير والإجلال وشدة المحبة له، والمثابرة على تعلّم سنته والتفقّه في شريعته ومحبة آل بيته وأصحابه ومجانبة من رغب عن سنته وانحرف عنها.. إلخ ماذكره.

٦ ـــ تعظيم أمره ووجوب توقيره وبرّه

قال تعالى ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾[4].

وقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾[5].

---

(١) صحيح مسلم جـ١، ص ٧٤ كتاب الإيمان.

(٢) سورة الأحزاب الآية (٢٣).

(٣) سورة الحشر الآية (٨).

(٤) سورة الفتح الآية (٨،٩).

(٥) سورة الحجرات الآية (١،٢).

فأوجب تعالى تعزيزه وتوقيره، وألزم إكرامه وتعظيمه.

وقال المبّرد : تعزّروه تبالغوا في تعظيمه، وقال الأخفش تنصرونه، وقال الطبريّ تعينونه، وقرئ بزائين من العز، ونهى الله عن التقدم بين يديه بالقول وسوء الأدب بسبقه بالكلام[1].

قيل نزلت الآية ﴿لاترفعوا أصواتكم﴾ في وفد بني تميم عندما قالوا يامحمد أخرج إلينا وقيل الآية الأولى من سورة الحجرات في أبي بكر وعمر وكانت بينهما محاورة ثم ارتفعت أصواتهما.

وقيل نزلت الآية في ثابت بن قيس بن شماس خطيب النبي ﷺ في مفاخرة بني تميم وكان في أذنيه صممٌ فكان يرفع صوته .. فلما نزلت الآية أقام في منزله وخشي أن يكون حبط عمله فقال له النبي ﷺ ياثابت، أما ترضى أن تعيش حميداً وتقتل شهيداً وتدخل الجنة؟ فقال رضيت ببشرى الله تعالى ورسوله ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله ﷺ وأنزل الله تعالى ﴿إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين أمتحن الله قلوبهم للتقوى﴾[2] وقد استشهد ثابت يوم اليمامة[3]، وهكذا كان الصحابة يعظّمون رسول الله ﷺ، وإذا تكلم أطرقوا كأن على رؤسهم الطير.

---

(١) انظر الشفا للقاضي عياض جـ٢، ص ٣٥.

(٢) انظر تفسير ابن كثير جـ٤، ص ٢٠٧، والشهادة لثابت بن قيس بدخول الجنة، ثابتة في صحيح البخاري جـ٣، ص ١٩١.

(٣) انظر الإصابة في تمييز الصحابه جـ١، ص ٣٩٥.

الموضوع الحادي عشر : العـــدل.

العدل : القصد في الأمور، وهو خلاف الجور كما ذكره الفيّومى في المصباح المنير[١].

وقال ابن الجوزى، العدل الإنصاف والحق وضده الجور[٢]، والعدل: ضربان: مطلق يقتضى العقل حسنه، ولايكون في شئ من الأزمنة منسوخاً ولايوصف بالاعتداء بوجه، نحو الإحسان إلى من أحسن إليك، وكف الأذى عمن كف أذاه عنك.

وعدل، يعرف كونه عدلاً بالشرع، ويمكن أن يكون منسوخاً في بعض الأزمنة كالقصاص، وأرش الجنايات، وأخذ مال المرتد، ولذلك قال تعالى ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ﴾[٣] وقال تعالى ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[٤] فسمى ذلك سيئة واعتداءً، وهذا النحو هو المعنى بقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾[٥] فإن العدل هو المساواة في المكافأة إن خيراً فخير وإن شراً فشر[٦].

والإحسان أن يقابل الخير بأكثر منه، والشر بأقل منه، وقد ذكر ابن الجوزى، أن العدل في القرآن على خمسة أوجه :

(١) المصباح، ص ٥٤١.
(٢) نزهة الأعين النواظر جـ٢، ص ٥١.
(٣) سورة البقرة الآية ١٩٤.
(٤) سورة الشورى الآية (٤٠).
(٥) سورة النحل الآية (٩٠).
(٦) بصائر ذوي التمييز للفيروز آبادي جـ٤، ص ٢٩.

الأول : الفداء : ومنه قوله تعالى ﴿ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ ﴾[1]، وقوله تعالى ﴿ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ﴾[2].

الثاني : الإنصاف : ومنه قوله تعالى ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ فَوَٰحِدَةً ﴾[3] وقال تعالى أيضاً ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓا۟ أَن تَعْدِلُوا۟ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾[4].

الثالث : القيمة : ومنه قوله تعالى ﴿ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا ﴾[5] أراد، أو قيمة ذلك يصام عنه.

الرابع : الشرك : ومنه قوله تعالى ﴿ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾[6].

الخامس : التوحيد : ومنه قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾[7].

قيل أراد بالعدل كلمة التوحيد وهي (لا إله إلا الله)[8] .. وكلمة: عَدَلَ، وما تصرف منها وردت في القرآن في ثمانية وعشرين موضعاً.

وهناك نصوص كثيرة من القرآن وردت في العدل المطلق بين الناس، وهذا من محاسن الإسلام ومقاصده العليا، ومن هذه النصوص مايلي:

١ ــ قوله تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾[9].

---

(١) سورة البقرة الآية (٤٨).
(٢) سورة الأنعام الآية (٧٠).
(٣) سورة النساء الآية (٣).
(٤) سورة النساء الآية (١٢٩).
(٥) سورة المائدة الآية (٩٥).
(٦) سورة الأنعام الآية (١).
(٧) سورة النحل الآية (٩٠).
(٨) نزهة الأعين النواظر لابن الجوزي جـ٢، ص ٥٢.
(٩) سورة الحديد الآية (٢٥).

٢ ـ قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾(١).

٣ ـ قوله تعالى ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾(٢).

٤ ـ قوله تعالى ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ﴾(٣).

٥ ـ قوله تعالى ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ﴾(٤).

٦ ـ قوله تعالى ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ﴾(٥).

٧ ـ قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾(٦).

والعدل ميادينه كثيرة، على مستوى الأفراد والجماعات والحكومات، ويمكن أن نوجز بعض الميادين التطبيقية للعدل فيما يلي:

---

(١) سورة النساء الآية (٥٨).
(٢) سورة ص الآية (٢٦).
(٣) سورة الشورى الآية (١٥).
(٤) سورة الأعراف الآية (٢٩).
(٥) سورة الأنعام الآية (١٥٢).
(٦) سورة المائدة الآية (٨).

١ ــ العدل في الحكم بين الناس في الولاية العامة كالحكم والقضاء.

ولسنا في حاجة إلى ضرب الأمثلة على عدل ولاة أمور المسلمين من الصحابة، وخيار من بعدهم.

وهذا العدل ليس فقط بين المسلمين، ولكنه بين المسلمين وبين غيرهم من الأمم الأخرى أيضا، وحادثة اليهودي، الذي التقط درع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، عندما سقط منه، مشهورة، فقد احتكما إلى القاضي شريح، ولكن لم يكن لعليّ من الشهود إلا ابنه الحسن ومولاه قنبر، فلم يقبل شريحٌ شهادة الحسن لوالده علي بن أبي طالب، وحكم بالدرع لليهودي، ويروى أن هذا الموقف الكريم أمام عدل الإسلام. قد حدا باليهودي فأسلم، وأن علي بن أبي طالب أعطاه الدرع مكافأة له على إسلامه[١].

إنها قصص من العدل تشبه الأساطير في حياة سلفنا الصالح، لأنها صنعتهم عقيدة الإيمان وتربّوا في أحضان النبوة، فكانت سجاياهم مناراً على جبين الزمان .. والإمام العادل من السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لاظل إلا ظله[٢].

٢ ــ العدل في الولاية الخاصة على الأولاد، وذلك في تربيتهم ورعايتهم والعدل في أعطياتهم، وقد أرشد النبي ﷺ إلى العدل بين الأولاد فقال لوالد النعمان بن بشير عندما خصه ببعض الهبات، «أفعلت هذا بولدك كلهم؟ قال: لا، قال اتقوا الله واعدلوا في أولادكم» وفي رواية أن النبي ﷺ قال «يابشير! ألك ولدٌ سوى هذا؟

---

(١) انظر هذه القصة في حلية الأولياء لأبي نعيم جـ٤، ص ١٣٩.

(٢) صحيح البخارى جـ١، ص ١٢١.

قال نعم، فقال «أكلهم وهبت له مثل هذا؟ قال: لا، قال : فلا تشهدني إذاً فإني لا أشهد على جور»[1].

وكذلك العدل في معاشرة الزوجات : كالعدل في القسم والنفقة وغير ذلك.

والقرآن الكريم عندما أباح التعدد في الزوجات إلى أربع جعل ذلك مقيداً بالعدل في قوله تعالى ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً﴾[2].

وقد جاء الوعيد شديداً لمن لم يعدل بين زوجاته فقال ﷺ ﴿من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل﴾[3].

والمراد بالعدل فيما يملك من القسم في المبيت والنفقة والسكن وجميع الحقوق الزوجية، فأما ميل القلب بالحب ونحو ذلك فهذا مالا يملكه الإنسان، والعدل فيه متعذر، ولهذا قال النبي ﷺ «اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك»[4] يعني ميل القلب.

وهو المعنى بقوله تعالى ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ﴾[5].

٣ ــ العدل في الإصلاح بين الناس وفض المنازعات والخصومات بما يحقق

---

(١) رواه مسلم في صحيحه بألفاظ مختلفة جـ٣، ص ١٢٤٣ كتاب الهبات.

(٢) سورة النساء الآية (٣).

(٣) رواه أصحاب السنن: وانظر سنن أبي داود جـ٢، ص ٢٤٢.

(٤) رواه أبو داود في سننه جـ٢، ص ٢٤٢.

(٥) سورة النساء الآية (١٢٩).

العدل بين الأطراف المتنازعة، وكما يكون العدل في القول كقوله تعالى ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾(1) يكون العدل أيضا في العمل ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ﴾(2) وقد بشّر النبي ﷺ أهل العدل بحسن المصير فقال ﷺ «إن المقسطين عند الله على منابر من نور، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وماولوا»(3) والعدل مطلبٌ هام في حياة هذه الأمة المحمدية، لأنها ستستشهد يوم القيامة على الأمم السابقة، ولابد لمن يشهد من أن يكون عدلاً وإلا طعن في شهادته، وقد أشار القرآن الكريم إلى شهادة هذه الأمة بقوله ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(4)

الموضوع الثاني عشر : الجهـــاد.

الجهاد : من المجاهدة، وهي بذل الجهد واستنفاذ الطاقة في سبيل حصول المقصود، وقد ذكر بعض المفسرين أن الجهاد ورد في القرآن على ثلاثة أوجه(5).

الوجه الأول : **الجهاد بالقول** : ومنه قوله تعالى ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾(6) وقوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾(7).

الوجه الثاني : **الجهاد يعنى القتال بالسلاح** : ومنه قوله تعالى ﴿لايستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون في سبيل الله﴾

---

(1) سورة الأنعام الآية (152).
(2) سورة النساء الآية (58).
(3) صحيح مسلم جـ3، ص 1458 كتاب الإمارة.
(4) سورة البقرة الآية (143).
(5) الأشباه والنظائر، لمقاتل بن سليمان البلخي ص 148.
(6) سورة الفرقان الآية (52).
(7) سورة التوبة الآية (73).

إلى قوله ﴿ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1].

الوجه الثالث : **الجهاد يعنى العمل** : ومن ذلك قوله تعالى ﴿ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ﴾[2] وقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾[3].

والجهاد، أصلٌ من أصول الأديان، ولا يستقيم أمر المسلمين إلا به، وقد أوضح النبي ﷺ هذه الحقيقة عندما قال: «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد»[4].

وحقيقة الجهاد في سبيل الله، هي العمل على إعلاء كلمة الله في الأرض بكافة الوسائل المادية والمعنوية، وإقامة موازين العدل والأمن في المجتمعات البشرية.

لأن الأصل أن تُحكَم الأرض بشريعة الله، فإن دين الإسلام دين عالمي، وقد جاءت الرسالة المحمدية خاتمة للرسالات السابقة مشتملة عليها ومتممة لمكارم الأخلاق ومحاسن الفعال.

والصراع بين الحق والباطل لاينتهي، ولابد من مقاومة الشر والطغيان في مختلف العصور.

---

(١) سورة النساء الآية (٩٥).
(٢) سورة العنكبوت الآية (٦).
(٣) سورة العنكبوت الآية (٦٩).
(٤) سنن الترمذي جـ٧، ص ٢٨١، وقال حسن صحيح.

والجهاد مشروع حتى في الأمم السابقة، كما قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾(1).

وحكم الجهاد الذي هو بمعنى الغزو والقتال في سبيل الله: أنه فرض كفاية، بمعنى أنه إذا قام به من المسلمين من يكفي سقط الإثم عن الباقين وإلا أثموا جميعا، ويتعين في مواضع ثلاثة كما نص على ذلك بعض فقهاء الإسلام(2).

١ ـ إذا التقى الزحفان وتقابل الجيشان حرم على من حضر المعركة الانصراف وتعيَّن عليه القتال لقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ ﴾(3)، وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾(4).

٢ ـ إذا هاجم العدو بلاد المسلمين وجب عليهم الدفاع عنها.

٣ ـ إذا دعا إمام المسلمين إلى النفير العام .. وجبت عليهم الإجابة لداعي الجهاد كما قال تعالى: ﴿ياأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل، إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم، ولاتضروه شيئا والله على كل شيء قدير﴾(5)، وقال تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(6).

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٤٦).

(٢) انظر المغنى لابن قدامه جـ٩، ص ١٧٩ وغيره من مصادر الفقه الإسلامي.

(٣) سورة الأنفال الآية (٤٥).

(٤) سورة الأنفال الآية (١٥، ١٦).

(٥) سورة التوبة الآية (٣٨، ٣٩).

(٦) سورة التوبة الآية (٤١).

أما أسباب الجهاد : فهي كثيرة ولكن مردّها إلى مايلي :

١ ــ العدوان على المسلمين، وقد شرع الله القتال لرد العدوان، قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾(١) ، وقال تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ ﴾(٢).

٢ ــ رفع الظلم والاضطهاد عن المسلمين، وقد أذن الله لهم بالدفاع عن أنفسهم قال تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾(٣).

٣ ــ ضرورة إبلاغ دعوة الإسلام إلى الناس كافة لأنها دعوة عالمية ورسالة ختامية ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾(٤)، وليس للرسول ﷺ خيار في إبلاغ رسالة الله. فلقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ ﴾(٥)، حتى قيل إن هذه الآية من أشد الآيات التي نزلت على رسول الله ﷺ.

وأمام هذه التكاليف بإبلاغ رسالة الله لابد للدعوة من خصوم يقفون في طريقها ويمنعون وصولها إلى الناس عندئذ لابد من تحطيم مراكز القوى التي تصد عن سبيل الله ﴿ وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٦).

---

(١) سورة البقرة الآية (١٩٠).

(٢) سورة البقرة الآية (١٩٤).

(٣) سورة الحج الآية (٣٩).

(٤) سورة سبأ الآية (٢٨).

(٥) سورة المائدة الآية (٦٧).

(٦) سورة البقرة الآية (١٩٣).

أما أهداف الجهاد في سبيل الله : فهي إعلاء كلمة الله في الأرض، وإقامة الحق والعدل بين الناس، وجعل الحاكمية لله وحده، فلايُهتَدى إلا بهدي الله ولايحكم إلا بشريعته .. ولهذا لايكاد يذكر القتال أو الجهاد إلا مقرونا بسبيل الله، تفريقا بينه وبين القتال من أجل الثارات والأطماع الدنيوية وحب السيطرة والاستعباد، فالإسلام لايريد من القتال إبادة الحرث والنسل ونشر الخراب والدمار .. بل إن من أهداف الإسلام إسعاد البشرية وهدايتها، ونشر الأمن والرخاء فوق ربوعها، وهو لايلجأ للقتال إلا عند الضرورة.

أما مشروعية الجهاد : فكانت بعد الهجرة، فإنه لم يختلف العلماء في أن القتال قبل الهجرة كان محضورا على المسلمين كقوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ﴾[1] وقوله ﴿ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾[2] فلما استقر النبي ﷺ بالمدينة وصارت له شوكة .. أنزل الله تعالى قوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ﴾[3] فكان رسول الله ﷺ يقاتل من قاتله ويكف عمن كف عنه، وروى جماعة من الصحابة منهم أبو بكر الصديق وابن عباس أن أول آية نزلت في القتال هي قوله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴾[4].

وقد أيد هذا القول أبو بكر بن العربي في كتابه أحكام القرآن وذكر أن القتال كان إذنا ثم أصبح فرضا بعد ذلك[5].

---

(١) سورة المائدة الآية (١٣).
(٢) سورة المؤمنون الآية (٩٦)، وفصلت الآية (٣٤).
(٣) سورة البقرة الآية (١٩٠).
(٤) سورة الحج الآية (٣٩).
(٥) انظر أحكام القرآن لابن العربي جـ١، ص ١٠٢، وتفسير القرطبي جـ٢، ص ٣٤٧.

والجهاد في سبيل الله : يكون بالنفس وبالمال وباللسان، وقد أعظم الله الثمن للمجاهدين بالأنفس والأموال فقال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[1].

وروى أبو داود والإمام أحمد والنسائي وابن حبان أن رسول الله ﷺ قال: «جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم وألسنتكم»[2].

والذين جادوا بأنفسهم في سبيل الله بشّرهم الله بالحياة الطيبة وأنهم عند ربهم يرزقون فقال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[3].

والمال عنصر هام للمجاهدين في سبيل الله، وقد ضرب لنا سلفنا الصالح النماذج الخيّرة في مجال التبرع بالمال للجهاد وإعداد العُدة، فقد دعا النبي ﷺ للتبرع للجهاد في غزوة تبوك عندما واجهت المسلمين شدة من قلة الأموال والموارد وكان لابد من إعداد العدة وتجهيز الجيش بما يتناسب مع أهمية تلك الغزوة، فتسابق الناس للتبرع فأراد عمر بن الخطاب رضي الله عنه في هذه المرة أن ينافس أبا بكر الصديق فينفق من ماله أكثر منه، فقسم عمر بن الخطاب ماله شطرين، وجاء بشطر وترك لأهله شطرا، وجاء أبو بكر بماله كله فوضعه بين يدي رسول الله

---

(١) سورة التوبة الآية (١١١).
(٢) انظر سنن أبي داود جـ٣، ص ١٠، ومسند الإمام أحمد جـ٣، ص ١٢٤.
(٣) سورة آل عمران الآية (١٦٩، ١٧٠).

ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «ما تركت لأهلك يا أبا بكر قال تركت لهم الله ورسوله، وقال ماتركت لأهلك ياعمر فقال تركت لهم شطر مالي وجئت بشطر» فلما بلغ عمر ماصنعه أبو بكر رضي الله عنه قال: «ما استبقنا إلى الخير قط إلا سبقني إليه»(١) أما عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه وأرضاه فقد قام بتجهيز الجيش وكان يسمى جيش العسرة، وتحمل رضي الله عنه معظم النفقات في تلك الغزوة حتى قال له النبي ﷺ: «ما يضر عثمان ما فعل بعد هذا»(٢).

وهناك أمور لابد منها عند إرادة الجهاد في سبيل الله، منها:

١ ــ إعداد العدة، والقرآن الكريم صريح في دعوته لهذا إذ يقول تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾(٣).

وقد فسر النبي ﷺ القوة بالرمي كما في صحيح مسلم(٤) والتنكير هنا يفيد العموم لجميع القوى المادية والروحية كالإيمان والصبر والثبات، وقد قال ﷺ: «إن الله ليُدخِل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة .. صانعه يحتسب في صنعته الخير ومنبله والرامي به»(٥) رواه أبو دادو والترمذي و ابن ماجه.. إلخ.

٢ ــ الثبات، وطاعة القائد وترك النزاع والخلاف مهما كانت النتائج، قال الله

---

(١) رواه أبو نعيم في الحلية جـ١، ص ٣٢.

(٢) السيرة النبوية لابن كثير جـ٤، ص ٦.

(٣) سورة الأنفال الآية (٦٠).

(٤) جـ٣، ص ١٥٢٢، كتاب الإمارة.

(٥) انظر سنن أبي داود جـ٣، ص ١٣ كتاب الجهاد.

تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُواْ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾(١).

٣ ـ حفظ السر : فإن كشف أسرار الجيش جريمة كبرى، وهو من أسباب الهزيمة وقد نهى الله المسلمين عن ذلك لما فيه من موالاة الأعداء والتجسس على المسلمين، ويظهر ذلك من قصة حاطب بن أبي بلتعة عندما بعث بكتاب إلى قريش يخبرهم فيه بخروج النبي ﷺ إلى مكة وقد أشار القرآن إلى ذلك في أول سورة الممتحنة فقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ إلى قوله ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾(٢).

ومنها أن النبي ﷺ كان إذا أراد أن يغزو جهة ورّى بغيرها ثم انطلق إلى الجهة التي يريدها، وقصة النبي ﷺ في غزوة بدر الكبرى مع الأعرابي: لاأخبركما حتى تخبراني من أنتما فقال له رسول الله ﷺ إذا أخبرتنا أخبرناك، قال أو ذاك بذاك؟ قال نعم، فأخبرهما بخبر قريش ومحمد وأصحابه، فلما فرغ من خبره قال ممن أنتما؟ فقال رسول الله ﷺ: نحن من ماء. ثم انصرف عنه.

٤ ـ اختيار المكان المناسب : وهو ما يعرف في النظم الحديثة بالإستراتيجية العسكرية، وقد تحدث التأريخ عن موقف الحباب بن المنذر في غزوة بدر الكبرى وقد نزل النبي ﷺ بمكان، فقال يارسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدم ولا نتأخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ فقال رسول الله

(١) سورة الأنفال الآية (٤٥).

(٢) سورة الممتحنة الآية (١).

ﷺ: بل هو الرأي والحرب والمكيدة، فقال: يارسول الله إن هذا المكان ليس لنا بمنزل، وأشار عليه بأرض تصلح للحرب .. فقال ﷺ: لقد أشرت بالرأي .. ونهض رسول الله ﷺ بمن معه من الناس[1].

٥ ــ دعوة الكفار للإسلام قبل الحرب، وعدم الغدرة والمُثْلة وقتل النساء والصبيان.

فقد كان رسول الله ﷺ إذا أمّر على الجيش أو السرية أميرا أوصاه في خاصته بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيرا ثم قال له «اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر بالله ولاتغدروا ولاتُمثِّلوا ولاتقتلوا وليدا»[2].

وفي وصية أبي بكر لجنده .. ستجدون قوما زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له ولاتقتلنّ امرأة ولا صبيا ولا كبيرا هَرِماً»[3].

٦ ــ ما يعرف في الحروب الحديثة بالحرب النفسية: وهذا من أخطر الأسلحة التي يمكن أن يستخدمها كل فريق ضد الآخر، والقرآن الكريم أشار إلى أن إعداد العدة المادية والمعنوية فيه إرهاب للأعداء، وتمكين للرعب في قلوبهم، وهو هدف من أهداف إزهاق الباطل وإذلاله قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[4].

(١) السيرة النبوية لابن كثير جـ٢، ص ٤٠٢.
(٢) رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد، انظر سنن أبي داود جـ٣، ص ٣٧.
(٣) انظر أحكام القرآن لابن العربي جـ١، ص ١٠٤ ــ ١٠٥.
(٤) سورة الأنفال الآية (٦٠).

وقد نُصِر النبي ﷺ بالرّعب على عدوّه، كما ثبت ذلك في صحيح مسلم وغيره(١).

وقصة أبي دجانة سَمَّاك بن خرشة رضي الله عنه مشهورة، حيث كان يختال في مشيته أمام المشركين ويتبختر وفي يده السيف الذي أعطاه رسول الله فقال ﷺ حين رأى أبا دجانة يتبختر: «إنها لمشية يبغضها الله إلا في هذا الموطن»(٢).

وفي عمرة القضاء في السنة السابعة قالت قريش: إنه سيقدم عليكم محمد وأصحابه وقد أنهكتهم حُمَّى يثرب فلما بلغ النبي ﷺ مقالة المشركين حسر عن كتفه وعن عضده الأيمن مضطبعا بردائه، ورَمَل في الأشواط الثلاثة الأولى وقال لأصحابه «رحم الله امرءا أراهم اليوم من نفسه قوه»(٣). والمواقف والخطط التي ترعب الأعداء كثيرة جدا، وقصة خالد ابن الوليد رضي الله عنه في غزوة مؤتة في منتهى الروعة والدهاء، ولو ذهبنا نستتشهد بتلك المواقف الجهادية المثالية في تاريخ المسلمين لخرجنا عن حد الإيجاز، ويمكن أن نضرب أمثلة رائعة من سلفنا الصالح في الثبات على المبادئ واستعلائهم بالإيمان على أعداء الإسلام ومن هذه المواقف البطولية مايلي:

١ ـ موقف سعد بن معاذ وسعد بن عبادة مع المشركين في غزوة الأحزاب، فقد ذكرت الروايات أن المشركين حاصروا المدينة المنورة قرابة شهر وخشي النبي ﷺ على أصحابه اشتداد البلاء فبعث رسول الله ﷺ إلى عيينة بن حصن والحارث بن عوف المرّي وهما قائدا غطفان وأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن

(١) صحيح مسلم جـ١، ص ٣٧٢.
(٢) السيرة النبوية لابن كثير جـ٣، ص ٣٠.
(٣) السيرة النبوية لابن كثير جـ٣، ص ٤٣٠.

يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه .. ولما أراد النبي ﷺ أن يفعل ذلك بعث إلى السعدين فذكر لهما ذلك واستشارهما فيه فقالا يارسول الله أمرا تحبه فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به لابد لنا من العمل به، أم شيئاً تصنعه لنا؟ فقال رسول الله ﷺ بل شئ أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كلّ جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما.

فقال له سعد بن معاذ : يارسول الله قد كنا وهؤلاء على الشرك بالله وعبادة الأوثان لانعبد الله ولانعرفه، وهم لايطمعون أن يأكلوا منها تمرة واحدة إلا قِرى أو بيعا، أفحين أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزنا بك وبه، نعطيهم أموالنا؟ مالنا بهذا من حاجة، والله لانعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم .. فقال النبي ﷺ «أنت وذاك»(١) وقد سر النبي ﷺ بهذه الشجاعة النادرة، واطلع الله على صدق العزيمة عند المسلمين فهزم الله الأحزاب، وسلط عليهم ريحا قلعت أطنابهم وكفأت قدورهم، وسفت التراب في وجوههم، وكفى الله المؤمنين القتال.

٢ ــ موقف أبي بكر الصديق من المرتدين بعد وفاة النبي ﷺ، فقد وقف وقفة خالدة، نصر الله به دينه واعتز بموقفه الإسلام والمسلمون .. لقد وقف قائلا: «من كان يعبد محمدا فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حيّ لايموت».

وأنفذ جيش أسامة بن زيد الذي كان معسكرا خارج المدينة رغم اقتراح بعض الصحابة بإبقاء هذا الجيش للدفاع عن المدينة قال أبو بكر في صرامة وعزيمة ماضية: «والله لو جرّت كلاب المدينة بأرجل أمهات المؤمنين ما حللت راية عقدها رسول الله ﷺ» وقاتل أبو بكر أهل الردة ومانعي الزكاة والمتنبئين الكذابين وفي مقدمتهم مسيلمة الكذاب.

---

(١) انظر السيرة النبوية لابن كثير جـ٣، ص ٢٠٢.

فاستقر الأمر وعاد الأمن إلى أنحاء الجزيرة العربية وبدأ بإعداد الجيوش الإسلامية لفتح بلاد فارس والروم ولكن عاجلته المنية قبل إتمام ذلك، ولكن تم معظم ذلك في عهد الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه على أيدى قادة المسلمين العظماء، كسعد بن أبي وقاص والمثنى بن حارثة وخالد بن الوليد وأبو عبيدة عامر بن الجراح وعمرو بن العاص وغيرهم من القادة الذين خلّدهم التأريخ، وبعدُ فإن الجهاد في سبيل الله مطلبٌ أساسي في الإسلام، ولاتقوم للمسلمين قائمة إلا به.

فما أفْلَحتْ في موكب المجدِ أمّــةٌ
إذا لم يكنْ دربُ الجهادِ لَها دَرْباً

الموضوع الثالث عشر : العلم حقيقته وغايته.

الْعِلْم : العين واللام والميم أصل صحيح واحد، يدل على أثَرٍ بالشئ يتميّزُ به عن غيره، كما ذكره ابن فارس في معجم مقاييس اللغة، ثم قال والعِلْمُ : نقيض الجهل، وقياسُه قياس الْعَلَمِ والْعَلَامهْ، والدليل على أنهما من قياس واحد قراءة بعض القراء[1] ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾[2] قالوا: يراد به نزول عيسى عليه السلام، وإن بذلك يُعلم قرب الساعة :

والعِلْم : خاصة من خواص النفس.

والعلم : هو معرفةُ المعلوم الذي من شأنه أن يُعْلم على ما هو به في الواقع كإدراك الإنسان بأنه حيوان ناطق كما يعبر عن ذلك أهل الكلام.

---

(١) معجم مقاييس اللغة جـ٤ مادة ـ علم ـ.
والقراء : هم ابن عباس وأبو هريرة وقتادة ومجاهد والضحاك وغيرهم كما نقله أبو حيان في تفسيره جـ٨، ص ٢٦.

(٢) سورة الزخرف الاية (٦١).

أما الجهل : فهو تصور الشئ على خلاف ما هو به في الواقع، كإدراك الفلاسفة أن العالم ــ وهو ما سوى الله ــ قديم.

وبعضهم وصف هذا الجهل بالمركب، وجعل البسيطَ عدمَ العلم بالشئ، كعدم علمنا بما تحت الأرضين.

والعلم : قسمان :

١ ــ ضرورى وبمعناه البَدَهِيُّ ــ وهو ما لايقع عن نظر واستدلال، كالعلم الواقع بإحدى الحواس الخمس الظاهرة وهي السمع والبصر واللمس والشم والذوق، فإنه يحصل بمجرد الإحساس بها من غير نظر واستدلال.

٢ ــ مكتسب وبمعناه النظرى : فهو الموقوف على النظر والاستدلال كالعلم بأن العالم حادث لأنه متغيّر وكلّ متغيرٍ حادث.

والعلم من وجه آخر ضربان : نظريّ وعملي، فالنظرى ما إذا عُلِمَ فقد كَمُل نحو العلم بموجودات العالم، والعملى مالايتم إلا بأن يُعمل كالعلم بالعبادات.

والعلم من وجه آخر أيضاً : ضربان سمعيّ وعقليّ، وقد تحدث العلماء عن العلم ومكانته وحقيقتِه وغاياتِه فقال صاحب بصائر ذوي التمييز ــ في معرض ثنائه على العلم ــ قال ما نصه: فهو تركةُ الأنبياء وتراثهم، وأهله عصبتهم وورّاثهم، وهو حياة القلوب، ونور البصائر وشفاء الصدور ورياض العقول، ولذّة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليل المتميّزين وهو الميزان الذي يُوزن به الأقوال والأفعال والأحوال.

وهو الحاكم المفرّق بين الشك واليقين، والغيّ والرشاد والهدى والضلال، به يُعْرفُ الله ويعْبُد، ويذّكر ويوحّد، وهو الصاحب في الغُربة، والمحدث في الخلوة، والأنيسُ في الوحشة، والكاشف عن الشبهة، والْغِنَى الذي لافَقّرَ على من ظفر بكنزه، والكنف الذي لاضيعةَ على من أَوَى إلى حِرْزه، مذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وطلبه قربة، وبذله صدقة ومدارسته تُعدلَ بالصيام والقيام، والحاجة إليه أعظم من الحاجة إلى الطعام والشراب، لأن المرأ يحتاج إليهما مرة أو مرتين في اليوم، وحاجته إلى العلم كعدد أنفاسه، وطلبه أفضل من صلاة النافلة، نص عليه الشافعى وأبو حنيفة، واستشهد الله عز وجل أهل العلم على أجل مشهود وهو التوحيد وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وفي ضمن ذلك تعديلهم فإنه لايستشهد بمجروح:

﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾(١).

ومن ها هنا يوجّه ـــ والله أعلم ـــ الحديث [يحمل هذا العلم من كل خلفٍ عدوله ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين](٢). وهو حجة الله في أرضه، ونوره بين عباده، وقائدهم ودليلهم إلى جنته ومُدْنيهم من كرامته، ويكفى في شرفه أن فَضْلَ أهله على العباد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وكفضل سيد المرسلين على أدنى الصحابة منزلة، وأن الملائكة تضع

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٨).

(٢) هذا الحديث مرفوع إلى النبي ﷺ، واختلف في بعض رجاله، وقال عنه العراقي: قد ورد هذا الحديث متصلاً من رواية على وابن عمر وابن عمرو وجابر بن سمرة وأبي أمامة وأبي هريرة، وكلها ضعيفة لايثبت منها شئ وليس فيها شئ يقوى المرسل، انظر تدريب الراوي للسيوطى، جـ١، ص ٣٠٣.

لهم أجنحتها وتُظّلِهم بها، وأن العالمَ يستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في البحر وحتى النملة في جُحْرها، وأن الملائكة يصلون على معلمى الناس الخير، وأمر الله أعلم العباد وأكملهم أن يسأل الزيادة من العلم فقال ﴿وقل رب زدنى علماً﴾.

ثم قال: واعلم أن العلم على ثلاث درجات.

أحدها ما وقع من عيانٍ وهو البصر.
الثاني ما استند إلى السمع وهو الاستفاضة.
الثالث ما استند إلى العلم وهو علم التجربة.

على أن طرق العلم لاتنحصر فيما ذكرناه فإن سائر الحواس توجب العلم، وكذا ما يدرك بالباطن وهي الوجدانيات، وكذا ما يدرك بالمُخْبِرِ الصادق وإن كان واحداً.

وكذا ما يحصل بالفكر والاستنباط، وإن لم يكن تجربة[1].

وذكر صاحب نزهة الأعين النواظر عن أهل التفسير أن العلم في القرآن على أحد عشر وجهاً :

أ-حدها **العلم** : نفسه ومنه قوله تعالى ﴿ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[2].

---

(١) بصائر ذوي التمييز جـ٤، ص ٩٠ ـــ ٩١.

(٢) سورة هود الآية (٥).

الثاني **الرؤية** : ومنه قوله تعالى في آل عمران ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴾[١]، وقوله تعالى في سورة براءة ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ ﴾[٢]، وفي سورة محمد ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾[٣].

الثالث **الإذن** : ومنه قوله تعالى ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ ﴾[٤].

الرابع **القرآن** : ومنه قوله تعالى ﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[٥].

الخامس **الكتاب** : ومنه قوله تعالى ﴿ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا ﴾[٦].

السادس **الرسول** : ومنه قوله تعالى ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾[٧].

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٤٢).
(٢) سورة براءة الآية (١٦).
(٣) سورة محمد الآية (٣١).
(٤) سورة هود الآية (١٤).
(٥) سورة البقرة الآية (١٢٠).
(٦) سورة الأنعام الآية (١٤٨).
(٧) سورة آل عمران الآية (١٩).

السابع **الفقه** : ومنه قوله تعالى في الأنبياء ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[1]، وفي الأنبياء أيضا ﴿ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[2].

الثامن **العقل** : ومنه قوله تعالى في القصص ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ ﴾[3].

التاسع **التمييز** : ومنه قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ﴾[4].

العاشر **الفضل** : ومنه قوله تعالى في القصص حكاية عن قارون ﴿ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ إلى قوله ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾[5] قال ابن قتيبة معناه لفضل عندى، ويروى أنه كان أقرأ بنى إسرائيل للتوراة[6].

الحادى عشر ما يعده أربابه علماً وإن لم يكن كذلك ومنه قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[7].

---

(١) سورة الأنبياء الآية (٧٤).
(٢) سورة الأنبياء الآية (٧٩).
(٣) سورة القصص الآية (٨٠).
(٤) سورة آل عمران الآية (١٦٦).
(٥) سورة القصص الآية (٧٨).
(٦) نزهة الأعين النواظر لابن الجوزي.
(٧) سورة غافر الآية (٨٣).

وحقيقة العلم إدراك المعلوم على وجهه الصحيح سواء كان العلم سمعياً نظرياً أو كان عقليا أو تجريبياً.

وغايته : إرضاء الله تعالى بالعمل بشريعته وهداياته، وإسعاد الناس بإقامة العدل والأمن والرخاء بينهم وفق منهج الله في الكون والحياة.

وسنورد نصوصاً من القرآن الكريم تتحدث عن العلم والعلماء :

قال تعالى : ﴿ حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

﴿ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[2].

﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾[3].

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾[4].

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[5].

---

(١) سورة فصلت الآية (١،٣).
(٢) سورة البقرة الآية (٢٣٠).
(٣) سورة العنكبوت الآية (٤٣).
(٤) سورة فاطر الآية (٢٨).
(٥) سورة الزمر الآية (٩).

﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾[1].

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[2].

ومن الآثار الواردة عن النبي ﷺ في العلم والعلماء :

* قوله ﷺ «من يرد الله به خيراً يفقّهه في الدين» متفق عليه[3].

* وقال ﷺ «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع» رواه الترمذي وقال : حديث حسن[4].

* وقال ﷺ «فضل العالم على العابد كفضلى على أدناكم» ثم قال ﷺ «إن الله وملائكته وأهل السموات والأرض حتى النملةَ في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلّمى الناسِ الخيرَ» رواه الترمذى وقال حسن صحيح[5].

* وقال ﷺ لعلى بن أبي طالب «فو الله لأن يهدىَ الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حمر النعم» متفق عليه[6].

---

(١) سورة المجادلة الآية (١١).
(٢) سورة آل عمران الآية (٧).
(٣) انظر صحيح البخارى جـ١، ص ٢٤ كتاب العلم.
(٤) سنن الترمذي جـ٧، ص ٣١، أبواب العلم.
(٥) سنن الترمذي جـ٧، ص ٣٢٧.
(٦) صحيح البخاري جـ٣، ص ٥١ كتاب المغازى.

* وقال ﷺ «مثَل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيثٍ أصاب أرضاً فكانت منها طائفةٌ طيّبةٌ قبلت الماءَ فأنبتت الكلأ والعشبَ الكثيرَ، وكانت منها (أجادبُ)[1] أمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا منها وَسَقَوا وَزَرَعُوا، وأصاب طائفةً منها أخرى إنما هي (قيعانٌ)[2] لاتمسك ماءً ولاتنبت كلأً، فذلك مثل من فَقُهَ في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به فَعَلم وعلّم، ومثَل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هُدى الله الذي أرسلت به» متفق عليه[3].

* وقال ﷺ «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثلَ أجور من تبعه لاينقص ذلك من أجورهم شيئاً»[4].

* وقال ﷺ «نضَّر الله امْرَءاً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه فرُبّ مبلّغٍ أوعى من سامع» رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

* وقال ﷺ «لاحسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضى بها ويعلّمها»[5].

في سنن الترمذى خبر مفاده «إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد : رزقه الله مالاً وعلماً فهو يتقى فيه ربه ويصل فيه رحمه ويعمل لله فيه حقاً فهو بأفضل المنازل.

وعبد : رزقه الله علماً ولم يرزقه مالاً فهو صادق النية يقول لو أن لى مالاً لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرُهما سواء.

(١) أجادب : هي الأرض التي لاتنبت.
(٢) قيعان : هي الأرض المَلْسَاء.
(٣) صحيح البخاري جـ١، ص ٢٦ كتاب العلم.
(٤) رواه مسلم في صحيحه جـ٤،ص ٢٠٦٠ كتاب العلم.
(٥) الحديث في البخاري ومسلم، أنظر صحيح مسلم جـ١، ص ٥٥٩.

وعبد : رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً فهو يتخبط في ماله بغير علم ولا يتقى فيه ربه ولا يصل رحمه ولا يعمل لله فيه حقاً فهو بأخبث المنازل:

وعبد : لم يرزقه الله مالاً ولا علماً فهو يقول لو أن لى مالاً لعملت فيه بعمل فلان فوزْنهما سواء» رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح[(١)].

والعلم ضريبته البيان للناس، وقد ذم الله من أحجم عن هذا البيان فقال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾[(٢)].

وقال ﷺ «من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار» رواه أبو داود والترمذي[(٣)].

وجاء في فضل العلم والعلماء وتفضيلهم على الشهداء ما ورد في سنن ابن ماجه عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «يشفع يوم القيامة ثلاثة الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء»[(٤)].

الموضوع الرابع عشر : المال : حرمته، وطرق كسبه، وانفاقه.

نظرة الإسلام إلى المال :

الإسلام عقيدة ونظام، **والعقيدة** : جوهرها توحيد الله تعالى وعبوديته.

---

(١) سنن الترمذي جـ٧، ص ٨٢ أبواب الزهد.

(٢) سورة آل عمران الآية (١٨٧).

(٣) سنن أبي داود جـ٣، ص٣٢١.

(٤) سنن ابن ماجه جـ٢، ص١٤٤٣ كتاب الزهد.

والنظام : أساسه سعادة المجتمع وتكافله بما يحفظ حق الفرد، ولايتعارض مع مصلحة الجماعة.

والمادة : ليستْ هدفاً كما هو الحال في الأنظمة الرأسمالية حيث يتسلط الفرد على المجتمع، وليستْ سببا وحيداً لتفسير الحوادث كما هو الحال في الأنظمة الاشتراكية العلمية، حيث يطغى المجتمع أو بعض فئاته على الفرد.

والمال وسيلة وليس غاية في ذاته، وإنما هو وسيلة لتحقيق بعض الحاجات والمنافع التي لاغنى للإنسان عنها، وهو خدمة الفرد إلى المدى الذي لاتتعارض معه مصلحة الجماعة، دون تفريط أو إفراط.

وقد قامت السلع أي البضائع مقام المال حين لم يكن النقد معروفاً في التعامل الاقتصادى، وكان التبايع يتم بتقديم بضاعة لقاء بضاعة يراد شراؤها.

والمال في الإسلام ليس مذموماً لذاته، بل يُذم إذا اتخذ غاية وسبباً.

والمال لايقتصر على النقد من الذهب والفضة أو ما يقوم مقامهما من أوراق نقدية، بل هو كل مايمكن أو يقوّم بمال ويصلح أن ينقلب إلى مال.

كما أن الغنى بالمال، أو كسب المال ليس له حدود، مادام الكسب حلالاً، ومادام صاحبه يؤدى حق الله فيه.

والمال : المذموم في الإسلام هو المال الذي يكون غاية لذاته، أو يكون صاحبه حريصاً على اكتنازه وادخاره، ومنع الآخرين من الانتفاع به بدورانه من يد إلى أخرى[١].

---

(١) انظر كتاب منهاج الصالحين لعز الدين بليق ص ٤٧٥ وما بعدها.

ويستتبع ذلك ذم البخل والشح والتقتير، كما أن الإسلام يذم الإسراف والتبذير، ويدعو إلى الاعتدال في جميع الأمور.

يقول الله تعالى ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾[1].

وقد تحدث علماء الإسلام عن المال وأوجه اكتسابه وأوجه إنفاقه، وتحدثوا عن الأسس الاقتصادية والنظم المالية في ضوء الشريعة الإسلامية.

وأذكر على سبيل المثال كلام الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطى رحمه الله في كتابه أضواء البيان[2] عندما تحدث عن الآية السابقة فقال رحمه الله «لا خلاف بين العقلاء أن جميع مسائل الاقتصاد على كثرتها واختلاف أنواعها راجعة بالتقسيم الأول إلى أصلين لا ثالث لهما.

الأول منهما : إكتساب المال .

والثاني منهما : صرفه في مصارفه، وبه تعلم أن الاقتصاد عمل مزدوج ولا فائدة في واحد من الأصلين المذكورين إلا بوجود الآخر، فلو كان الإنسان أحسن الناس نظراً في أوجه اكتساب المال إلا أنه أخرق جاهل بأوجه صرفه، فإن جميع ما حصل من المال يضيع عليه بدون فائدة، وكذلك إذا كان الإنسان أحسن الناس نظراً في صرف المال في مصارفه المنتجة إلا أنه أخرق جاهل بأوجه اكتسابه، فإنه لاينقص حسن نظره في الصرف مع أنه لم يقدر على تحصيل شئ يصرفه، والآيات المذكورة أرشدت الناس ونبهتهم على الاقتصاد في الصرف.

---

(١) سورة الفرقان الآية (٦٧).

(٢) أضواء البيان جـ٦، ص ٣٥٣.

وإذا علمت أن مسائل الاقتصاد كلها راجعة إلى الأصلين المذكورين، وأن الآية المذكورة دلت على أحدهما فاعلم أن الآخر منهما وهو اكتساب المال أرشدت إليه آيات أخر، دلّت على فتح الله الأبواب إلى اكتساب المال بالأوجه اللائقة كالتجارات وغيرها كقوله تعالى ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾[1] وقوله ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[2] وقوله تعالى ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ﴾[3] والمراد بفضل الله في الآيات المذكورة ربح التجارة.

وكقوله تعالى ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ﴾[4] وقد قدمنا في سورة الكهف في الكلام على قوله ﴿فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾[5] أنواع الشركات، وأسماءها، وبينا ما يجوز منها وما لايجوز عند الأئمة الاربعة، وأوضحنا ما اتفقوا على منعه وما اتفقوا على جوازه وما اختلفوا فيه، وبه تعلم كثرة الطرق التي فتحها الله لاكتساب المال بالأوجه الشرعية اللائقة.

وإذا علمت مما ذكرنا أن جميع مسائل الاقتصاد راجعة إلى أصلين، هما: إكتساب المال، وصرفه في مصارفه. فاعلم أن كل واحد من هذين الأصلين لابد له من أمرين ضروريين له.

الأول منهما : معرفة حكم الله فيه لأن الله جل وعلا لم يبح إكتساب المال

---

(١) سورة البقرة الآية (١٩٨).
(٢) سورة الجمعة الآية (١٠).
(٣) سورة المزمل الآية (٢٠).
(٤) سورة النساء الآية (٢٩).
(٥) سورة الكهف الآية (١٩).

بجميع الطرق التي يكتسب بها المال، بل أباح بعض الطرق وحرم بعضها كما قال تعالى ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ (١) ولم يبح الله جل وعلا صرف المال في كل شئ بل أباح بعض الصرف وحرم بعضه كما قال تعالى ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ﴾ (٢) الآية.

وقال تعالى في الصرف الحرام ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ (٣) الآية.

فمعرفة حكم الله في اكتساب المال وفي صرفه في مصارفه أمر ضرورى لابد منه، لأن من لم يعلم ذلك قد يكتسب المال من وجه حرام، والمال المكتسب من وجه حرام لاخير فيه البتّة، وقد يصرف المال في وجهٍ حرام وصرفه في ذلك حسرة على صاحبه.

الأمر الثاني : هو معرفة الطريق الكفيلة باكتساب المال، فقد يعلم الإنسان مثلاً أن التجارة في النوع الفلانى مباحة شرعاً ولكنه لايعلم أوجه التصرف بالمصلحة الكفيلة بتحصيل المال من ذلك الوجه الشرعى، وكم من متصرف يريد الربح فيعود عليه تصرفه بالخسران لعدم معرفته بالأوجه التي يحصل بها الربح، وكذلك قد يعلم الإنسان أن الصرف في الشئ الفلانى مباح وفيه مصلحة ولكنه لايهتدى إلى معرفة الصرف المذكور، كما هو مشاهد في المشاريع الكثيرة النفع، إن صرف فيها المال بالحكمة والمصلحة، فإن جواز الصرف فيها معلوم، وإيقاع الصرف على وجه المصلحة لايعلمه كل الناس.

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٧٥).

(٢) سورة البقرة الآية (٢٦١).

(٣) سورة الأنفال الآية (٣٦).

وبهذا تعلم أن أصول الاقتصاد الكبار أربعة:

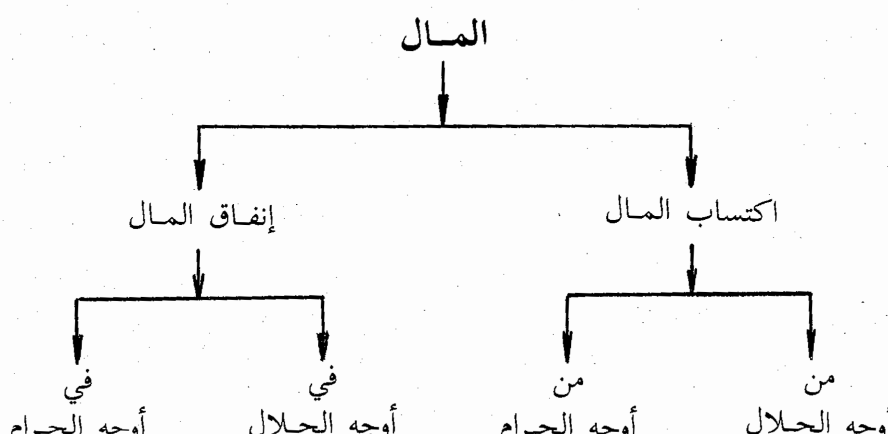
الأول : معرفة حكم الله في الوجه الذي يكتسب به المال، واجتناب الاكتساب به إن كان محرماً شرعاً.

الثاني : حسن النظر في اكتساب المال بعد معرفة ما يبيحه خالق السموات والأرض وما لايبيحه.

الثالث : معرفة حكم الله في الأوجه التي يصرف فيها المال واجتناب المحرم منها.

الرابع : حسن النظر في أوجه الصرف واجتناب ما لايفيد منها.

فكل من بنى اقتصاده على هذه الأسس الأربعة كان اقتصاده كفيلا بمصلحته وكان مرضياً لله جل وعلا، ومن أخل بواحد من هذه الأسس الأربعة كان بخلاف ذلك، لأن من جمع المال بالطرق التي لايبيحها الله جل وعلا فلاخير في ماله ولا بركة كما قال تعالى ﴿ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾[1].



(١) سورة البقرة الآية (٢٧٦).

قواعد النظام الاقتصادي في الإسلام

يتلخص نظام الإسلام الاقتصادى في قواعد مهمّة، مردُّها إلى نصوص القرآن والسنة، وما استنبطه فقهاء الإسلام من هذه النصوص مما هو مدوّن في كتب الفقه الإسلامي، وبخاصة كتب الاقتصاد وأبواب المال، ويمكن أن نلخص هذه القواعد فيما يلي:

١ ــ اعتبار المال الصالح قوام الحياة، ووجوب الحرص عليه، وحسن تدبيره وتثميره.

٢ ــ إيجاب العمل والكسب على كل قادر.

٣ ــ الكشف عن منابع الثروات الطبيعية، ووجوب الاستفادة من كل ما في الوجود من قوى ومواد.

٤ ــ تحريم موارد الكسب الخبيث.

٥ ــ الضمان الاجتماعي لكل مواطن وتأمين حياته والعمل على راحته وإسعاده.

٦ ــ الحث على الإنفاق في وجوه الخير، وافتراض التكافل بين المواطنين ووجوب التعاون على البر والتقوى.

٧ ــ تقرير حرمة المال، واحترام الملكية الخاصةمالم تتعارض مع المصلحة العامة.

٨ ــ تنظيم المعاملات المالية بتشريع عادل رحيم، وليس أعدل ولا أعلم بمصالح العباد من اللطيف الخبير الذي شرع للناس أنظمة الحياة والتعامل في ضل شريعته الخالدة.

٩ ــ تقرير مسئولية الدولة في حماية هذا النظام المالي الإسلامي[١].

فالمال الصالح قوام الحياة، وما ورد في ذم الدنيا والمال والغنى والثروة إنما يراد به ما يدعو إلى الطغيان والفتنة والإسراف ويستعان به على الأثم والمعصية والفجور وكفران النعمة. وفي الحديث «نعم المال الصالح للرجل الصالح»[٢] وفي الآية الكريمة ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا﴾[٣].

وقد نهى رسول الله ﷺ عن إضاعة المال في غير وجهه فقال «إن الله ينهاكم عن قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال»[٤].

كما أن من مات مدافعاً عن ماله فهو شهيد كما جاء في الحديث الصحيح «من قتل دون ماله فهو شهيد» متفق عليه[٥].

والعمل واجب على كل قادر لتحسين الإنتاج والكسب الشريف ومنع البطالة في المجتمع قال ﷺ «ما أكل أحدٌ طعاماً قطّ خيراً من أن يأكل من عمل يده وإن نبيّ الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده»[٦].

أما الكشف عن منابع الثروات :

فإن الله تعالى أخير أنه سخر كل ما في هذا الكون من منابع الثروات ومصادر

---

(١) انظر هذه القواعد في كتاب مشكلاتنا لحسن البنا ص ٣٩١.
(٢) مسند الإمام أحمد جـ٤، ص ١٩٧.
(٣) سورة النساء الآية (٥).
(٤) انظر صحيح البخارى جـ٤، ص ٤٨ كتاب الأدب.
(٥) انظر صحيح مسلم جـ١، ص ١٢٥ كتاب الإيمان.
(٦) صحيح البخاري جـ٢، ص ٦ كتاب البيوع.

الخير، وحث على الاستفادة منها واستغلالها فقال تعالى ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾(١).

وقال تعالى ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾(٢).

وتحريم الكسب الخبيث، لما فيه من أخذ المال بغير حق مشروع، ومنها، أخذ المال بغير مقابل من عمل: كالربا والقمار واليانصيب ونحوها، أو بغير حق، كالنّصب والسرقة والغش ونحوها، أو كان عوضاً لما يضر: كثمن الخمر والخنزير والمخدّر ونحوها، فكل هذه الموارد للكسب لايبيحها الإسلام ولايعترف بها..

وشرع الضمان الاجتماعي في الإسلام ممثلاً في الزكاة بأجلى صوره، وفيما يكون من الصدقات الأخرى والكفارات وفيما يلتزم به بيت المال تجاه العاجزين عن العمل بأسباب قهرية ونحوها، فلقد مر عمر بن الخطاب على يهودى يتكفف الناس، فزجره عمر، واستفسر عمّا حمله على السؤال، فلما تحقق من عجزه رجع على نفسه باللائمة وقال له: «ما انصفناك ياهذا، أخذنا منك الجزية قوياً وأهملناك ضعيفاً، أفردوا له من بيت المال ما يكفيه» .

إن المتأمل في نصوص الكتاب والسنة يجدها قد تحدثت عن المال باستفاضة تامة، ويمكن أن نصنف الآيات التي تحدثت عن المال ووردت في اكتسابه وفي إنفاقه إلى مايلي:

---

(١) سورة لقمان الآية (٢٠).
(٢) سورة الجاثية الآية (١٣).

(أ) الآيات التي تحدثت عن المال من حيث هو: ومنها الآيات التالية:

قال تعالى ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾[1].

وزينة الحياة الدنيا مباحة مرغوبة إذا لم تشغل عن طاعة الله قال تعالى ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[2].

وقال تعالى ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[3].

وقال تعالى ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[4].

ومثل هذه الآيات كثيرة كقوله تعالى ﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾[5].

(١) سورة الكهف الآية (٤٦).
(٢) سورة الأعراف الآية (٣٢).
(٣) سورة النحل الآية (٥،٨).
(٤) سورة الإسراء الآية (١٨، ٢٠).
(٥) سورة الإسراء الآية (٦).

وقوله تعالى ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴾[1].

(ب) الآيات الدالة على اكتساب المال من طرق الحلال: ومنها قوله تعالى ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[2].

وقوله تعالى ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾[3].

وقوله تعالى ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾[4].

(جـ) الآيات الدالة على إكتساب المال من وجه الحرام ومنها مايلي :

قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴾[5].

وقوله تعالى ﴿ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[6].

---

(١) سورة نوح الآية (١٢).

(٢) سورة البقرة الآية (١٩٨).

(٣) سورة الجمعة الآية (١٠).

(٤) سورة البقرة الآية (٢٧٥).

(٥) سورة النساء الآية (٢٩).

(٦) سورة البقرة الآية (١٨٨).

وقوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾[1].

وقوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾[2].

(د) الآيات الدالة على الإنفاق في الوجوه الممنوعة ومنها قوله تعالى ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ﴾[3].

وقوله ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾[4].

وقوله تعالى ﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾[5].

(هـ) الآيات الدالة على الإنفاق في وجوه الخير والنفقات الواجبة وهي كثيرة. ومنها قوله تعالى ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[6].

---

(١) سورة النساء الآية (١٠).

(٢) سورة البقرة الآية (٢٧٨).

(٣) سورة الأنفال الآية (٣٦).

(٤) سورة النساء الآية (٥).

(٥) سورة الإسراء الآية (٢٧).

(٦) سورة التوبة الآية (١٠٣).

وقوله تعالى ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾(١).

وقوله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ﴾(٢).

وقوله تعالى ﴿ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾(٣)

وقوله ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾(٤).

وقال تعالى ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾(٥).

وقوله ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾(٦)

هذه الموازين القرآنية في اكتساب المال وفي إنفاقه، أنزلها الله نوراً وهداية للإنسانية لتسير في المال على منهج واضح مستقيم، وتبنى أسسها الاقتصادية على هذا الطراز المقدس من كلام الله تعالى العليم بأحوال الناس وما يصلحهم في

(١) سورة التوبة الآية (٦٠).
(٢) سورة النور الآية (٣٣).
(٣) سورة الحديد الآية (٧).
(٤) سورة المعارج الآية (٢٥)، (٢٤).
(٥) سورة الطلاق الآية (٧).
(٦) سورة الفرقان الآية (٦٧).

معاشهم ومعادهم، وإنه لينبغي أن يحذر المسلم من تخبطه في هذه الأموال بغير هدى من الله تعالى، لأن المال مالَ الله قال رسول الله ﷺ «إن رجالاً يتخوّضون في مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة» رواه البخارى[1].

وقد رغب الإسلام في العمل واكتساب المال من طرق الحلال «فإن الله يُحب العبدَ المحترفَ، ومن كدَّ على عياله كان كالمجاهد في سبيل الله عز وجل» كما جاء في الأثر.

وقد تقدم قول النبي ﷺ كما في صحيح البخاري «ما أكل أحدٌ طعاماً قطُ خيراً من أن يأكَلَ من عمل يده، وإن نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده».

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: ﴿كان زكريا عليه السلام نجّاراً﴾[2]، وصنع نوح عليه السلام السفينة كما قص الله ذلك في القرآن الكريم، وكان داود عليه السلام يصنع الدروع كما أشار الله إلى ذلك بقوله ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾[3].

كما كان أخوال النبي ﷺ يقال لهم بنو النجار، وبالجملة فإن اكتساب المال بأى وجه من وجوه الاكتساب الشريفة كالعمل والتجارة والصناعة والزراعة مما دعت إليه الشرائع، وجعلته قواماً للحياة وميداناً للنشاط البشرى فوق هذه البسيطة.

---

(١) صحيح البخاري جـ٢، ص ١٩٢ فرض لخمس:

(٢) صحيح مسلم جـ٤، ص ١٨٤٧.

(٣) سورة الأنبياء الآية (٨٠).

الموضوع الخامس عشر : عالمية الدعوة الإسلامية في القرآن الكريم.

تعريف الدعوة : لها عدة تعاريف منها:

أن يقال : هي الإسلام من حيث المبادئ، والقيام بنشره وجذب الناس إليه من حيث الوسائل والأساليب.

وقيل : الدعوة ﴿هي الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر﴾[1].

وقيل : هي دين الله الذي أرتضاه للعالمين تمكيناً لخلافتهم، وتيسيراً لضرورتهم، ووفاء بحقوقهم، ورعاية لشئونهم، وحماية لوحدتهم، وتكريماً لإنسانيتهم، وإشاعة للحق والعدل فيما بينهم :

وقيل : هي الضوابط الكاملة للسلوك الإنساني، وتقرير الحقوق والواجبات.

وهي قبل ذلك وبعده : الاعتراف بالخالق، والبر بالمخلوق[2].

ولعلّ التعريف : الأول أشمل وأوجز.

الحكمة من تعدد الرسل :

لما كانت أمم الأرض في القرون الأولى على شكل شعوب وقبائل متفرقة منعزلة عن بعضها في نواحي الأرض، وكانت هذه الشعوب والقبائل بحاجة ماسة إلى منبّه

(١) الدعوة فريضة شرعية للدكتور / صادق أمين ص ٣٩.

(٢) الدعوة الإسلامية دعوة عالمية للشيخ محمد الراوي ص ٣٠.

ينبهها، ومنذرٍ ينذرها، ومصلحٍ يهذّبها، فقد اقتضت حكمة الله، وهو الحكيم الخبير، أن يرسل إلى هذه الأمم في قراها وبواديها وحواظرها المنعزلة رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون لهم حجة بالجهل والغفلة، وكان هؤلاء الرسل بمثابة السفراء الذين يحملون مهمة واحدة ذات أسس ومبادئ واحدةٍ، فيمثلون إرادة مرسلهم بها، ويبلغون كتبه ويؤدون رسالته.

وحدة الرسالات السماوية في أصولها :

من الواضح أن أسس رسالات الرسل ومبادئ دعوتهم واحدة، لأنهم رُسُل مُرْسِلٍ واحد، فلا خلاف في العقائد التى دعوا إليها وأهمها عقيدة التوحيد قال تعالى ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾[1].

كما أنه لا خلاف في روح العبادات التى أمروا بها ولا في مبادئ التعامل المادى والأخلاقى والسياسي التي نادوا بها، وما نراه الآن من البون الشاسع في المعتقدات بين أتباع رسالاتٍ سماويةٍ صحيحة الأصل، فإنما يرجع ذلك إلى التحريف والتبديل الذي دخل إلى مبادئ الديانات الأخرى، من أتباعٍ ذوى غايات سيئة حرّفوا وبدلوا وفق شهواتهم وأغراضهم الخاصة، قال تعالى في أصل هذه الديانات وتلاقيها في الأصول الصحيحة ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾[2].

---

(١) سورة النحل الآية (٣٦).

(٢) سورة الشورى الآية (١٣، ١٤)

ولو أن هذه الديانات السابقة بقيتْ على أصولها من غير تحريف لا التقى متّبعوها بصدقٍ، مع المسلمين التقاءً تاماً، ولكان أتباع الديانات السماوية كلهم ملةٍ حنيفية واحدة، تعمل بالمنهاج الشرعي الذي ختم الله به رسالات السماء وأنزله على محمد ﷺ.

ولئن كنا نرى بعض الاختلاف في أحكام الشرائع السماوية من رسالة إلى أخرى في الحلال والحرام وفي صور العبادات بحسب أصولها الصحيحة، فإنما يرجع ذلك إلى الحكمة الدقيقة في موافقة وضع كل أمةٍ لأساليب تربيتها وإصلاحها، وامتحان طاعتها وامتثالها لأمر الله ونواهيه، وذلك بالنظر إلى بيئة تلك الأمم ومستوى عاداتها وتقاليدها وثقافتها، وبالنظر إلى سرعة تطورها من وضع إلى آخر بحسب مستوى تخلفها الفكرى والاجتماعي والخلقى، يضاف إلى ذلك أن صور العبادات الممكنة في الاحتمال العقلى كثيرة، ولابد من تحديد بعضها ليتوجه به التكليف الإلهى، ولله تعالى أن يختار منها في تكليف عباده ما يشاء في حدود استطاعتهم، وله أن يستبدل غيره به في الشريعة الواحدة، أو يجعل في إحدى الشرائع صورة منها وفي شريعة أخرى صورة أخرى، فكثير من صور التكاليف متساوية من حيث اختبار المكلف في طاعته أو معصيته، ولا حجر على البارى تعالى في اختيار بعضها دون بعض ، أو في التنويع في الاختيار بين الشرائع أو في النسخ والتبديل في شريعة واحدة.

وعلى المكلف في كل ذلك أن يلتزم الصور التي حددها الله له وشرعها أمراً أو نهياً حتى يكون أهلاً لما منحه الله من عقل وإرادة وقدرة على العمل في مجال الابتلاء في الحياة الدنيا.

وتستمد عالمية الدعوة الإسلامية أدلتها من مصادر متعددة أهمها الكتاب والسنة :

فقد قرر القرآن الكريم ذلك في عدد من الآيات ومنها مايلي :

١ ـ قوله تعالى ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[١].

٢ ـ قوله تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[٢].

٣ ـ قوله تعالى ﴿إن هو إلا ذكر للعالمين، ولتعلمن نبأه بعد حين﴾[٣].

٤ ـ قوله تعالى ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[٤].

٥ ـ قوله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[٥].

٦ ـ قوله تعالى ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾[٦].

---

(١) سورة الفرقان الآية (١).

(٢) سورة الأنبياء الآية (١٠٧).

(٣) سورة ص الآية (٨٧،٨٨)، فسّر بعض العلماء قوله تعالى «بعد حين» أي بعد الموت أو يوم بدر.. الخ ولا أرى مانعاً أن تكون إشارة إلى صدق القرآن وظهور معجزاته عبر القرون في الأنفس والآفاق ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾ فصّلت الآية (٥٣).

(٤) سورة سبأ الآية (٢٨).

(٥) سورة الفتح الآية (٢٨).

(٦) سورة الأعراف الآية (١٥٨).

٧ ــ قوله تعالى ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾(١).

٨ ــ قوله تعالى ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾(٢).

ومن السنة ماورد من حديث جابر عن النبي ﷺ أنه قال «أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي .. ومنها» «وكان النبي يبعث في قومه خاصة وبُعِثْتُ إلى الناس عامة» رواه البخاري وغيره(٣).

وحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «والذي نفس محمد بيده لايسمع بى أحد من هذه الأمة يهودىّ ولا نصرانى ثم يموت ولم يؤمن بالذى أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» رواه مسلم(٤).

وإذا صرّح باليهود والنصارى ــ وأهم أهل الكتاب ــ فغيرهم من باب أولى.

وهذا يدل على عموم دعوة الإسلام وشمولها للعالمين.

ومن الدلائل على عموم رسالة الإسلام وشمولها: رسائل وكتب الرسول ﷺ إلى الملوك والحكام، وقد ثبت أن الرسول ﷺ لما رجع من الحديبية كتب إلى ملوك الأرض وأرسل إليهم رسله يدعوهم إلى الإسلام، فقد أرسل إلى النجاشي

---

(١) سورة يس الآية (٦٩، ٧٠).

(٢) سورة الأنعام الآية (١٩).

(٣) صحيح البخاري جـ١، ص ٧٠ كتاب التيمم.

(٤) صحيح مسلم جـ١، ص ١٣٤ كتاب الإيمان.

ملك الحبشة، وأرسل إلى قيصر ملك الروم، وأسمه «هرقل» وقد بعث إليه النبي ﷺ دحية الكلبى، كما أرسل إلى أسقف الروم بالقسطنطينية، وبعث إلى أساقفة نجران، كما بعث إلى «المقوقس» عظيم القبط .. وقد بعث إليه حاطب بن أبي بلتعة، وكتب إلى كسرى «إبرويز» عظيم فارس، كما كتب ﷺ إلى «الهرمزان» عامل كسرى، وبعث إلى المنذر بن ساوى العبدى، عامل كسرى على البحرين.

وبعث إلى ملوك «عمان» ومن كان منهم بالبحرين، كما كتب إلى أهل اليمن كتابا عاماً وكتب ﷺ إلى يهود خيبر وغير ذلك من الكتب والرسائل والوفود التي كان ﷺ يتعهد بها الأقطار في سبيل إبلاغ دعوة الإسلام إليهم..

لأن هذا الدين هو الدين القيّم الذي ارتضاه الله لعباده، ووضع فيه من كنوز المعرفة، وأسرار الحق، وأصول العدل، ومناهج الخير، وضوابط السلوك، وقواعد الهداية والتشريع ماينطق بأنه الدين الحق، وأن رسالة محمد ﷺ خاتمة الرسالات، لأنها اشتملت واستوعبت حاجات البشر بما ينير لهم الطريق، ويفتح لهم الآفاق ويصلهم بالله في جميع حركات الكون والحياة.

وبعد : فهذه لمحات موجزة، وموضوعات متفرقة جُمعتْ بين يدى التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، والله أسأل أن يجعل العمل خالصاً لوجهه الكريم، وصلى الله وسلّم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
المقـدمة	٥
مدخل إلى التفسير الموضوعي	٧
تعريف التفسير الموضوعي	٧
نشأته وتطوره	٩
أهمية التفسير الموضوعي	١٦
الفرق بين التفسير الموضوعي وأنواع التفاسير الأخرى	١٧
طريقة البحث في التفسير الموضوعي	٢١
الفصل الأول : في أصول الإيمان والشرائع والأخلاق	٢٥
المبحث الأول : أصـول الإيمان	٢٧
المبحث الثاني : أصـول الشرائع	٣٢
المبحث الثالث : أصـول الأخلاق والفضائل	٣٩
الفصل الثاني : التنزيل المكى والمدنى وأثرهما في سير الدعوة وبناء المجتمع	٤٧
المبحث الأول : مقاصد القرآن الرئيسية	٤٩
المبحث الثاني : التنزيل المكى وأثره في سير الدعوة	٥٣
الناس أمام هذا القرآن فرق ثلاث	٦٠
المبحث الثالث : التنزيل المدنى وأثره في سير الدعوة وبناء المجتمع	٦٧

الفصل الثالث : مناسبات السور والآيات ودلالتها على الأحكام ٧٥
المبحث الأول : تناسب السور ٧٧
المبحث الثاني : تناسب الآيات ٩٣
أنواع التناسب بين آيات القرآن ٩٦
المبحث الثالث : دلالة التناسب على الأحكام ١٠٤

الفصل الرابع : الوحدة الموضوعية في سورة القرآن ١٠٩
سورة البقرة ١١٤
سورة آل عمران ١١٨
سورة النساء ١٢٣
سورة المائدة ١٢٦
سورة الأنعام ١٢٩
سورة الأعراف ١٣٤
سورة الأنفال ١٣٦
سورة التوبة ١٣٩
سورة يوسف ١٤٢
سورة الكهف ١٤٥
سورة النور ١٤٩

الفصل الخامس : تفسير بعض الموضوعات تفسيراً موضوعياً ١٥٣
الموضوع الأول : التوحيد ١٥٥
الوجود الإلهي حقيقة مسلّمة ١٦٨
ضلال بعض البشر في عقيد التوحيد ١٧٠
موقف القرآن من الوحدانية والتوحيد ١٧١
سر الاهتمام البالغ ١٧١
جوامع الألفاظ ١٧١
أصل الأصول جميعاً ١٧٣

أساس دعوة الرسل ١٧٤
الربوبية والألوهية وصلتهما بالتوحيد ١٧٨
وصفان لايفترقان ١٧٩
عقيدة التوحيد شاملة ١٨٤
أساليب القرآن في الحديث عن الوحدانية والتوحيد ١٨٦
الاستدلال القرآنى ١٩٠
أنواع الأدلة القرآنية ١٩٢
الشرك ظنون وأوهام ١٩٨
الموضوع الثاني : الملائكة المكرمون ١٩٩
خلْقُ الملائكة ١٩٩
متى خلقوا؟ ٢٠١
عظم خلقهم! ٢٠٢
للملائكة قدرات خارقة ٢٠٣
للملائكة أجنحة ٢٠٣
جمـال الملائكة ٢٠٣
لايوصفون بالذكورة ولا الأنوثة ٢٠٤
لا يأكلون ولا يشربون ٢٠٥
عـددهم ! ٢٠٦
أصناف الملائكة ووظائفهم ٢٠٦
تلخيص عام عن الملائكة ٢١٣
الموضوع الثالث : الأنبياء والمرسلون ٢١٤
الحكمة من إرسال الرسل ٢١٩
وظائف الأنبياء والرسل ٢٢٠
صفات الأنبياء والرسل ٢٢٣
عدد الأنبياء والرسل ٢٢٨
الفارق الأساسى بين الأنبياء والمرسلين والحكماء والمصلحين ٢٣٠
الحكمة والتيسير في دعوة الأنبياء وفي التشريع ٢٣٢

الموضوع الرابع : الكتب المنزلة ٢٣٥
أولاً : القرآن الكريم ٢٣٥
ثانياً : التوراة ٢٣٨
ثالثاً : الزبور ٢٤١
رابعاً : الإنجيل ٢٤٢
موقف العقيدة الإسلامية من كتب العهدين [القديم والجديد] ٢٤٥
الموضوع الخامس : الإخــلاص ....
كلمة الإخلاص في القرآن على أربعة أوجه ٢٤٩
معنى الإخلاص شرعاً ٢٥٤
الإخلاص دليل كمال الإيمان ٢٥٤
قيمة الإخلاص في الفرد والمجتمع ٢٥٥
نواقض الإخلاص ٢٥٧
الموضوع السادس : الإيمان بالغيب وأثره في حياة المجتمع ٢٥٨
تعريف الغيب لغة وشرعاً ٢٥٨
ورد الغيب في القرآن على أحد عشر وجهاً ٢٥٩
العالم غيبي ومشهود ٢٦٣
أثر الإيمان بالغيب في حياة الفرد والمجتمع ٢٦٨
الموضوع السابع : البعث والجزاء ٢٦٩
البعث في القرآن على ستة أوجه ٢٦٩
منكرو البعث من الطبائعيين والماديين ٢٧١
منهج القرآن في استدلاله على إمكان البعث وتحقق وقوعه ٢٧٥
أولاً : الاستدلال على البعث بمن أماتهم الله ثم أحياهم ٢٧٥
ثانياً : الاستدلال على البعث بالنشأة الأولى ٢٧٨
ثالثاً : الاستدلال على إمكان البعث بخلق الأكوان ٢٨٣
رابعاً : الاستدلال على إمكان البعث بخلق النباتات المختلفة ٢٨٤
خامساً : الاستدلال على إمكان البعث بحصول أحد المتضادين ٢٨٦

سادساً : الاستدلال على البعث والإعادة بإخراج النار من الشجر الأخضر ٢٨٦
سابعاً : الاستدلال على البعث بأن اختلاف الناس في الدنيا لايرتفع ٢٨٩
ثامناً : الاستدلال على البعث بأن حكمة الله وعدله يقتضيان البعث والجزاء ٢٩٠
تاسعاً : الاستدلال على البعث بحصول اليقظة بعد النوم ٢٩١
أسماء اليوم الآخر ٢٩٢
قيـام الساعة ٢٩٤
مظاهر الحشر والنشر ٢٩٥
العرض والسؤال والحساب والميزان ٢٩٦
كتب الأعمال وشهادة الجوارح ٢٩٦
الجنـة والنـار ٢٩٧
الموضوع الثامن : القضـاء والقـدر ٢٩٨
تعريف القضاء والقدر ٢٩٨
حكم الإيمان بالقضاء والقدر ٢٩٩
الموضوع التاسع : الـولاء والـبراء ٣٠١
ورد الوليّ في القرآن على خمسة أوجه ٣٠١
الـبراء ٣٠٦
الموضوع العاشر : طاعة الرسول (ﷺ) وما يجب نحوه ٣٠٨
طاعة الرسول في حياته ٣٠٨
وجوب طاعته بعد وفاته ٣١٥
ما يجب نحوه ﷺ ٣١٨
الموضوع الحادى عشر : العـدل ٣٢٥
ورد العدل في القرآن على خمسة أوجه ٣٢٥
العدل في الحكم بين الناس في الولاية العامة كالحكم والقضاء ٣٢٨
العدل في الولاية الخاصة على الأولاد والأهل ٣٢٨

العدل في الإصلاح بين الناس ٣٢٩
الموضوع الثاني عشر : الجهــاد ٣٣٠
تعريف الجهــاد ٣٣٠
الجهاد في القرآن على ثلاثة أوجه ٣٣٠
أسباب الجهاد ٣٣٣
أهداف الجهاد في سبيل الله ٣٣٤
ما ينبغي عند إرادة الجهاد ٣٣٧
مواقف رائعة ٣٣٩
الموضوع الثالث عشر : العلم حقيقته وغايته ٣٤١
العلم قسمان ٣٤٢
العلم في القرآن على أحد عشر وجهاً ٣٤٤
الموضوع الرابع عشر : المال حرمته وطرق كسبه وإنفاقه ٣٥٠
نظرة الإسلام إلى المال ٣٥٠
أصـول الاقتصاد ٣٥٣
قواعد النظام الاقتصادى في الإسلام ٣٥٦
الموضوع الخامس عشر : عالمية الدعوة الإسلامية في القرآن الكريم ٣٦٤
تعريف الدعوة ٣٦٤
الحكمة من تعدد الرسل ٣٦٤
وحدة الرسالات السماوية في أصولها ٣٦٥
مصادر عالمية الدعوة الإسلامية ٣٦٦
كتب النبي (ﷺ) إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام ٣٦٨
فهرس الموضوعات ٣٧١
فهرس المصادر والمراجع ٣٧٧

فهرس المصادر والمراجع

أولاً : القرآن وعلومه .

اسم الكتاب	اسم المؤلف	مكان وتاريخ الطبعة
١ ــ أحكام القرآن	ابن العربي	عيسى البابي الحلبي بالقاهرة
٢ ــ استخراج الجدال من القرآن	ناصح الدين بن الحنبلي تحقيق د/ زاهر الألمعي	ط الفرزدق بالرياض ١٤٠١هـ
٣ ــ إصلاح الوجوه والنظائر	الحسن بن محمد الدامغاني	ط دار العلم للملايين بيروت
٤ ــ أضواء البيان	محمد الأمين الشنقيطي	ط المدني بالقاهرة
٥ ــ أهداف كل سورة ومقاصدها	د/ عبد الله شحاته	ط الهيئة المصرية العامة للكتاب
٦ ــ البحر المحيط	أبو حيان الأندلسي	ط النصر الحديثة بالرياض
٧ ــ البرهان في علوم القرآن	محمد بن عبد الله الزركشي	ط عيسى البابي الحلبي بالقاهرة
٨ ــ البرهان في توجيه متشابه القرآن	محمود بن حمزة الكرماني	ط دار الاعتصام بالقاهرة ١٣٩٨هـ
٩ ــ بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز	للفيروز أبادي	ط الاعلانات الشرقية بالقاهرة
١٠ ــ تفسير القرآن العظيم	ابن كثير	ط التجارية الكبري بالقاهرة
١١ ــ التفسير بين الماضي والحاضر	د/ عبد الله شحاته	دار الاعتصام بالقاهرة
١٢ ــ التفسير الموضوعي	د/ محمد القاسم	ط القاهرة ١٤٠١هـ
١٣ ــ الإتقان في علوم القرآن	للسيوطي	ط المشهد الحسيني بالقاهرة
١٤ ــ تناسق الدرر	للسيوطي	ط دار الاعتصام بالقاهرة ١٣٩٨هـ

اسم الكتاب	اسم المؤلف	مكان وتاريخ الطبعة
١٥ ـ جامع البيان في تفسير القرآن	محمد بن جرير الطبري	: دار المعارف بالقاهرة
		ط مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة
١٦ ـ الجامع لأحكام القرآن	القرطبي	ط دار الكتب الوطنية بالقاهرة
١٧ ـ دراسات في علوم القرآن	د/ عبد الغني الراجحي	مخطوطة بالقاهرة
١٨ ـ زاد المسير في علم التفسير	ابن الجوزي	ط المكتب الإسلامي بيروت ١٣٨٤هـ
١٩ ـ الأشباه والنظائر	مقاتل بن سليمان البلخي	ط الهيئة العامة للكتاب ١٣٩٥هـ
٢٠ ـ الصبر في القرآن	يوسف القرضاوي	ط مكتبة وهبة ١٣٩٧ القاهرة
٢١ ـ طبقات المفسرين	للداودي	ط الاستقلال الكبرى بالقاهرة
٢٢ ـ فتح القدير الجامع بين فني الدراية والتفسير	محمد علي الشوكاني	ط مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة
٢٣ ـ في ظلال القرآن	سيد قطب	ط دار الشروق بيروت
٢٤ ـ القرآن الكريم	محمود شلتوت	ط دار الشروق ١٣٩٤هـ
٢٥ ـ الكشاف	الزمخشري	ط مصطفى البابي الحلبي بالقاهرة
٢٦ ـ محاسن التأويل	محمد جمال الدين القاسمي	ط عيسى البابي الحلبي ١٣٧٩هـ
٢٧ ـ مدخل إلى القرآن	محمد عبد الله دراز	ط دار القلم بيروت
٢٨ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم	محمد فؤاد عبد الباقي	ط دار الكتب المصرية
٢٩ ـ مفاتيح الغيب	فخر الدين الرازي	ط الهيئة المصرية بالقاهرة
٣٠ ـ المفردات في غريب القرآن	الراغب الاصفهاني	ط مصطفى البابي الحلبي
٣١ ـ مناهج الجدل في القرآن الكريم	د/ زاهر الألمعي	ط الفرزدق ١٤٠٤هـ الرياض
٣٢ ـ منهج ابن القيم في التفسير	محمد أحمد السنباطي	ط مجمع البحوث الإسلامية ١٣٩٣هـ
٣٣ ـ مناهل العرفان	للزرقاني	ط عيسى البابي الحلبي بالقاهرة
٣٤ ـ النبأ العظيم	محمد عبد الله دراز	ط السعادة بالقاهرة ١٣٨٩هـ

اسم الكتاب	اسم المؤلف	مكان وتاريخ الطبعة
٣٥ ــ نزهة الأعين النواظر	ابن الجوزي	ط دائرة المعارف العثمانية بحيدرأباد
٣٦ ــ نظم الدرر في تناسق الآيات والسور	للبقاعي	ط دائرة المعارف العثمانية حيدرأباد
٣٧ ــ الوحي المحمدي	محمد رشيد رضا	ط المكتب الإسلامي بيروت
٣٨ ــ إيجاز البيان في سورة القرآن	محمد علي الصابوني	ط مكتبة الغزالي القاهرة ١٣٩٩هـ
ثانياً : كتب الحديث ورجاله :		
٣٩ ــ تدريب الراوي	للسيوطي	ط دار الكتب الحديثة بمصر ١٣٨٥هـ
٤٠ ــ سنن أبي داود	أبو داود	ط دار إحياء السنة النبوية بالقاهرة
٤١ ــ سنن الترمذي	الحافظ أبو عيسى الترمذي	ط المطبعة الوطنية بحمص ١٣٨٥هـ
٤٢ ــ سنن الدارمي	عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي	ط دار الفكر
٤٣ ــ سنن ابن ماجه	الحافظ ابن ماجه	ط عيسى البابي الحلبي ١٣٧٢هـ
٤٤ ــ شعب الإيمان	للحافظ البيهقي	مخطوطة بالقاهرة
٤٥ ــ صحيح البخاري بحاشية السندي	محمد بن إسماعيل البخاري	ط عيسى البابي الحلبي بالقاهرة
٤٦ ــ صحيح مسلم	مسلم بن الحاج النيسابوري	ط عيسى البابي الحلبي القاهرة
٤٧ ــ مستدرك الحاكم	للحاكم النيسابوري	ط مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب
٤٨ ــ مسند الإمام أحمد	أحمد بن حنبل	ط المكتب الإسلامي دار صادر بيروت
٤٩ ــ منهاج الصالحين	عز الدين بليق	ط دار الفتح بيروت
٥٠ ــ النهاية في غريب الحديث	ابن الأثير	ط عيسى البابي الحلبي ١٣٨٣هـ
ثالثاً : كتب الفقه وأصوله :		
٥١ ــ إعلام الموقعين	ابن القيم	ط مكتبات الكليات الأزهرية ١٣٨٨هـ

اسم الكتـــاب	اسم المـؤلف	مكان وتاريخ الطبعة
٥٢ ــ حجة الله البالغة	للإمام الدهلوي	ط دار الكتب الحديثة بالقاهرة
٥٣ ــ الرسالة	الإمام الشافعي	ط مصطفى البابي الحلبي ١٣٥٨هـ
٥٤ ــ مجموع فتاوي ابن تيمية	جمع عبد الرحمن بن قاسم	ط مطابع الرياض ١٣٨٢هـ
٥٥ ــ المغني	لابن قدامة	ط مطبعة الإمام بالقاهرة

رابعاً : كتب العقيدة والفلسفة والمنطق :

٥٦ ــ أصول التوحيد في القرآن	د/ محمد صالح	مخطوط
٥٧ ــ إظهار الحق	رحمة الله الهندي	ط الشئون الدينية بدولة قطر
٥٨ ــ إيضاح الدلالة في علوم الرسالة	لابن تيمية	ط مكتبة الرياض الحديثة
٥٩ ــ درء تعارض العقل والنقل	ابن تيمية	ط جامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض
٦٠ ــ العقيدة الإسلامية وأسسها	عبد الرحمن حبنكة الميداني	ط دمشق ١٣٨٥هـ
٦١ ــ عالم الملائكة الأبرار	عمر سليمان الأشقر	ط مكتبة الفلاح بالكويت
٦٢ ــ الكشف عن مناهج الأدلة	ابن رشد	ط المكتبة المحمدية بالقاهرة ١٣٨٨هـ
٦٣ ــ مدارج السالكين	ابن القيم	ط السنة المحمدية بالقاهرة ١٣٧٥هـ
٦٤ ــ الملل والنحل	الشهرستاني	ط مصطفى البابي الحلبي ١٣٨٧هـ
٦٥ ــ المنقذ من الضلال	الغزالي	ط دار النصر للطباعة بالقاهرة ١٣٨٥هـ
٦٦ ــ النبوة والأنبياء	أبو الحسن الندوي	ط الاستقلال الكبرى بالقاهرة ١٣٩٠هـ
٦٧ ــ النبوة والأنبياء	محمد علي الصابوني	ط دار الإرشاد بيروت
٦٨ ــ الوحدانية والتوحيد	د/ عبد الستار السعيد	مخطوط

خامساً : كتب التأريخ والتراجم والسير والثقافة :

٦٩ ــ البداية والنهاية	ابن كثير	ط الفجالة الجديدة بمصر

اسم الكتاب	اسم المؤلف	مكان وتاريخ الطبعة
٧٠ ــ تاريخ الخلفاء	السيوطي	ط السعادة بمصر ١٣٧١هـ
٧١ ــ جامع بيان العلم وفضله	ابن عبد البر	ط العاصمة بالقاهرة ١٣٨٨هـ
٧٢ ــ حلية الأولياء	أبو نعيم الاصفهاني	ط دار الكتاب العربي بيروت
٧٣ ــ الدعوة الإسلامية دعوة عالمية	محمد الراوي	ط دار العربية للطباعة بيروت
٧٤ ــ الدعوة فريضة إسلامية	صادق أمين	ط المطابع التعاونية عمان
٧٥ ــ زاد المعاد	ابن القيم	ط جامعة الإمام محمد بن سعود
٧٦ ــ السيرة النبوية	ابن كثير	ط عيسى البابي الحلبي القاهرة ١٣٨٤هـ
٧٧ ــ شذرات الذهب	ابن العماد الحنبلي	ط المكتب التجارى بيروت
٧٨ ــ الشفا بتعريف حقوق المصطفى	القاضي عياض	ط دار الفكر بيروت
٧٩ ــ الإصابة في تمييز الصحابة	ابن حجر العسقلاني	ط دار النهضة بمصر
٨٠ ــ قصص الأنبياء	ابن كثير	ط دار الكتب الحديثة بالقاهرة
٨١ ــ مشكلاتنا	حسن البنا	ط ضمن مجموعة رسائل حسن البنا
٨٢ ــ مفتاح السعادة	طاش كبرى زاده	ط دار الكتب الحديثة

سادساً : كتب اللغة والمعاجم :

٨٣ ــ أساس البلاغة	الزمخشري	ط دار صادر بيروت ١٣٨٥هـ
٨٤ ــ القاموس المحيط	الفيروز أبادي	ط مؤسسة الحلبي القاهرة
٨٥ ــ المصباح المنير	الفيّومي	ط المطبعة الأميرية بالقاهرة
٨٦ ــ معجم مقاييس اللغة	ابن فارس	ط مصطفى البابي الحلبي ١٣٨٩هـ

مَطابع الفـرَزدق التجاريَة - الريَاض
المعـذر ٤٨٢٤٩٨٣
٤٨٢٤٨٦٥